

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة الحاج لخضر لخضر

كلية الآداب واللغات

باتنة

قسم اللغة العربية وآدابها

وسائل الإقناع في خطبة طارق بن زياد دراسة تحليلية في ضوء نظرية الحجاج

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية

التخصص: اللسانيات العامة

تحت إشراف الأستاذ: محمد بوعمامة

من إنجاز الطالبة :

لجنة المناقشة

سليمة محفوظي

جامعة باتنة	رئيسا	الدكتور عبد الكريم بوزنان
جامعة باتنة	مقررا	الدكتور محمد بوعمامة
جامعة بسكرة	مناقشا	الدكتور صلاح الدين ملاوي
جامعة باتنة	مناقشة	الدكتورة زغدودة ذياب

السنة الجامعية: 2011/2010

بعد التطور الذي عرفته الدراسات اللسانية والذي تجلّى في نشأة الدراسات اللسانية التداولية اتّضح أن عزل اللغة عن الواقع أي دراستها في ذاتها ومن أجل ذاتها، لم يعد له اليوم ضرورة علمية، فانتقل الاهتمام في الدراسات اللسانية من الوصف إلى بحث أساليب الاستعمال ومقاماته.

وقد تنبه بعض الباحثين إلى وظيفة أخرى تقوم بها اللغة عدا التبليغ والتواصل هي الوظيفة الحجاجية Argumentative فالحجاج يقوم على دراسة تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أفكار. وقد ظهرت عدّة نظريات في التقاليد الغربية تحلّل الكلام باعتباره فعلا حجاجيا. والمتطّلع في الثقافة العربية الإسلامية يجد دون شكّ آراء وتصورات حول الحجاج وأشكاله سواء عند الأصوليين واللّغويين وعلماء الحديث والنّحاة كما نستطيع العثور عليه في الشعر، والخطابة والمقامة ... الخ.

ولهذه الأهمية الأدبية والاجتماعية وقع اختياري على خطبة طارق بن زياد باعتبارها أقدم نص أدبي مغربي.

يمكن صياغة مشكلة البحث الأساسية في العبارة التالية: كيف يمكن تحديد معالم الخطاب الحجاجي في خطبة "طارق بن زياد" في ضوء منظومة من الخطب تعكس مدى الاستجابة لأغراض فن الخطابة في الثقافة العربية والإسلامية التقليدية والتّوفيق بينهما وبين قواعد التّخاطب الحديثة ولعل هذا المسعى البحثي سيسمح بتحقيق جملة من الأهداف نوردّها فيما يلي:

- 1- تسليط الضوء على تطور نظريات الحجاج قديما وحديثا.
 - 2- إبراز أهم مرتكزات الحجاج البلاغي في ضوء نظرية البلاغة الجديدة.
 - 3- الكشف عن المنطق الحجاجي المتبع في نص الخطبة.
- ولتحقيق هذه الأهداف كان العمل يسير وفق الخطة التالية حيث قسمنا البحث إلى أربعة فصول تسبقهم مقدمة وتتلوهم خاتمة.

الفصل الأول: فمدار الاهتمام فيه الحجاج بعنوان "تاريخ الحجاج" حيث عرض فيه:

- 1- الحجاج عند قدماء اليونان عموما وأرسطو خصوصا: فلا أحد ينكر دوره في التّظهير لهذا الموضوع، وإن لم يكن عمله في الحجاج تم باعتباره مبحثا خالصا.
- 2- الحجاج عند العرب: حاول البحث تأكيد أصالة الحجاج عندهم، وأنهم ليسوا مجرد نقلة لفكر أرسطو مع توضيح أهم الأجناس الحجاجية التي مارسوها.
- 3- الحجاج عند الغربيين المحدثين: سعى البحث لإبراز أهم النظريات المعاصرة خاصة عمل ديكر و أو سكمبر اللذين يربطان الحجاج باللغة.
- 4- البيان والحجاج والخطابة والبلاغة بين تراثنا والبلاغة الحديثة من خلال البيان والتبيين لنكشف العلاقة بينهم.

أما الفصل الثاني: فبعنوان الحجاج مفهومه وآلياته اللسانية والمنطقية تعرضنا فيه إلى:

- 1- تعريف الحجاج.
- 2- الخصائص اللسانية، نقوم باستقراء الوسائل اللغوية في الحجاج كالتكرار، الحذف ... الخ.
- 3- الخصائص المنطقية حاولنا التعرض للتقنيات الحجاجية كطرائق الوصل أو الاتصال كالحجج شبه المنطقية، التناقض وعدم الاتفاق، التماثل ... والطرائق الانفصالية، كالشاهد والتّمثيل، حجة السّلطة.

الفصل الثالث: جعلناه للدراسة التطبيقية بعنوان "التّحليل النصي الحجاجي لخطبة طارق

بن زياد" وقد تضمّن:

- التّعريف بصاحب الخطبة نسبه، مولده، المناسبة التي ألقى فيها هذه الخطبة.
- الخصائص اللغوية أو التقنيات اللسانية التي وردت في الخطبة وعملت على تقوية حجاجية الخطبة، كالربط النصي ... الخ.

تقنيات المحاجبة في الخطبة على ضوء الحجج العقلية والحجج الواقعية و الحجج بالسلطة.

إبراز دور الاستعارات المجازية ومدى تأثيرها على العملية الحجاجية كالتشبيه ... الخ.

المحسنات البديعية والقيمة الحجاجية التي توفرت عليها مثل الطباق والجناس ... الخ

الفصل الرابع: كان بعنوان "آلية بناء الحجج" حيث عمدنا إلى الكشف عن:

1- ترتيب أجزاء القول في نص الخطبة باعتباره منهجية يضعها المخاطب للتدرج في العملية الحجاجية.

2- صور الترتيب النحوي التي وردت في النص لما للنحو من وظيفة توضيحية وبالتالي حجاجية.

3- استثمار نظرية السلم الحجاجي في بناء الحجج، فكما هو معلوم فالحجج تتفاوت من حيث القوة والضعف، ومن كانت حجته أقوى كان حجاجه مؤثرا ومقنعا.

وأما الخاتمة: فأوردنا فيها تلخيصا، وضبطا لأهم ما وصلنا إليه من نتائج ونود أن نذكر من اللسانيين العرب من حاول وصف المحاجبة في الثقافة الإسلامية القديمة، كأعمال: "طه عبد الرحمان" في دراسته "اللسان والميزان" وحسان الباهي في: اللغة والمنطق، ومحمد الواسطي في أساليب الحجج في البلاغة العربية وعبد الله صوله في دراسته الحجج في القرآن الكريم ومحمد يونس من خلال كتابه: "علم التخاطب الإسلامي" وغيرها من البحوث والدراسات، إلا أننا لم نعثر على دراسة واحدة اتخذت من هذا الإطار المنهجي أو من هذه المدونة مجالاتها، وهو ما حفزنا لطلب خوض غمار هذه التجربة العلمية المحفوفة بالمخاطر والمحاذير، متسلحين في ذلك بأخلاق البحث العلمي ومنهج وصفي تحليلي نحاول من خلاله النفاذ إلى دعائم هذه الإستراتيجية الحجاجية التي افترضنا وجودها في خطبة "طارق بن زياد فاتح الأندلس".

وهذا وقد اعتمدنا عدّة مراجع في هذا البحث نذكر منها "أهم نظريات الحجاج في النّقايد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم" وهو عمل فريق من الباحثين التّونسيّين وقد استفاد منه البحث كثيرا بالإضافة إلى كتاب الخطابة لأرسطو ترجمة عبد الرحمان بدوي، وكتاب "المناظرة في الأدب العربي الإسلامي" لحسين الصديق و"أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي" للشيخ طه عبد الله محمد السبعراوي وكذا كتاب "اللسان والميزان" لطفه عبد الرحمان وبعض المراجع الغربيّة لبرلمان وتيتكاه:

traite de l' argumentation :la nouvelle rhétorique

وأیضا Les Echelle argumentatives لديكرو .

ولقد واجهت الباحثة عدة صعوبات، أهمها ارتباط الحجاج عند أرسطو بالفلسفة وتشعبه وعدم وجود نماذج تطبيقية لمثل هذه الأعمال وقلة الدّراسات التي تربط القديم بالحديث في هذا الميدان خصوصا.

وإني إذ أنجز هذا البحث لن أنسى أبدا المساعدات الجمّة التي قدمها لي الأستاذ المشرف طوال مدة انجازه سواء بمساعدتي بأهمّ المراجع أو بصبره ونصائحه وتوجيهاته الصّائبة.

وفي الختام أرجو أن يكون هذا البحث محققا لأهمّ أهدافه المنشودة والمسطرة.

والله الموفق



تاريخ الحجاج

الحجاج عند

اليونان

توطئة

كان البلاغيون اليونان متأثرين بالمتغيرات الاجتماعية ، التي حدثت في القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد اليونان. ففي كتابه "سيناجوج" يعزو أرسطو نشأة البلاغة إلى "تيسياس وكوراكس" الصقليين في الربع الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد⁽¹⁾، وكان هذان الشخصان بارعين في التحدث أمام العامة، وماهرين في إقناع الآخرين بوجهة نظرهما. وبعد طرد الطغاة والمستبدّين وإقامة نظام حكم ديمقراطي فيها، قام ملاك الأراضي التي كانت قد صودرت أيام حكم الدكتاتوريين بإجراء مرافعات قانونية لاستيراد أراضيهم وأملأهم . ولهذا احتاج هؤلاء إلى مساعدة " كوراكس و تيسياس" في هذه المرافعات⁽²⁾ خلال هذه الفترة شهدت اليونان نوعين من الإصلاحات، كان لهما الأثر الكبير على تطور فنّ البيان في اليونان القديمة

كان الإصلاح الأول هو "الإصلاح السياسي (450 ق م) والذي نتج عنه إنشاء نوع من الحكم الديمقراطي"⁽³⁾. أما الإصلاح الثاني فقد تمثّل في "الإصلاح القضائي في عام (462 ق م) ولقد مكّنت تلك الإصلاحات السياسية جميع المواطنين الاثنين - ولو من حيث المبدأ- من أن يصبحوا أعضاء في البرلمان الاثنين، وأن يصوتوا في الأمور العامة ممّا أدى إلى وجود حركة اجتماعية كبيرة في مجتمع أثينا... وبهذا زادت الحاجة إلى مهارات التحدث ومهارات الإقناع. أما الإصلاح القضائي فقد كان له أكبر الأثر في إعطاء الناس الحرية في طرح قضاياهم والدفاع عن أنفسهم".⁽⁴⁾

في ضوء هذه التغيرات أصبحت الملكية البلاغية، وأصبح فنّ التحدث وإقناع العامة أمراً غاية في الأهمية في المجتمع اليوناني في تلك الفترة وسنحاول أن نقدّم أبرز المحطات التي مرّ بها فنّ الإقناع في بلاد اليونان.

إنّ استنطاق عهد الحجاج الأول يقودنا إلى التمييز بين عدّة اتجاهات أسست له تأسيساً سار على هديّه جلّ اللاحقين. وكانت البداية مع:

¹- عبد الجبار الشرافي، البلاغة عند اليونان ، ص11.

²- نفس المرجع ص14.

³-محمد الجابري: تكوين العقل العربي ، ص87

⁴- نفس المرجع ص87-88

1- التفكير الحجاجي عند كوراكس :

يعتبر أول من نظر للحجاج وسعى إلى استنباط صياغة منهجية تنظم الخطاب الحجاجي⁽⁵⁾ ويقودنا استقراء ما أوتر عن كوراكس إلى مجموعة من الملاحظات نجملها في الآتي: (6)
ارتباط نشأة الحجاج بظهور المدينة الإغريقية واستقرارها كياناً مادياً ومنظومة قيمية.
عمق الارتباط بين نشأة الحجاج واحتفاء المدينة الإغريقية بالكلمة.
الصلة بين الحجاج والمؤسسة القضائية التي قاد الاهتمام بالكلمة فيها إلى التفكير في الحجاج خطاباً وموضوعاً للخطاب.

حرص كوراكس على اقتراح مجموعة من التقنيات التي تسمح بإنتاج خطاب حجاجي ناجح في حضرة القضاء،
كما بين أن كل خطاب حجاجي يرتبط بمقام القضاء يتعلّق بمراسم تجليها العناصر الأربعة :

exorde'إشْد انتباه السّامعين -

la présentation des faitsعرض موضوع الخطاب -

la discussionالادعم الأطروحة بما يناسبها من حجج -

la péroraisonالاستنتاج -

هذه العناصر سمحت بتأسيس منظومة قضائية حجاجية كان لها الأثر الكبير على السّاحة القضائية والاجتماعية

⁵ - حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم من مقدمة الأثر في الخلفية النظرية للمصطلح ص43.

⁶ - المرجع نفسه، ص 44، 45.

2- أما الاتجاه الثاني فتجليه خطابة السفسطائيين (*):

لقد مثل السفسطائيون بآثارهم رواد الوعي بالحاجة إلى تقنين قوة العبارة فكان أن اهتموا بجمالية اللغة وقيمتها وكان أن أرسوا أسس مبدأ الدحض، سواء من *la persuasion* الإيهامية إذ هي السبيل الأمثل للحمل على التصديق خلال مقارنة الحجج بعضها ببعض أم من خلال تنسيب كل الأطروحات، والإلحاح في الآن نفسه على إمكانية الدفاع عنها كلها انطلاقاً من إيمانهم بفعل الكلمة وشدة وقعها في نفوس متقيلها، وهذا ما يتجلى بوضوح في إشاراتهم المتعددة قولا وممارسة إلى أنّ الإيهام أو الحمل على التصديق، يتجلى كأبرز ما يكون في القدرة على إبراز أضعف الحجج، في لبوس أقواها إبرازاً يجعلها لا محلّ دفاع فحسب وإنما كذلك محلّ إقناع (7). أعطى السفسطائيون الكلمة مركز الاهتمام من خلالها تنشأ القيم وينشأ الدفاع عنها .

3- التفكير الحجاجي عند أفلاطون :

سار أفلاطون (ق 348 ق م) على خطى أستاذه سقراط في محاربة السفسطائيين. وأراد مثل أستاذه عالماً تسوده الذي *the* قيم مثالية، ويتعامل أفرادها فيما بينهم على مستوى عال ورفيع من الإنسانية والنبل، فكان مؤلفه الجمهورية أبقى فيه على من يراهم يحققون مشروعه وطرد منه من يراهم شرّاً عليه وعليها كالسفسطائيين والشعراء (8) أو الطغاة...

ولنا أن نشير إلى اشتغال أفلاطون بنمط معين من الأجناس الإبداعية وهي المحاورات المبنية على السؤال وهو من أشهر السفسطائيين *GORGIAS* والجواب . ومن أشهر هذه المحاورات، محاورة السفسطائي "جرجياس" وهذا إن دلّ على شيء *LE TYRAN* المعلمين في ذلك العصر، والملاحظ أن أفلاطون جعل السفسطائي قبل الطاغية فإنما يدلّ على خطورة السفسطائيين ومثابرة أفعالهم بأفعال أي طاغية (9) قال أفلاطون "لما كان الذئب يشبه الكلب وأكثر الحيوانات وحشية يشبه أكثرها أهلية وجب علينا - إن أردنا ألا نخطئ - أن نحذر الشبه قبل كل شيء فالشبه مزلة (10) ومن مزلة الشبه، كان خوف أفلاطون الأكبر من هذا التيار، وكان لزاماً عليه لتبديد أسباب الخوف العمل بجدّ للتمييز بين القول الفلسفي الحقيقي والآخر السفسطائي المزيف، ولتحقيق هذه الغاية اعتمد عدّة طرق للمواجهة كان أبرزها عرض التفكير السفسطائي أمام الآخرين. "فهم يسعون إلى كسب إعجاب الشعب ويضحون بالنفع العام في سبيل الخاص، ويعاملون الشعوب معاملة الأطفال فلا تهتمهم معرفة هل كانوا بتلك الطرق يجعلوهم أحسن حالاً أو أسوأ حالاً؟" (11) .

* - السفسطة: تيار فكري ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد وصفة *sophistes* كانت في الأصل لقباً تقديرياً وتعني الحكيم والرجل ذو الكفاءة المتميزة.

7- هشام الريفي، ضمن أهم نظريات الحجاج نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 187.

8- حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ص 9 .

9- هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 49

10- المرجع نفسه ، ص 67 .

11- هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص

ولكلّ ذلك كانت الخطابة عند أفلاطون متوجّهة رأساً إلى النّفس أشرف ما في أجزاء الإنسان لتقودها إلى السّعادة الحقّة ، ولهذا حرص على ضبط أركان هذه الصّناعة وهي ثلاثة :

-اعتماد المنهج الجدلي

-معرفة أنواع النّفوس وما يناسبها من الأقاويل

-معرفة ما يناسب المقامات المختلفة من الأساليب (12)

4- التفكير الحجاجي عند أرسطو: (13)

ألّف أرسطو عدّة أعمال مهمّة، تدخل في مجال التفكير المنطقي والفلسفي لم يخرجها (14) إلى النّاس بنفسه، بل ظهرت بعد وفاته بسنين طوال، اختلف الباحثون في أمر ترتيبها اختلافا كبيرا لكننا نعتمد تقسيم ابن خلدون لهذه المؤلفات.

1. كتاب المقولات: les catégories في الأجناس العالية التي ينتهي إليها التجريد والمحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس.
2. كتاب العبارة: De l'interprétation في القضايا التصديقيّة وأصنافها.
3. كتاب القياس: les premières analytiques في القياس وصورة إنتاجه عموماً.
4. كتاب البرهان: les seconds analytiques هو النّظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينيّة.
5. كتاب الجدل: (المواضع) les topiques وهو القياس المفيد، وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات وفيه أيضاً المواضع التي يستتبط منها صاحب القياس قياسه.
6. كتاب السّقسطة: (التّكيدات السّقسطيّة) les réfutations sophistiques وهو القياس الذي يفيد خلاف الحقّ، ويغالط به المناظر صاحبه، وهو فاسد وهذا إنّما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه .
7. كتابة الخطابة: la rhétorique وهو القياس المفيد، وترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم.
8. كتاب الشّعْر: وهو القياس الذي يفيد التّمثيل والتّشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النّفرة منه. (15)

¹² - حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص10

¹³ - ولد سنة 384 ق م توفي سنة 321 ق م

¹⁴ - يشبه هذا ماحدث لفار ديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure وكتابه محاضرات في اللسانيات العامة

¹⁵ - ابن خلدون ، المقدمة ص377

*المصطلحات الأجنبية لهشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص57

4. 1 جبهات الحجاج عند أرسطو:

تحمل معظم مؤلفات أرسطو فكره الحجاجي، سواء فيما عرضه من مبادئ أم فيما عارض به سابقه ومعاصريه، وربما كانت كتب "المواضع" والتبكيئات السفسطائية والخطابة أكثر المؤلفات حملا لآراء أرسطو، ففيها نجد:

جدلا صريحا أحيانا وضمنا أخرى مع معلّمه "أفلاطون" حيث طرح مشاريع تلنقي في جوانب مع تفكير أفلاطون، وفي جوانب أخرى معرفيّة ومنهجية وفكرية تختلف أشد الاختلاف.

جدلا صريحا واضحا محددا، ومنظما مع السفسطائيين، إذ اعتبر الأساس الذي بُنيت عليه "خطابهم" فاسداً.

جدلا مع خطباء أثينا وأدبائها، وضع تصوّرا جديدا للخطابة يختلف عن ذلك الذي عُرف قبله.⁽¹⁶⁾

وفيما يلي بيان بسيط لهذا المجال:

لا يوصل الجدل عند أرسطو إلى الحقيقة بالضرورة، فهذه مهمة البرهان

، ثمّ إنّ ليس بالإمكان القول بوقوع سائر مستويات البحث الفكري في دائرة الحقيقة، la démonstration

ففي نسق المعرفة الذي يمكن أن نستخلصه من الأركان، مستوى من مستويات البحث الفكري يهّم مبادئ العلوم كما

يهّم ما يجمع بين العلوم من علاقات، وهو مستوى غاية في الأهمية يتجاوز لعمومه، ولما يتصّف من كليته في

التّأول، ما يقتضيه قيام العلم من شرطيّ تحديد الموضوع وخصوصية المقدمات، فهو مستوى يقع خارج مجال العلم،

ويشبهه لكليته وعمومه المستوى الذي تقع فيه الفلسفة الأولى، وإن كان للفلسفة موضوع وهو دراسة الوجود بما هو

موجود، فالفيلسوف يضطرّ إلى اعتماد المشهورات (في فحص بعض ما تقوم عليه البراهين من أدلة أو درس ما بين

العلوم من صلات) وعلى المشهورات يعتمد الناس في بناء أحكامهم وأفعالهم⁽¹⁷⁾ بخلاف أفلاطون الذي أراد أن يبيّن

خطابة جدلية (معتمدة على الجدل)، لكنّها فلسفية موضوعها وغايتها الحقيقية وبيّن أرسطو أن الجدل ليس مطلبه الحقيقة

، بل امتحان ما هو خلافي من المشهورات، فالأقيسة المستندة إلى مقدمات جدلية إنّما تقود إلى الظنّ.

4.2 فصل الجدل عن الخطابة:

أشار إلى ما بينها من صلة بأن بيّن أوجه الشّبّه والخلاف بينهما، ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

¹⁶ - هشام الريفي: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص154.

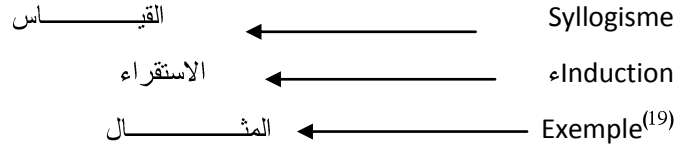
¹⁷ - المرجع نفسه، ص113، 114.

DIALECTIQUE الجدول	*(RHETORIQUE الخطابة)
- ليس لهما موضوع واحد محدّد، وإن كان الجدول أوسع أفقا . - يستعملان القياس والاستقراء .	
الجدول مداره حول مطلوب جدلي وهو سؤال لا يوجد في 1- خصوصه رأي آخر . هناك طرفان، لذلك يصطبغ الجدول بطابع الحوار ومشاركة 2- الطرفين ضرورية. لا يمثل الشخصان في المجادلة نفسيهما فقط، بل قد يمثلان 3- مذهبين كالجبائي والأشعري، أو فكرين مثل متى بن يونس والسيرافي، أو حتى ديانتين كالباقلائي المسلم ضدّ المسيحيين. حيث أن المجادل (Réfutatif)* الجدول حجاج تبكيتي 4- يبذل قصارى جهده من أجل إبطال القضية التي Dialecticien يعمل الطرف الآخر على بناء حفظها. وفي النهاية ليس شرطا أن يكون الطرف الآخر مقتنعا بحجاج المجيب. هدف الجدول نظريّ، فحص قضايا فكرية 5- بين أرسطو منافع الجدول، ومنها أنه وسيلة فعالة للتواصل 6- مع الآخرين ثم هو مجال النظر والبحث الفكريين كما أنه إذ لم يكن هناك خلل في حجاجك لن يتمكن الطرف الآخر من الانتصار عليك.	الخطابة مدارها المسائل التي تتميز بطابع المناقشة 1- الخطابة لا تقوم على السؤال والجواب وإن كان منشؤها السؤال، 2- فالخطبة غايتها محاولة الإقناع عدد المقول إليهم في الخطبة لا يشكل فرقا مميزا فقد يكون الموجه 3- إليهم جماعة، كما قد يكون شخصا واحداً. إذ ينصرف جهد الخطيب إلى Persuasif الخطابة حجاج إقناعي 4- هدف عمليّ. هدف الخطابة عملي ، في أهم مظاهره تحدث تغييرا في الاعتقاد 5- والسلوك . ومن منافع الخطابة — حسب أرسطو — أنها الضامنة للقيم التي 6- يجب مراعاتها في شؤون الاجتماع والسياسة والأخلاق وهي قيم العدل والنفع والخير... وأما الغاية من كلّ واحد من هذه فهي ثلث في ثلاثة ، أما المشير أي النوع المشاوري فالنافع أو الضار ، فإن الذي يشير يأذن في التي هي أفضل ويمنع من تلك الآخر وقد تستعمل تلك الآخر أيضا هذا المعنى، أعني العادلة والجائرة أو الصالحة أو السعيدة (18)....

3.4 أهم أدوات الحجاج عند أرسطو:

Raisonnement من المفاهيم المهمة التي أعطت الأدوات التي تنزلت فيها دراسة الحجاج مفهوم الاستدلال فقد كان موضع الاهتمام في مؤلفاته ولكنه لم يعرفه واستنتج الباحثون مفهومه انطلاقا من مفهوم القياس، واستخلاص النتيجة من مقدّمات تربط بينها علاقات منطقية، كما درس مختلف أشكال الاستدلال فوجدها

* نستعمل مصطلح la rhétorique للدلالة على الخطابة عند اليونان القديمة
 ♦ مصطلح التبكيت يوافقه في الترجمة لخطابة أرسطو النقائض
 18- أرسطو: الخطابة ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص17



فالاستدلال بأدواته يساعد" في تقييم مختلف الأقاويل التي تنتجها أو تُعرض علينا، يقول "علينا أن نبيّن الآن أننا لا نحصل بالأشكال التي درسناها في الأقسام السابقة على القياسات البرهانية فحسب ، بل نحصل أيضا على القياسات الخطيئة، وعلى جميع أشكال الإقناع عموما مهما تكن الطريقة التي نتبعها، فكلّ اقتناع إنما يحصل بالقياس أو ينشأ عن الاستقراء" (20). نلاحظ أن أرسطو اشتهر بالقياسات البرهانية أو المنطق الصوري مع أنه بذل الجهد الكبير في مجال القياسات الخطيئة والجدلية. الاستدلال في جميع المجالات واحد في صورته (انتقال من مقدمات إلى نتيجة) والاختلاف إنما يكون في المادة فحسب،

وعلى الرغم من صحة الاستدلال السفسطائي شكليًا، فإن أرسطو أقصاه من دائرة قياساته، ولذلك بحث على وسائل مواجهته بفضح الخل فيه

4.4 أشكال الحجاج الكبرى عند أرسطو:

1.4.4 الخطابة والإقناع: أراد أرسطو وضع خطابة جديدة ، تستفيد ممّا قبلها ولكنها تتجاوزها، فقد لاحظ أنّ الخطابة قبله كانت تهتمّ بما يؤثر في المتلقين بمعنى أنّ التأثير هو مركز الخطابة ورأى أنّ هذا يمثل خطرا على القيم التي يريد إرساءها، قال مثلا: "من الخطأ إفساد ذمّة القاضي وإثارة مشاعر الغضب أو الرّحمة فيه" (21) والحلّ عنده هو الانتقال من مخاطبة الانفعالات وتحريكها إلى إضفاء نوع من المعقوليّة على هذه الممارسة . فحوّل بذلك المركز من التأثير إلى الإقناع ورغم ذلك نراه لا يعرف الإقناع، ولكنّ الفلاسفة العرب الذين أخذوا على عاتقهم من التأثير الى الإقناع، ورغم ذلك نراه لا يعرفه الإقناع، ولكنّ الفلاسفة العرب الذين أخذوا على عاتقهم مهمة شرح وتلخيص هذه الأعمال بعد ترجمتها كان لهم الفضل في إيصال هذا الإرث الأرسطي إلى العالم القديم ومنه إلى الآن، ولولاهم لضاع هذا الجهد، "فها هو الفارابي يعرف الإقناع: "الخطابة صناعة قياسية غرضها الإقناع... من القناعة هي الغرض الأقصى بأفعال الخطابة، والقناعة ظنّ ما، والظنّ في الجملة أن يعتقد في الشيء أنّه كذا أو ليس كذا، ويمكن أن يكون ما يعتقد فيه على خلاف ما عليه وجود ذلك الشيء" (22). ومع ذلك فإنّ أرسطو يشير لفكرة طريفة يقول: "مهمّة الخطابة

¹⁹ - هشام الريفي: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 134-135

²⁰ - أرسطو: الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص 194 .

²¹ - أرسطو: الخطابة ترجمة عبد الرحمن بدوي ص 24

²² نفس المرجع ، ص 24.

ليست الإقناع بقدر ما هي البحث في كل حالة عن الوسائل الموجهة للإقناع...⁽²³⁾ فأهمية الإقناع عنده هي التي جعلته يبحث عن المسالك المختلفة القادرة على تحقيقه، ويسمى هشام الريفي حصوله عمل التأثير بالقول، ونرى أنه داخل تمام فيما يسمى بالتداولية، ولذلك كانت الخطابة معتمدة على ثلاث دعائم هي القائل، وما يشترط فيه من أخلاق، وما يحدثه ذلك من انفعال لدى المستمع وأخيرا القول نفسه مع مراعاة مبدأ الموافقة، موافقة القول للموضوع، وخلق القائل لموضوع القول وإن محطة التفاعل بين هذه الأبنية هي التي توفر حسب أرسطو أكبر الحظوظ لتحقيق عمل التأثير بالقول.

" 2.4.4 Les lieux المواضيع "

من المفاهيم الضخمة التي انبنى عليها الحجاج عند أرسطو المواضيع الخاصة بكل جنس حجاجي وكالعادة لم يعرف أرسطو المواضيع، في حين يركز الدارسون الغربيون في هذه الاستعارة المكنية على صلتها بالذاكرة، مبرزين حاجتها إلى الارتباط بالمكان، بانين حججهم في ذلك على أهمية الذاكرة في الخطابة، أي ذاكرة ما يحتاج إليه الخطيب: "أما المقاربة الإستعارية للموضع فهي أكثر دلالة من مجرد Barthes قبل بدء في استرجاع خطبته⁽²⁴⁾ يقول بارت " تعريفه، ولقد استعملت استعارات عديدة لتوضيح هوية الموضع، وقبل كل شيء نسأل لماذا كلمة موضع؟ لأنه على حد قول أرسطو: يكفي لتذكر الأشياء أن نتعرف الموضع الذي توجد فيه، فالموضع هو عنصر تداعي الأفكار، هو استعداد وترويض هو وسيلة نذكر، فالمواضع حينئذ ليست الحجج ذاتها بل هي الحجرات التي تحفظ فيها

3.4.4 الحجج الخاصة:

Preuves Particulières/الحجج المشتركة/Preuves Communes

الأقيسة الخطابية، les enthymèmes الحجج الخاصة عند أرسطو هي القضايا التي تكون "مقدمات للضمائر فهي المواد الأولية للمقدمات، وأما الحجج المشتركة فهي أشكال قولية استدلالية يبنى عليها الحجاج في الخطب جميعا⁽²⁵⁾ وهي كما في قول أرسطو "فالتصديقات العوام جنسان هما البرهان والتفكير فأما القول الموجز الذي هو الرأي فهو جزء من التفكير"⁽²⁶⁾.

4.4.4 الحجج الصناعية والحجج غير الصناعية:

فرق أرسطو بين الحجج الصناعية والحجج غير الصناعية: " فأما التصديقات فمنها بصناعة ومنها بغير صناعة وقد أعني باللاتي بغير صناعة تلك اللاتي ليست تكون بحيلة منّا لكن بأمر متقدمة كمثل الشهود والعذاب (أي الاعترافات المستخلصة بالتعذيب) والكتب والصكاك وما أشبه ذلك وأما اللاتي بالصناعة فما أمكن إعداده وتبنيته

²³ - الريفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 142.
²⁴ - حمادي صمود: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، من كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 156.

²⁵ - هشام الريفي: ضمن أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص 254

²⁶ - أرسطو: الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص 138

على ما ينبغي بالحيلة....⁽²⁷⁾ وبالنسبة للتصديقات الصناعية: "منها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته ومنها ما يكون بتهيئة السامع واستدراجه نحو الأمر، ومنها ما يكون بالكلام نفسه قبل التثبيت...⁽²⁸⁾ ولكن في هذه النقطة بالذات نلمح خلافا في بناء صرح خطابة أرسطو كيف يدعو إلى الحفاظ على القيم النبيلة في المدينة و هو في ممارسته يعتقد بعض ما يعتمد السفسطائيون يقول: "إذا كان القانون المكتوب يتعارض مع موقفنا فعلى الجوء إلى القانون العام والإنصاف لأن هذا أقرب للعدل ، و إن نبين أن القاضي حين أقسم على أن يحكم بأحسن الحكم فهو يقصد أنه لن يلتزم التزاما صارما بحرفية القوانين المكتوبة ، لكن إذا كان القانون المكتوب يخدم وجهة نظرنا فيجب أن نقول إن قسم القاضي بأن يحكم أحسن الحكم لا يخول له أن يحكم حكما مخالفا للقانون"⁽⁴⁾.

5.4.4 مراحل انجاز القول الخطبي:

لإنجاز القول الخطبي حسب أرسطو ثلاث مراحل مهمة هي:

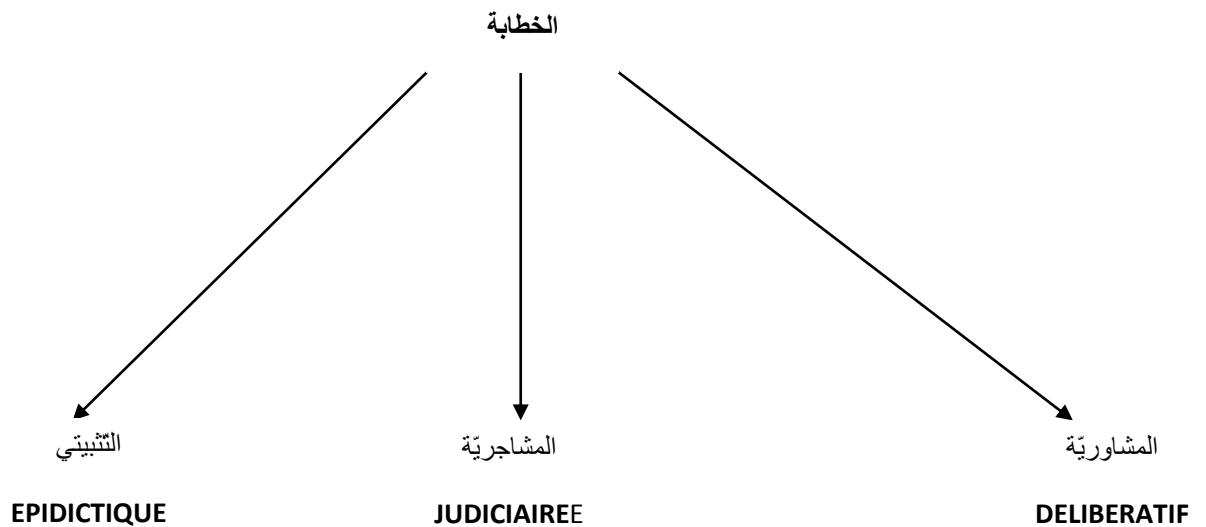
أ- الأولى **Eurisis** باللاتينية **Invention** حسب عبد الرحمن بدوي مصــــادر الأدلة.

ب- الثانية **Taxis** باللاتينية **Disposition** حسب عبد الرحمن بدوي ترتيب أجزاء القول

وحسب عبد الرحمن بدوي الأسلوب ⁽²⁹⁾ **Elocution** باللاتينية **Hypocrisis** ج- الثالثة

6.4.4 المواضيع الخطبية:

قسم أرسطو الخطابة إلى ثلاثة أقسام، كل جزء منها يخدم جانبا من الأهداف التي ينبغي إرساؤها في المدينة.



²⁷- نفس المرجع ص9

²⁸- نفس المرجع ص 10.

²⁹- هشام الريفي ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص259 .

أ- المواضع المشاورية:

يرى أرسطو أن الخطبة المشاورية تختص بفرعين للخير كبيره وصغيره الأول موضوعه الأمور العظام، وهي السياسة كما يقول ابن سينا، فبصلاحها يكون خير ونفع المدينة ولهذا على الخطيب أن يكون عارفاً بالعدة، والحرب والشّر، وحفظ البلد، وفيما يدخل ويخرج وفي وضع السّن (أي التشريع)⁽³⁰⁾ والثاني غرضه النصيحة حسب ابن رشد فيها يحصل الفرد على سعادته الخاصة، فالهدف الأسمى هو الخطر والخير عند أرسطو "الذي يُختار من أجل نفسه لا من أجل شيء آخر" (31)

ب- المواضع المشاجرية:

إنّ الخطب المشاجرية تتطلب معرفة شيئين "أولا طبيعة الدوافع التي تدفع الناس إلى ارتكاب الظلم والخصائص العقلية والأخلاقية لمركبي الظلم وثانيها الحجج غير الصنّاعية الخاصة بالخطابة المشاجرية، القوانين، والشهود والعذاب والإيمان..." (32)

ج- المواضع التنبؤية:

استخلص أرسطو أنّها والمواضع المشاجرية متشابهتان قال: "المدح والنصيحة ذوا مظهر واحد لأن ما نسدي من نصيحة بصير مدحا بتغيير العبارة..." (33)

خلاصة:

لم يعرف أرسطو الحجاج⁽³⁴⁾ أبداً، مع أنّه مارسه ممارسة مع السقراطيين ولكن نفهم من خلال ما سبق أنّه يشمل كلّ العملية القولية التي تتم بين السائل والمجيب (الجدل) وبين الخطيب وجمهوره (الخطابة) وحتى عمله في محاربة السقراطيين. يعدّ حجاجا مكتمل الأركان.

فالحجاج عند أرسطو الوسيلة الناجحة لتحسين فضاءات التعامل القولي بين أهل المدينة حيث أنّ الحجاج الجدلي يكشف السقراطيين ويفنّدهم، والحجاج الخطبيّ يُحصّن القيم المنشودة في المجتمع من الحجاج الزائف والمخادع والمقنّع .

وفي هذا الموضوع لا يختلف هدف أرسطو عن أستاذه أفلاطون من ممارسة الحجاج. لم يكن ميدانا خاصاً قائما بذاته، بل تنزّل ضمن نظريته إلى الحياة بكلّ أبعادها.

³⁰- أرسطو ، الخطابة ، ترجمة عيد الرحمن بدوي ص20

³¹- نفس المرجع ، ص 220-221

³²- هشام الريفي ، الحجاج عند أرسطو ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص277

³³- المرجع نفسه ص281 .

³⁴- يبدو أن هذه سمة خاصة بأرسطو، فهو لم يعرف مثلاً المواضع والإقناع، وحتى في كتاب الشعر لم يعرف المصطلح المهم فيه، المحاكاة.

الحجاج عند

العرب

توطئة:

اختلفت ظروف نشأة البلاغة عند العرب اختلافا جذريا عن اليونان ، ففي حين نشأت عندهم نشأة فلسفية منطقية ، تحاول تصنيف الأقاويل بحسب قدرتها على قول الحقيقة - كما عند أفلاطون - أو في مجال اختلاف الآراء، أين يواجه الرأي بالرأي المضاد - كما عند أرسطو - ولا تكون الكلمة الأخيرة إلّا لمن كانت حجته أكثر إقناعا وأوضح في نفس السامع نجد البلاغة العربية نشأت في أحضان الشعر والشعر فضله في صورته وشكله وما يتوفر عليه من طرق القول، وأساليب التعبير التي يمكن على أساسها أن تحدد خصائص نصّ معيّن أو نميّز بين نص ونص آخر، وحتى القرآن الكريم ذهب كثير من الدارسين إلى أنّ فضله يرجع إلى شكله وهيأته، وتصارييف الكلام فيه وقليلون هم الذين ذهبوا إلى أن عظمته مستقاة من الحجج الواردة والسياسة التي ينتهجها في وصفها.

لكنّ ما سبق نحاول الحديث على الحجاج عند العرب، مركزين على أصالة هذا المبحث عندهم. وخصوصياته العربية الإسلامية.

1- الحجاج في الجاهلية:

لا يُعرف للإبداع اللغوي الأدبي العربي بدايات محددة، أو نقطة انطلاق يرجع إليها ولكن العصر الجاهلي يمثل العصر الذهبي في صفاء ونقاء اللغة العربية، واشتهر عند العرب آنذاك الخطب لأشهر الفصحاء كقيس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، إضافة إلى الوصايا التي تعتبر نوعاً من الخطب، موجهة إلى جمهور خاص حميم، كالبناء، البنات، أو الأصدقاء.... وأيضاً المنافرات والمفاخرات، والمحاورات والمجادلات...⁽³⁵⁾ ويعدّ ما دار بين امرئ القيس وعلقمة أشهر شاهد على ذلك، إذ احتكما إلى أم جندب وجعلا يتذاكران الشعر ومن بين ما قال امرئ القيس :

وللزجر منه وقع أفرج متعب [الطويل]: فللسوط أهوب وللساق درّة

وقال علقمة :

يمرّ كمرّ الرّاح المتحلب [الطويل] : فأدرك لمّ يجهد ولم يثن شأوه

ولما فرغا قضت أم جندب لعلقمة على امرئ القيس لأنّ فرس علقمة أجود من فرس امرئ القيس فقد حرّكه بساقه وامتراه بسوطه، وزجره بصوته⁽³⁶⁾

كان العصر الجاهلي، ملحمة لقراع الألسنة وتداول الفصحاء في الأسواق الأدبيّة والمحافل الجامعة ولم يكن لأشراف القبائل و سادات العشائر عند تفاقم الفتن وتدافع الخصوم بدّ من كلام، بل من كلام مؤثّر طويل. وكانت الخطبة فيهم طبيعة وقريحة كالشعر لا تحملهم عناء ولا تكلفهم رهقا ووضعوا لها الأسماء، فقد ذكروا من خطب العرب "العجوز" وهي خطبة لآل رقية ومتى تكلموا فلا بدّ لهم منها أو من بعضها وكذلك "السعداء" وهي خطبة قيس بن خزيمة، و"الشوّهاء" وهي خطبة سعيان بن وائل وقيل لها ذلك من حسننها، وذلك أنّه خطب بها عند معاوية، فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب⁽³⁷⁾ وكان من منزلة الخطابة وأثرها في الجاهلية أنّها تركت في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الأثر العميق، فضلت الصورة التي شهد عليها قيس بن ساعدة وهو يخطب في عكاظ ماثلة في ذهنه الشريف، نازلة من نفسه منزلة التقدير حتّى إذا وفد عليه وفد إباد سألهم عنه، فلمّا قالوا: إنّ هلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: برحمة الله كأنّي أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يقول "أيّها النّاس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ... " ⁽³⁸⁾.

وللخطابة عندهم ملامح وصفات وخصائص، تتفق إلى حدّ بعيد مع الأصول العامّة المعروفة لفنّ الخطابة ، فهم لم يغفلوا استخدام الحجج والأدلة المؤثرة في النفوس ، وظهر ذلك جلياً فيما كانوا يحشدونه في خطبهم من حكم وأمثال، لها في الإقناع قوة البراهين والأقيسة المنطقيّة، وفيما يتخللها من تشبيه واستعارة، وفيما كان يجيء بها على قلة

³⁵- محمد هاشم: عطية الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ص 79-80.

³⁶- نفس المرجع ص 153

³- الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 210

³⁸- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق. محمد محي الدين عبد الحميد ص 128.

من مجاز شديد العلاقة بالمعنى الأصلي، وكناية قليلة الوسائط، قريبة المنال اتقاء التصريح بما لا يحمل ذكره. أو بعثا للنفس في استحضر صورة المكنى عنه بذكر أخص صفاته⁽³⁹⁾. وإن كان العرب لم يعرفوا الخطابة القضائية كالبيونان ولا الاستشارية وأكثر خطبهم استدلالية تتجه إلى تحسين الشيء أو تقبيحه، ومدحه أو ذمه مستهدفة الفضيلة أو الرذيلة بالإضافة إلى المفاخرة والمنافرة، والمجادلة فهذا لا ينفي أنهم عرفوا هذا اللون من الفن النثري.

2- الحجاج في القرآن:

أيّد الله سبحانه الرسالة الإسلامية بمعجزة كاملة دائمة مؤثرة في عصرها وبعد عصرها في بيئتها وفي غيرها، في الأمة التي بعث فيها الرسول الكريم وفي كل الأمم الأخرى، إنه القرآن الكريم كتاب الإسلام ودستوره، ومعجزته الخالدة، الذي لاقى منذ نزوله المعارضة ومحاولة تغطية نوره، من منكرين عرب ومن أبناء الملل والديانات الأخرى. [فقالوا هو كلام ساحر ومجنون، وشاعر...].

فالقرآن الكريم عظم العقل، وبوّاه المنازل الكبرى، ولهذا جاءت معظم آياته مخاطبة أولي الألباب وذوي العقول اليقظة لا الغافلة التائهة قال تعالى: "كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" [البقرة 219] أو "يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتي الحكمة فقد أوت خيرا كثيرا وما يذكر إلّا أولوا الألباب" [البقرة 269].

الذين الذي دعا الإنسان إلى التفكير والتدبر في خلق السموات والأرض يقول الله تعالى "إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين - وفي خلقهم وما يبيث من دابة آيات لقوم يوقنون - واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون" [الجاثية 5/4].

ولأنّ الإسلام دين العقل والعلم والحق، فقد نبذ أشدّ النبذ حجج الكافرين الذين كانوا يرفضون الحق ولا يقبلونه بحجة أنه لا يوافق ما وجدوا عليه آباءهم قال تعالى "وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أول لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون" [التوبة].

"حذف جواب الشرط وهذا أبلغ من أن يذكر، لأنّ الجمل الشرطية في القرآن قائمة على ضمير الخطاب دون الغيبة وهو ما يقتضي وجود متلق مباشر معني بالكلام، موكول إليه أن يتصور الجزاء بناء على ما قُدم إليه من شرط تصورا يذهب به في كل اتجاه⁽⁴⁰⁾.

القرآن الكريم عموما كتاب الإنسان، وكما أنّ الإنسان كلّ متكامل، قلب وعقل وجسد تلائم القرآن معه فكان فيه ما يناسب كل جزء "هذا ما تجده في كتاب الله حيث ما توجهت إنه لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة، وإنه في معمة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق، وترقيق وتحذير وتنفير، وتهويل، وتعجب، يبيث ذلك في مطالع

³⁹- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ص 130.

⁴⁰- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلا أهم خصائصه الأسلوبية، ص 1/ 457.

آياته يقول الله تعالى: " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء " (41) .

فما على القارئ إلّا أن يفتح المصحف الشريف ليجد من التّغريب ما يملأ نفسه سرورا وأملا ومن التّرهيب ما يرجف قلبه ويملأه خوفا وفرقا وأمّا العقل فإنّه يجد من وسائل الإقناع ما تصلح لها دراسات كبيرة ، فالقرآن يخاطبه بكلّ معانيه ومستوياته ، ولذلك احتوى القرآن على جميع أنواع البراهين والأدلة " فما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبني من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلّا وكتاب الله قد نطق به ... " (42) وهذه بعض الأدلة البسيطة من القرآن الكريم :

أ- القياس المضمّر في قوله تعالى " ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنّات النعيم - ولو أنّهم أقاموا التّوراة والإنجيل وما أنزل من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون " [المائدة 66/65]

وتخريجه:

المقدمة الكبرى (مذكورة) : لو أنّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم . الأولى

لو أنّهم أقاموا التّوراة والإنجيل... لأكلوا من فوقهم. الثانية

المقدمة الصغرى (مضمرة) : لكنّهم لم يؤمنوا ولم يتقوا ... الأولى

لكنّهم لم يقيموا التّوراة والإنجيل... الثانية

النتيجة : لن نكفر عنهم سيئاتهم ولن ندخلهم الجنة ... الأولى

لن يأكلوا من فوق أيديهم ... الثانية

ب- قياس الخلف في قوله تعالى "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

اختلافا كثيرا " [النساء 82]

وتخريجه :

المقدمة الكبرى (مذكورة) لو كان القرآن من غير عند الله لوجدوا الناس فيه اختلافا

المقدمة الصغرى (مضمرة) لكنّهم لم يجدوا فيه اختلافا

41- الشيخ طه عبد الله محمد السبعلاوي: أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، ص 11

42- محمد الكتاني: جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي، ص 444

النتيجة (مضمرة) إذن القرآن الكريم هو من عند الله

ج- من قياس التمثيل قوله تعالى "أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق

مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلّا كفورا" [الإسراء 99].

د- ومن القياس على المحال قوله تعالى "إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء

ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط كذلك نجزي المجرمين" [الأعراف 40]

الشرط: المقدمة: يدخل المذبون بآيات الله الجنة عندما يلج الجمل في سم الإبرة.

جواب الشرط: لكن الجمل لن يدخل أبدا من سم الإبرة.

النتيجة : لن يدخل المذبون الجنة أبدا ...

لا نقول إننا نستقصي هذه الأساليب في القرآن الكريم ، فهذا عمل يجب أن تفرد له دراسات وبحوث خاصة، ولكننا لمحات خاطفة لنبين أنواع الأقيسة التي وردت في القرآن. والذي منه انطلقت الدراسات العربية التي أثرت المكتبات بشتى أنواع العلوم .

3- الحجاج في الثقافة الإسلامية

تميز الفكر الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه تعليميًا مع ما تقتضيه العملية التعليمية من احترام متبادل بين المعلم والمتعلم. وإنصات وتدبر، بالإضافة إلى وجود فروق فردية بين المتعلمين. هذا ما طبع مجالس الرسول الكريم مع صحابته الأجلاء وهذا ما جعل الصحابة ينفاتون في فهم القرآن، فكان منهم القراء والحفاظ المجيدون وكان منهم الفقهاء، وكان منهم المفتون.

وفي غير موضع من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم " حوادث تثبت أن الصحابة كانوا يناقشونه ويجادلونه جدلا في الخير، خير الإنسان فالقرآن الذي احترم العقل لن يرضى برؤية أتباعه يتبعون كلامه عن جهل، بل يسمح لهم بالاستفسار إلى أن يصبحوا على بينة وهاهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه- كما تذكر الكتب جادل الرسول في عديد المواضع وأكثر من ذلك وافقه القرآن في حوالي خمسة عشر مرة ولم ينكر عليه الرسول ذلك " (43).

وفي عهد بني أمية عندما اتسعت الدولة الإسلامية أشد ما يكون التوسع ، وأقبل على الإسلام من أبناء الديانات الأخرى العدد الكثير، منهم من أسلم ومنهم من بقي على دينه .

وتكاد تكون الخطابة الجنس الأدبي الأوحـد -في ذلك العصر- الذي استجاب لمنطق هذه الدّعوة ومتطلباتها لأنّها تعتمد الشّواهد والبراهين وتخضع لمقتضيات الاحتجاج والجدل بهدف الإقناع والتأثير. فتنوّعت بتنوّع مجالات الحياة⁽⁴⁴⁾ فقد تكون دينيّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة ففي الخطبة الدّينيّة نجد⁽⁴⁵⁾:

1.3 خطب التعلّم: تعتمد الإخبار والتأكيد، ويمكن الاستغناء عن المنطق والحجج العقلية .

2.3 خطب الوعظ: تعتمد بعض وسائل الإقناع كالترغيب والترهيب وبعض الوسائل العقلية كالمثال وأخبار الأولين.

3.3 الخطبة السياسيّة: دارت الخلافات حول الخلافة وشؤونها فكانت هناك مقامات بين أفراد مهمّين أو بين فرد هو الخليفة أو الوزير مع العامة، و من أمثلة النّوع الأول خطبة أبي بكر -رضي الله عنه- يوم السقيفة حيث تحدث عن تضحيات المهاجرين وأيضاً عن كرم وفضل الأنصار وانتهى إلى حلّ وسط " فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتانوا بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور"⁽⁴⁶⁾

ومن أمثلة النّوع الثّاني، خطب علي -كرم الله وجهه- سواء مع الخوارج أم مع جماعة جنده المتخاذلين وإن اختلف المقام، "فإذا كان مع الخوارج مضطراً إلى الإتيان بالحجة الصّائبة والبرهان المفحم لردعهم، فإنّه مع المتخاذلين كان واعظاً، ولائماً، ومعاتباً في كثير من الأحيان مع ما يصاحب ذلك من التشجيع والتّدعيم المعنويّين"⁽⁴⁷⁾.

4.3 الخطب الاجتماعيّة الدّفاعيّة : كانت تدور بين المتخاصمين على مسمع من الأمير أو الوزير مثل مخاصمة أبي الأسود الدّولي لزوجته في موضوع حضانة طفلها بعد الطّلاق عند "رياد" انتهت بانتصار المرأة حيث التفت له الأمير قائلاً: "أردد على المرأة ولدها، فهي أحقّ به منك، ودعني من سجعك"⁽⁴⁸⁾.

5.3 المناظرات المذهبيّة: تعتمد الوسائل المنطقيّة واللّغويّة والعملية للنّجاح وغلبة الخصم وفيما يلي نبذة عن دوافع ظهور هذا النّوع من التّيار الفكري في الثقافة الإسلاميّة .

1.5.3 المناظرة في التاريخ الإسلامي:

كانت البذور الأولى للمناظرة، هذا التّيار الفكري والمذهبي... متّصلة بالخلافة وأولى جذورها تمتد إلى نشوء المعارضة في عهد عثمان بن عفان -رضي الله عنه- التي لم ترضى بسياسة الخليفة "حيث انتشرت الأحاديث عن أنّه -رضي الله عنه- يوظّف المقربين منه ويتغاضى عن كثير من أخطائهم"⁽⁴⁹⁾.

⁴⁴- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1 ، ص265 .

⁴⁵- طه عبد الله السبعواوي: أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي ص 211 .

⁴⁶- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 51 .

⁴⁷- نفس المرجع ص60 .

⁴⁸- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص63.

⁴⁹- ابن كثير: البداية والنهاية، ج7، ص 297.

فانتهى الأمر بالمأساة الكبرى، مقتل عثمان حوالي 35هـ وعند مبايعة علي -كرم الله وجهه- واجه نفس موقف عثمان -رضي الله عنه- إذا ما لبث أن خرجت عليه طائفة من الصحابة الكبار تؤيدهم أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حوالي سنة 36هـ فكانت معركة الجمل المشهورة وسفك الدّم العربي المسلم من الجانبين واغتم معاوية بن أبي سفيان الفرصة وشقّ عصا الطاعة بحجة الثأر لعثمان، ولأن علياً لم ينفذ حكم القصاص في قاتليه، وتقاتل الفريقان في معركة الصّفين سنة 36هـ وانتهى الأمر بخدعة التحكيم التي أتى بها معاوية بعد نصيح عمرو بن العاص له قبله علي وهو له كاره فأنتج ذلك طائفة أخرى رافضة رفضاً مطلقاً هذا الخيار، خرجت على علي وهي الخوارج، معارضة لعلي ومعاوية معاً، وانتهى ذلك كلّ بمأساة ثانية هي مقتل الإمام علي غيلة وهو يصلي⁽⁵⁰⁾.

توزّع المسلمون بسبب هذه الأحاديث إلى فرق جمّة، فنشب الجدل والخلاف بينهم حول الإمامة ومن الأحقّ بها بعد الرّسول * صلى الله عليه وسلم * كما اختلفوا حول صاحب الكبيرة فالخوارج كفّروه واعتبروه مخلداً في النّار، واعتبروا العمل شرطاً للإيمان وتناقضت الآراء في التّسيير والتّخير، فقالت الجبريّة بأنّ الأفعال كلّها لله، وقالت القدريّة بأنّ الإنسان خالق أفعاله⁽⁵¹⁾.

ودار الجدل حول قضية الصفات والذّات الإلهية، فقال بعضهم بإثبات الصفات بحرفيتها كما جاء في القرآن، وغالى آخرون في تأويلها فاليد بمعنى القوة والاستيلاء ... ولم يأت القرن الرابع الهجري إلّا والمؤرّخون يجدون صعوبة بالغة في حصر الفرق الإسلامية ...⁽⁵²⁾.

كما ساعدت الظروف السّابقة على بروز مبدأ لا يختلف عليه كلّ أهل الرّأي (أشاعرة معتزلة) هو تقديم العقل، وإنزاله المنزلة الرّقيّة في الحياة، ونشير هنا إلى أنّ كثيراً من ملاحدة الإسلام كان سبب إلحادهم إنكارهم للنّبوة والرّسل ومعجزاتهم، باعتبار أنّ العقل يصل الإنسان إلى معرفة الخالق تعالى بالإضافة إلى نفعه الدّنيوي، ونذكر على رأسهم ابن الرواندي، في كتابه "الزمرد" وللتوضيح قولاً له "فقد ثبت عندنا وعند خصومنا أنّ العقل أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وأنّه هو الذي يُعرف به الرّب ونعمه، ومن أجله صحّ الأمر والنّهي، والترغيب والترهيب، فإذا كان الرّسول صلى الله عليه وسلم يأتي مؤكّداً لما فيه من التّحسين والتّقبيح والإيجاب والحظر فساقط عنّا النّظر في حجّته وإجابة دعوته، إذ قد غُني بما في العقل عنه والإرسال على هذا الوجه خطأ، وإن كان بخلاف ما في العقل من التّحسين والتّقبيح والإطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنّا الإقرارُ بنبوته"⁽⁵³⁾.

⁵⁰ - محمد الكتاني: جدل العقل والنقل، ص 405.

⁵¹ - الإمام جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي: تلبّيس إبليس، ت خالد ابن محمد ابن عثمان، ص 33.

⁵² - ابن كثير: البداية والنهاية، ج 7 ص 421.

⁵³ - أرثور سعد وتوفيق سلوم: الفلسفة العربية الإسلامية، الكلام والمشائية والتصوف، ص 60.

وإن اعتماد هؤلاء من البداية كان على الحديث الذي عُرف فيما بعد بحديث العقل "أول ما خلق الله تعالى العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك فبك آخذ وبك أعطي، وبك الثواب والعقاب" (54) ولكن الكثير من العلماء رفضوا هذا الحديث واعتبروه موضوعا .

كان الأمر على درجة من الصعوبة بين أبناء الإسلام المتفرقين بين فرق إسلامية لا حصر لها فلنا أن نتصور كيف يكون الحال بين المسلمين وأبناء الديانات الأخرى ممن لا يعترفون بسلطة القرآن الكريم أو الحديث الشريف، فكان الواجب اعتماد أدلة عقلية، ليكون المنقذ آنذ هو العقل .

كل ما سبق يوضح الفكرة ولو قليلا حول ظروف نشأة علم جديد في الثقافة العربية هو علم الكلام. وهو يقابل بدأ بين المسلمين أنفسهم ثم بينهم وبين ممثلي الديانات Théologie العلم الذي عُرف في الغرب المسيحي تحت اسم الأخرى ومنه نشأت المناظرة التي اعتمدت النظر العقلي والاستدلال المنطقي .

2.5.3 المناظرة وتعريفاتها:

أ- المناظرة لغة: من ناظر على وزن فاعل التي تعني المشاركة. وعند ابن منظور "المناظرة أن تناظر أخاك في أمر كذا، إذ تناظرتما معا كيف تأتياه وعن التناظر يقول: "التناظر التّراوض في الأمر ونظيرك الذي يراودك وتناظره، وقال في الفعل ناظر: ناظرت فلانا أي صرت له نظيرا في المخاطبة" (55) .

ب- المناظرة اصطلاحاً : يذكر الزبيدي (ت 1205 هـ) في معجمه تاج العروس "والمناظرة هي المباحثة والمباراة في النظر، واستحضار كل ما يراه ببصيرته ، والنظر البحث" (56).

نلاحظ هنا إدخاله لمصطلح " البصيرة " مع ما تقتضيه هذه الكلمة من كشف داخلي للحقيقة لا باعتماد العقل ولكن باعتماد القلب أيضا .

ولعل خير تعريف تطالعنا به الكتب هو من كتاب " رسالة آداب البحث وشرحها " لأبي الخير أحمد المشهور باسم طاش كبرى زاده (ت 918 هـ) يقول : " اعلم أن المناظرة في اللغة مأخوذة من النّظير أو النّظر بمعنى البصر أو الانتظار، وفي الاصطلاح هي النّظر بالبصيرة من الجانبين بالنسبة بين الشّيتين إظهارا للصّواب " وما يميّز تعريف طاش كبرى زاده اعتماده المنطق في تحديد كلّ مفردات ذلك التعريف .

3.5.3 موضوعات المناظرة:

تنوّعت موضوعات المناظرة بتنوع التّوجهات الفكرية والاجتماعية والسياسية السائدة آنذاك فقد كانت هناك :

- المناظرات التي تناولت الموضوعات الدّينية : فيها جانبان :

54- حديث رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي إمامة، ورواه أبو نعيم من حديث عائشة بإسناد ضعيف محمد الكتاني، جدل العقل والنقل، ص 470 .

55- أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مادة - ن - ظ - ر، ص 219.

56- حسين الصّديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، ص 59.

ما تعلق بالجانب العملي من الدين (المعاملات) لا يوجد موقف معارض لها

ما تعلق بموضوعات علم الكلام (كلام الله ، الصفات ، القدر ، الجزاء ، العقاب ...)

نحصى لهذه المناظرات ثلاثة مواقف هي:

أ- الموقف الأول:

يرتبط هذا الموقف بالمشكلة المعرفية التي نشأت من تحفظ العرب المسلمين القدامى من العلوم القديمة وإذا كان هذا الموقف يشمل كل العلوم اليونانية فإنه تجاوز ذلك كثيرا فيما يتعلق بالفلسفة والمنطق⁽⁵⁷⁾ حيث اعتبرت الفلسفة وسيلة شيطانية لهدم الإسلام ، ومع ذلك فعاء هؤلاء العلماء للمنطق كان أكثر بكثير ، فإذا كانت الفلسفة ميدانا واسعا ومتميزا يمكن رفضه بسهولة ، فإن المنطق كان يحاول أن ينافس طرق البحث ومناهجه في العلوم الدينية ، ومثال ذلك مناظرة أبي سعيد السيرافي ممثل النحو العربي (التراث والأصالة) في وجه متي بن يونس ممثل المنطق اليوناني (الوافد المستورد) ، نلاحظ كيف خرجت المناظرة في عديد مراحلها عن مسارها الموضوعي ، سواء من جانب السيرافي ومنهجيته ، أم بتدخل السلطة⁽⁵⁸⁾ ولكن الفكرة الأساسية في هذه المناظرة - كما استنتج - هي اعتقاد السيرافي عن حسن نية أو سوء نية أن "المنطق" هو خصيصة ثنائية فحسب. كما يخص النحو العربي العربية فقط. لذلك فالمناظرة تميزت بحدوث سوء فهم عويص.

لم يأت القرن الرابع الهجري ، إلا وهذا الموقف يتخذ طابع المنهجية والتكامل نظريا وعمليا نجد مؤلفات كاملة وضعها أصحابها للنيل من أصحاب المناظرات ، أهمها "صون المنطق والإسلام عن فن المنطق والكلام" للسيوطي (ت 911 هـ) عرض فيه لشخصيات كبيرة أدلت برأيها في هذا الموضوع ، خاصة الأشعري⁽⁵⁹⁾ الذي أصبح من أكبر المهاجمين للمعتزلة وآرائهم ، واعتبر أحسن وسيلة لذلك مقارعة الذي كان يوم ما أستاذه الجبائي ، يقول الأشعري "إن أهل السنة والحديث ينكرون الجدل والمراء في الدين والخصومة في القدر ، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل"⁽⁶⁰⁾.

كثيرا ما كان هذا الموقف مدعوما من السلطة ، فالكتب تطالعنا أن هارون الرشيد منع الجدل في الدين وحبس أهل الكلام⁽⁶¹⁾ وكذلك المتوكل الذي "أمر بترك النظر والمباحثة لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والوائق والمأمون ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة"⁽⁶²⁾ وبرز هذا التدخل خاصة في مسألة القضاء والقدر .

⁵⁷ - عدنان عبد القادر وبن زيوش عمار: الفلسفة، ص 24-25

⁵⁸ - حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، ص 369-375

⁵⁹ - الإمام أبي الحسن علي ابن إسماعيل الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة ، حققه بشير محمد عيون ، ص 11 .

⁶⁰ - حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي ، ص 134 .

⁶¹ - الكتاني: جدل العقل والنقل ، ص 412-413 .

⁶² - حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي ، ص 135 .

هذا الموقف أبطاله السّنة المتشدّدون الذين يأمرّون بالتّشاغل بقراءة القرآن وتدبّر معانيه من جهة والمتكلّمين من جهة أخرى، يمثّل مناظرة مستوفية الأركان فهناك :

- طرفي الجدل، السّنة المتشدّدون والمتكلّمون.

- موضوع الجدل، هل يجوز الكلام في كلّ الأمور أم لا ؟

- يعتمد كلّ طرف على جملة من الحجج والبراهين.

■ السّنة:

✓ حجج تقوم من داخل المناظرة فقد وجدوا أنّ:

الجدل والنّظر في موضوعات الكلام يؤدّي إلى إثارة الشّبهات والوقوع في البدع .

القرآن والسّنة لا يسمحان ولم يوجد من السّلف الصّالح من بحث في هذه الموضوعات

المناظرة من أسباب ترك الكتاب والسّنة ونسيانها .

✓ حجج من خارج المناظرة (سياقية)

تؤسّس على التّناقضات العمليّة التي يقع فيها المتناظرون والمتكلّمون بالإضافة إلى الطعن في أخلاق المتناظرين وإيمانهم، وصحة عقيدتهم، ونزاهتهم (63)

✓ حجج أخرى:

تقوم على تهلّل هذا النّظام الجدلي بسبب الخلاف الواقع بين المتكلّمين أنفسهم ، فهذه حجّة تؤكّد ضلالهم، وآخرون استغلّوا درجة هذا الخلاف إذ لا يكون خطيرا إلّا إذا كان في أصول الدّين، ولذلك فالخلاف بين أهل السّنة لا يوجب التّكفير (64) .

■ المتكلّمون:

ونعتمد هنا مؤلّفا للأشعري، فإنّه وإن هاجم المعتزلة وابتعد عن أقوالهم لم يرض بالتّقليد الأعمى وإتباع التّعالم الإسلامية عن ضلالة وتجدر الإشارة بداية إلى اعتزاز الأشعري بالإمام أحمد بن حنبل فهو عنده "الإمام الفاضل والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين وشك الشاكين" (65) والمنير للدهشة أنّ الإمام أحمد، إمام المعتمدين على أدلة النّقل في الفكر الإسلامي يستفيد إلى حد بعيد من العقل في فهم النصوص القرآنية (66) لذلك لا غرو أن نجد الأشعري بطلا في مواجهة طرفي العصا ليمسكها من الوسط

63- حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي ص 431.

64- الكتاني: جدل العقل والنقل ، ص 416 .

65- الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة ، ص 21 .

66- الكتاني: جدل العقل والنقل ، ص 412 .

كانت رسالة الأشعري " استحسان الخوض في علم الكلام" (67) خير نموذج لعمل منظم يردّ على الطّرف الأوّل من الحجج التي اعتمدها .

- اتهام السّنة المتشدّدين بالتّخفيف والتّقليد، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ أنّ الجهل هو رأس مالهم إذ تقلّ عليهم البحث والنظر في الدّين .
 - الرّد عليهم بقلب السّؤال حيث أنّه إن كان الرّسول * صلى الله عليه وسلم * لم يقلّ ابحثوا في الدّين (قول السّنة) فإنّه أيضا لم يقلّ: من بحث عن ذلك وتكلّم فهو مبتدع ضالّ فإنّ الطرفان متعادلان، ولا ترجح كفة طرف على آخر وأكثر من هذا، لقد قلّتم على الرّسول صلى الله عليه وسلم مالم يقلّ، وضللّتم وكفّرت من لم يكفّره، وهذا أكبر إثم بل الضّلال بعينه.
 - يؤكّد أنّ الصّحابة تعرضوا إلى مسائل مهمّة ناظروا فيها، مثل مسائل الطّلاق والميراث والفرائض... وهم إذ فعلوا ذلك فهو بعد النّبىّ ومع ذلك تأخذون بتصنيفات مالك والشافعي وأبو حنيفة... فيلزمكم أن يكون هؤلاء مبتدعة ضالّين، إذ فعلوا ما لم يفعله النّبي. ويلزمكم أنكم ضالّون من جهة، وغير عادلين من جهة أخرى (68). والحقيقة لقد أوردّه عدّة حجج تعتمد القياس والوسائل المنطقية، وتحاول أن توقع الخصم في التّناقض القولى أو الفعلى، وهذا من أكثر آليات الحجج تأثيراً ونجاعة .
- ب- الموقف الثّاني :

حاول التّوفيق بين مواقف الأطراف المتنازعة، يمثّله خاصة أبو سليمان أحمد بن محمّد الخطابي (ت388هـ) في الرّسالة الجامعة (69) خلص إلى أنّ أهل السّنة لا يرفضون أدلّة العقل وأهميتها ، ولكنهم يرفضون الطّريقة التي يمارس بها المتكلّمون مناظراتهم، فهم مثلاً لا يثبتون النّبوة ولا يرون لها حقيقة وهذا إهمال للشّطر المهم الآخر من الإسلام "ولذلك كان حقّ العقل عند ابن حزم ومن وافقه من النّصبيين محدوداً بوظيفة الفهم والتّمييز ليس إلّا، وعليه فإنّ العقل البشري لا يمكن أن يضع ديناً، إنّما يملك تفسير الدّين، وتبيّنه للنّاس حسب تفاعله معه واستجابته له، كما له أن يكشف القواعد والضّوابط والموازين لا أن يضعها بشكل مستقلّ عن النّص لأنّه إن تساور عن هذه الحدود يوشك أن يُشرّع ، ولا مُشرّع إلّا الله تعالى والنّبىّ بما يوحى إليه" (70). ويبدو ابن حزم معتدلاً حيث أنّ هناك عامّة يجب أن يؤمنوا بما جاءهم النّص وهناك الفلاسفة العارفون يمكن لهم أن يتأولوا آي القرآن الكريم (71) والعقل يرى أنّ هذا الموقف هو أحسن المواقف تماماً باعتباره يعطي لكلّ قدرة في الإنسان ما يناسبها من الأحكام فعلى الإنسان أن يعلم دائماً وأبداً أنّه مخلوق ضعيف وأن قوّته إنّما تُستمدّ من اعتقاده، وإيمانه بقوة وعظمة الله عزّ وجلّ.

67- أرثور سعيد: وتوفيق سلوم ، الفلسفة العربية الإسلامية ، ص 40 .

68- القرطبي (أبو عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن، تقديم هاني الحاج، تحقيق عماد زكريا البارودي سعيد، ج1 ص276

69- حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، ص 139 .

70- نعمان بوقرة: النظرية البيانية عند ابن حزم الأندلسي، ص 148 .

71- المرجع نفسه ، ص 147 - 148

ج- الموقف الثالث :

يمثل موقف المؤيدين والمدافعين عن المتكلمين وهم متكلمون في أغلبهم متهمين المهاجمين بالنقل والجمود، واصفين أنفسهم بأنهم حماة الإسلام، وحافظوا قيمته أمام المنكرين للإسلام والملحدين وكان الباقلاني أكثر من اشتهر اسمه بين المتكلمين الذين جادلوا وناظروا المسيحيين وانتصروا عليهم.

4.5.3 المناظرات التي تناولت موضوعات ثقافية -علمية-

كان هذا النوع من المناظرات أكثر الأنواع طلباً ، لذلك لم ينتج عنها أي صراعات مذهبية أو عرقية، ولذلك نرى "التوحيدي" قد أثرت فيه مجالس المقابسات التي نقلها لنا والدليل على ذلك أنه في مناظرته مع ابن عبيد المحاسب ومع ضعف مرتكزات حجاج الأول وقدرة التوحيدي الظاهرة على غلبته في إثبات فضل البلاغة على الحساب نجده يقول: "ولو أنصفت لعلمت أن الصنّاعة جامعة بين الأمرين، أعنى الحساب والبلاغة، والإنسان لا يأتي إلى صنّاعة فيشقه نصفين، ويشرف أحد النصفين على الآخر" (72) .

يمكن القول أن موضوعات المناظرات الدينية كانت من أكثر المناظرات مدعاة للأخذ والردّ لصبغتها الجدلية.



توطئة:

عرف الحجاج في العصر الحديث مفهوما أدق، وأوضح، وأعمق من المفاهيم السابقة "ذلك أن الحجاج قد أخذ شيئاً في الاستواء مبحثاً فلسفياً، ولغويًا قائم الذات.. مستقلاً عن صناعة الجدل من ناحية وعن صناعة الخطابة من ناحية فقد عرف عدّة توجهات، فهناك نظريات حجاجيّة عديدة بعضها ينتمي إلى البلاغة وبعضها ينتمي إلى المنطق⁽⁷³⁾ ثانية " لعلماء غربيين آخرين حول⁽⁷⁴⁾ وهناك أيضاً من عالجه من منظور لساني، وقبل التّعرض للنظريات الثلاث نورد أقوالاً يقدّمانه على أنّه "عملية عرض دعاوى تتعارض فيها الآراء، Rick و Sillais مفهومهم للحجاج فمثلاً ريك وسيلارز مدعومة بالعلل، والدّعامات المناسبة، بغية الحصول على الموالاتة لإحدى تلك الدعاوى" أما الحجاج عند شفرين فهو "جنس من الخطاب تبنى فيه جهود الأفراد عامة مواقفهم الخاصة، في الوقت نفسه الذي ينقضون فيه Schiffrin دعامة خصومهم" فالحجاج بهذا المعنى يساوي تماماً الجدل عند أرسطو، كما أنّه جنس من الخطاب. وأما عند هانمان فالحجاج عملية اتصاليّة، وهي كلّ ضرب من ضروب عرض Wolfgang-Heinemann –Veihwegr وفيفجر البرهان الذي يعلّل الفرضيات والدوافع والاهتمامات⁽⁷⁵⁾ نفهم مما سبق أن الحجاج عملية بحث حضور طرفي الاتصال أساسي، كما أنّه نوع خاص من أنواع الخطاب.

⁷³ - عبد الله صوله : الحجاج في القرآن، ص2

⁷⁴ - هذه الأقوال جمعناها من مقال محمد العبد، النّص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، 44-43

⁷⁵ - ينظر النّص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان ، في فصل أنواع النّصوص

1- الحجاج(*) عند برلمان وتيتكاه

من أهم الكتب المصنفة في *Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique* يعتبر كتاب الحجاج حديثاً، ظهر عام 1958 ، لاقى نجاحاً كبيراً نظراً لمحاولات التجديد الجادة الموجودة بين ثناياه "لم ينطلق المؤلفان من العدم، بل اهتموا كثيراً بمجهود أرسطو، وبالتطورات التاريخية لمفاهيم الخطابة والجدل والحجاج وكانت غايتهم في النهاية إخراج حجاج قائم بذاته له مميزات وأهدافه. وقد "عملا من ناحية أولى على تخلص الحجاج من التهمة اللاتئة بأصل نسبه وهو الخطابة، وهذه التهمة هي تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور وبعقله أيضاً ودفعه دفعا إلى القبول باعتباطية الأحكام ولا معقوليتها. وعمل الباحثان من جهة ثانية على تخلص الحجاج من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب. فالحجاج عندهما معقولة وحرية وهو حوار من أجل الوفاق بين الأطراف المتنازعة ومن أجل حصول التسليم برأي آخر بعيدا عن الاعتباطية واللامعقولية اللذين يطبعان الخطابة عادة وبعيدا عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل ... " (76)

والذي ترجمه عبد الله *LA NOUVELLE RHETORIQUE* الحجاج المقصود عند برلمان وتيتكاه هو المسمى صولة مثلاً بالخطابة الجديدة، وصلاح فضل بالبلاغة الجديدة يعرف المؤلفان موضوع نظرية الحجاج بقولهما: "موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم" (77) والغاية التي يسعى المؤلفان تحقيقها من خلال هذه الدراسة "أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو تزيد في درجة ذلك الإذعان فأنجح الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهتئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة". (78)

يبدو أن برلمان وتيتكاه قاما بعملية استقراء للوصول إلى أهم خصائص الحجاج الذي كان سائدا قبلهما فوجدوا: "أن الحجاج عند بعض الفلاسفة ومنهم باسكال حجاجان، الحجاج الأول قوامه العقل، وهو حجاج فيلسوف يتوجه به إلى جمهور ضيق، يرمي من ورائه إلى إسكات صوت الهوى فيه وإلى جعل العقل قوام الاستدلال، فهو حجاج لا شخصي ولا زمني، والحجاج الثاني يقصد دغدغة العواطف، وإثارة الأهواء، استنفاراً لإرادة جمهور السامعين ودفعها إلى العمل المرجو إنجازهما مهما تكن الطرق الموصلة للإقناع بذلك العمل غير معقولة وغير منطقية " (79)

*نعمد المصطلح *argumentation* في المقابل العربي الحجاج لأن هناك من يترجم ذلك بالبرهان مثل صلاح فضل في كتابه (بلاغة الخطاب وعلم النص)

76- عبد الله صوله : ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 405

77- المرجع نفسه، ص 451

78- عبد الله صوله ، الحجاج في القرآن ص 1 - 32.

79- عبد الله صوله: الحجاج في القرآن، ج 1- 32

يطابق هذا كما أرى تماما ما خلص إليه مصطفى ناصف بخصوص تاريخ البلاغة العربية القديمة، والهدف من وأما الهدف الذي يرومه برلمان وتيتكاه **La démonstration** أو الاستدلال **la persuasion** لذلك الحجاج إما الإقناع ، والذي يقع في منطقة وسطى بين السابقين. **Conviction** فهو الإقناع

الاقتناع عند شانيه هو " أن الإنسان في حالة الاقتناع يكون قد أقنع نفسه بواسطة أفكاره الخاصة أما في حالة **Non** الإقناع فإن الغير هم الذين يقنعونه دائما ⁽⁸⁰⁾ ولهذا الهدف يقول الباحثان: "إن الحجاج غير الملزم (إشارة إلى الاستدلال)، وغير اعتباطي (إشارة إلى الإقناع) هو وحده الكفيل بأن يحقق الحرية **CONTRAIGNANT** الإنسانية من حيث هي ممارسة لاختيار عاقل، فأن تكون الحرية تسليما إلزاميا بنظام طبيعي معطى سلفا معناه انعدام كل إمكان للاختيار، فإذا لم تكن ممارسة الحرية مبنية على العقل، فإن كل اختيار يكون ضربا من الخور، ويستحيل إلى حكم اعتباطي يسبح في فراغ فكري ⁽⁸¹⁾ فالحجاج عندهما يعني الرغبة في عدم اللجوء إلى القوة في تغيير أو تبديل آراء الآخر. بل يقوم على الاعتراف به وبأفكاره، ومحاولة تعديلها عن طريق مخاطبة قدراته العقلية، وحرية في الحكم لذلك أي قرارات أو نتائج تظهر على الآخر لم تأت بهذه الطريقة يعتبرانها نوعا من العنف الفكري وهذا يرفضانه تماما.

من الأفكار الجادة عند برلمان وتيتكاه علاقة الحجاج بالخطابة والجدل، وهما لا يخرجان عما أورده أرسطو بخصوص أن موضوع الحجاج "يدور حيث يكون خلاف، أو يشك في صحة فكرة ما أو ... ولنا أن نشير بداية أن روبول يميز خطابة أرسطو وجدله "فالجدل لعبة نظرية أما الخطابة فليست لعبة ، إنها وسيلة عمل اجتماعي " ⁽⁸²⁾

عندما قسم أرسطو الخطابة إلى ثلاثة أنواع، المشاجرية، المشاورية، والتنشيطية حافظ من جاء بعده على هذا التقسيم، ولكن برلمان وتيتكاه يعتقدان أن هذا التقسيم شئت شمل الخطابة ووزعها على علوم تتجاذب كل واحدة منها طرفا

اختصت به الفلسفة ← النوع المشاوري

النوع المشاجري ← كل من نصيب الجدل

⁽⁸³⁾ النوع التنشيطي ← خلص إلى الأدب

⁸⁰ - طه عبد الله السبعوي : أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي ، ص 15

⁸¹ - عبد الله صوله: الحجاج أطره ومنطقاته ص 301، نقلا عن T-de l'argumentation p 54

⁸² - نفس المرجع، ج1، ص35

⁸³ - عبد الله صوله: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص326

وبالتالي كان وكدهما جمع شتات الخطابة ، بالتأكيد على أنّ النوع التثبتي هو واسطة الربط بين النوعين الآخرين، لتحقيق الاقتناع، فهذا النوع يزيد من درجة القبول لبعض القيم الجميلة، وهو يستعين بكلّ المشاكل التي يوفرها **La creation** الأدب لكن يضخم من تلك القيم ويعظمها، فهو إذن المحطة الأولى في إنشاء الاستعداد للعمل وبالمقابل يعمل النوعان الآخران المشاوري والمشاجري على الانتهاء إلى **d'une certaine disposition à l'action** العمل أو إنشائه، فالأول يمثل التهيئة التي لابدّ منها لكي يكون قادرين على تحقيق هدفهما لنخلص إلى أن الحجاج عندها خلق للاقتناع، وعملا في ضوء ذلك الاقتناع جامعين بين الأجزاء الثلاثة لتولد الخطابة الجديدة.

يركّز المؤلفان على أن نظرية الحجاج عندهما أقرب للخطابة منها إلى الجدل "فالغاية من تقريبنا بين الحجاج والخطابة أن نلح على أنّه لا حجاج دون وجود جمهور يرمي الخطاب إلى جعله يقتنع ويصدق على ما يعرض عليه"⁽⁸⁴⁾ ولكن هذا لا يعني أنّه هو لخطابة نفسها، بل بينهما فروق نجملها في الجدول التالي

la rhétorique الخطابة	la nouvelle rhétorique الحجاج
1- فنّ الكلام المقنع للجمهور، فهي إذن شفويّة	1- تقنيات الخطاب التي من التأييد سواء لمتلقين حقيقيين (تعتمد المشافهة) أو مفترضين من (خلال الكتابة)
2- الجمهور واسع مباشر	2- هناك الحجاج الاقتناعي موجّه إلى الجمهور الخاص L'argumentation persuasive والحجاج الاقتناعي L'argumentation convaincante
3- الجمهور مضغوط عليه فكرياً، ليس لديه حرية الاختيار (عنف فكري)	موجّه إلى الجمهور الواسع أو إلى كلّ ذي عقل، لكن المؤلفين يردّان كافة أنواع الجمهور، الجمهور الواسع والمخاطب الواحد والمتحدث لنفسه إلى الجمهور العام الذي هو أساس القبول أو الرّفص
4- الشكل هو الأساس (طريقة العرض)	3- الجمهور (قارئ ومستمع) لا يخضع للضغط والأهواء والمصالح
	4- يربط الشكل بالمضمون لأنه يرفض الفصل بين الشكل والمضمون، لذلك لا بدّ من دراسة الأساليب والأبنية الشكلية في ضوء علاقتها بالهدف الذي تؤديه في الحجاج ⁽⁸⁵⁾

⁸⁴ - المرجع نفسه ص 306.

⁸⁵ - صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 99-103

ترتكز نظرية بيرلمان وتيتكاه في الحجاج على مبدأ الاحترام بين الخطيب وجمهوره (دون تحديد نوع الجمهور) وضرورة اعترافه بآراء ومنظومة أفكار هذا الجمهور، وإن كان لابد من تغييرها فعن طريق مخاطبتها على درجة رفيعة من الرقي الفكري والابتعاد تماما عن العنف الفكري والخداع والتلاعب بالمشاعر، وعلى هذا فأنواع عدة من الحجاج لا يمكن أن تدخل عند بيرلمان وتيتكاه على أنها حجاج وبالتالي نلح تقلص حدود الحجاج عندهما. ويمكن القول أن الحجاج عند بيرلمان وتيتكاه يتميز بخمسة ملامح رئيسة هي:

- أن يتوجّه إلى مستمع .
- أن يعبر عنه بلغة طبيعية .
- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
- لا يفترق تقدمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة
- ليست نتائجه ملزمة . (86)

وبالتالي فالحجاج عبارة عن "تصور معين لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكلّ من المحاج والمقام الذي ينبج هذا الخطاب" (87) وإذا كان الإقناع هو مجال المبحث الحجاجي فإن "الفعل هو أهم وظيفة حجاجية في هذا المجال حيث تتطلب وعيا بآليات من شأنها تحريك المعنيين بالكلام صوب الفعل وتغييره بما ينسجم مع المقام" (88) قدّم الباحثان عملا ركّزا فيه على الإقناع الناتج عن وعي ودراية بجميع معطيات الخطاب.

2- الحجاج عند ماير M.meyer

يعتبر ماير "أحد منظري البلاغة المعاصرة الذي أحدثت دراسته الأخيرة طفرة نوعية في تحليل الخطاب في مجال التواصل والإقناع، انطلاقا من وجهة نظر فلسفية تعتمد البعد الافتراضي وتستند إلى الاختلافات الإشكالية في التأويل والفهم" (89) وقد استفاد ماير "من مختلف العلوم المعاصرة للتواصل والنظريات المعرفية والهرمونيكا والظاهراتية في قراءة البلاغة الكلاسيكية والجديدة معا، فتمكّن من إبراز المكونات الجديدة للخطاب الحجاجي البلاغي من خلال تصور جديد منفتح على العلوم الإنسانية والفلسفية بالخصوص" (90)

تعدّ نظرية المسألة إحدى النظريات المعاصرة التي قامت بمعالجة الخطاب بصفة عامة والخطاب الذي يتم داخل عمليات التخاطب خاصة، سواء كان تواصلا عاديا، أم حجاجا يهدف إلى الإقناع وقد استطاع ماير اعتمادا على منطلقات معرفية ومركزات فلسفية أن يؤسس منهجا تساؤليا يقوم على مبدئين اثنين (91):

أولا : المبدأ الافتراضي في تحليل الأقوال

86- محمد سالم ولد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان، ص 61

87- المرجع نفسه، ص 62

88- حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 12

89- عبد السلام عشير: عندما نتواصل، ص 194

90- محمد علي القارصي: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 387

91- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير ص 196

ثانيًا : مبدأ الاختلاف الإشكالي داخل الأقوال

1.2 مبدأ الافتراض في تحليل الأقوال:

تقوم كل الأقوال في العمليات التخاطبية على "مبدأ الافتراض المؤسس على الجواب والسؤال المفترضين انطلاقاً من مجموعة من المقومات التي تحكم العمليات التواصلية، كالسياق والمعلومات الموسوعية والتجربة الذاتية والقدرات الفكرية والتأويلية والتخييلية، إذ يصبح كل قول (خبر، إنشاء سؤال، تعجباً، أمراً، نهياً) افتراضاً لشيء ما داخل سياق تخاطبي معين أي جواباً عن سؤال سابق وسؤال لجواب لاحق بهذا يعبر الافتراض عن انتظارات متعددة ومختلفة تقتضيها العلاقات الإنسانية لتحقيق أهدافها ومراميها⁽⁹²⁾

2.2 مبدأ الاختلاف الإشكالي:

يرتكز هذا المبدأ على "طرح الاختلافات القائمة بين الأقوال ويهدف إلى تحقيق وظيفة القول تواصلاً أو إقناعاً وهذه الاختلافات هي الميزة الحقيقية في العمليات التخاطبية ليس باعتبارها تنوعات قولية في الشكل والمضمون بل باعتبارها اختلافات تحكمها ضرورات ترتبط بالمعارف والخلفيات السياقية والثقافية التي يتوفر عليها ذهن البشري" (93)

يمكن القول أن نظرية المسألة بحثاً في الإنتظارات المفترضة داخل الأقوال وبحثاً في الاختلافات الإشكالية التي تمثلها اللغة .

3.2 الحجاج ونظرية المسألة:

قام مايير من خلال نظرية المسألة بوضع قواعد نظرية ذات بعد فلسفي تكمل مجهودات باحثين آخرين لأبعاد اللغة ووظائف الكلام وهي "جهود تنظيرية في مجال البلاغة، تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشد الارتباط وبالسؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة التي تتضافر المقاصد التداولية (ظروف إنجاز الخطاب) والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية الحجاجية أساساً في تحقيقه"⁽⁹⁴⁾ وهذا يبين أن المجال المفضل للحجاج هو البلاغة.

حدد مايير البلاغة تحديداً وظيفياً "باعتبارها مفاوضة بين الأشخاص حول مسألة أو مشكل"⁽⁹⁵⁾ تلعب فيه المسألة المتصلة ببنية الأقوال "دوراً تحليلياً داخل الحجاج، حيث تبرز أهدافه وغاياته الإقناعية"⁽⁹⁶⁾ ومن بين أهم العناصر التي تحدث عنها:

⁹² - مليكة غبار، احمد أمزيل، محمد رويض، علي أعمور: الحجاج غي درس الفلسفة، ص101

⁹³ - نفس المرجع، ص106

⁹⁴ - محمد علي القاصي: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 401

⁹⁵ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير ص 203

⁹⁶ - محمد علي القارصي: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص407

1.3.2 العلاقات الحجاجية:

تقوم العلاقات الحجاجية على ثلاثة عناصر أساسية هي :

أ- الإيتوس (الصفات المتعلقة بالمتكلم)

ب- الباتوس (التأثير في الآخر)

ج- اللوغوس (الخطاب أو اللغة أو العمليات الاستدلالية العقلانية داخل الخطاب) ⁽⁹⁷⁾

هذه العناصر لا تخرج عن الطرح الذي قدمه بيرلمان انطلاقاً من التصور الأرسطي لكن ما يبرر يقدم تصوراً وظيفياً لهذه العناصر ويختزلها في عنصرين أساسيين هما: "عنصر الإيتوس وعنصر العلاقة الثنائية التي تجمع بين المتكلم والمستمع والتي يحددها اللوغوس في الخطاب إذ يعتبر هذا التصور الجديد في الوظيفة الحجاجية تجاوزاً للفهم التقليدي (أرسطو وبيرلمان) الذي ينحصر في الوظيفة التي تدور حول الاستمالة والإقناع تصور يرتكز على العلاقة الثنائية (بين المتكلم والمستمع) باعتبارها مكوناً أساسياً في العملية الحجاجية" ⁽⁹⁸⁾ أعطى طرفي العملية الحجاجية الأهمية التي غابت عند أرسطو وبيرلمان

2.3.2 البعد الحجاجي للغة:

يعرّف مايير اللوغوس (أي القول الحجاجي) بأنه "كلام العقل الذي يدرك نفسه في كل أبعاده دون أن يحده اتجاه مخصوص" ⁽⁹⁹⁾ وإذا كان الحجاج معقود بركنيته الأساسيين، ركن العلاقة الثنائية وركن اللغة القائم على العلاقة الخطابية " فإن الحجاج ليس إلا استغلال لما في الكلام من قوة و ثراء" ⁽¹⁰⁰⁾ يظهر أن الاهتمام منصب على ما في اللغة من قدرة على الإقناع لما تتوفر عليه من بنيات مختلفة.

3.3.2 الواضح والضمني في اللغة الحجاجية:

تعبّر لغة التخاطب داخل القول الحجاجي عن "أسئلة خفية، وتطرح قضايا مشتركة بين الناس فالقول الذي لا يثير أسئلة - أي القول الذي لا يتجاوز ظاهر لفظه - لا يقيم علاقة حجاجية بين المتخاطبين، سواء كان المعنى الذي يحمله خفياً أو حرفياً لذلك فالواضح والضمني في الحجاج مرتبطان بما يتيحانه من إمكانيات تساؤلية لإبراز الاختلاف الإشكالي" ⁽¹⁰¹⁾ فالقول (اللغة) واستعمالاته هي مصدرا لاختلاف حول مضمون القضايا التي يجادل الناس حولها لتأكيد

⁹⁷ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 204

⁹⁸ - نفس المرجع، ص 205

⁹⁹ - مليكة غبار، احمد أمزيل، محمد رويض، علي أعمور، الحجاج في درس الفلسفة ص 118

¹⁰⁰ - نفس المرجع، ص 118-119

¹⁰¹ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 207

أو رفضها أو التشكيك فيها... ولأنّ اللّغة تسعى إلى تكثيف القول بما تنتجها من آليات وأدوات تجعل من الواضح والخفي أسئلة مختلفة ومتنوعة «⁽¹⁰²⁾ والقول التالي يبيّن دور هذه الآليات التّكثيفيّة .

" كلّ شيء قابل للتّغيير لكن الوقت لم يحن بعد " المثال لعبد السلام عشير⁽¹⁰³⁾

فالجواب الأول " كلّ شيء قابل للتّغيير " ← يسير في اتجاه القبول والاتفاق

الجواب الثاني "لكن الوقت لم يحن بعد " ← يسير في اتجاه الرّفض والاختلاف

فالقول عن طريق توظيف "لكن" هو "عبارة عن سؤال خفي يحوّل المعنى الواضح والمعنى الخفي إلى سؤال إشكالي ويجعل المخاطب يقوم بتقدير الجواب الحقيقي أو المفترض في القول وهو على نقیض ما يطرحه المتكلّم إن استعمال الأداة "لكن" يدل على الشكّ أي أن تحقيق التّغيير ليس إلّا احتمالا دون أن يكون حقيقة. والجواب هو دليل ممكن لمعالجة قضیة التّغيير عن طريق إثارة أسئلة أخرى وإجابات أخرى.

4.3.2 الحجاج والمجاز :

يولي ماير أهمية قصوى للبلاغة وصورها المجازیة في التّخاطب لأنّ هذه الصّور تعمل على تأسيس فعل الحجاج واغنائها "فيصبح الحجاج ما تنتجها البلاغة من صور بيانيّة"⁽¹⁰⁴⁾ لأنّ الإنسان يستخدم عبارات يريد من ورائها إبراز الفكرة أو تأكيدها أو إلغائها وهذا يبرز "أن ما يفهمه الإنسان أو يؤمن به أو يعتقده مقيد بأشكال متعدّدة من السلطة، الماديّة والمعنويّة والقوليّة والمجازيّة"⁽¹⁰⁵⁾

يمكن القول أن نظريّته المجازیة في الحجاج تأسست من خلال مفاهيم هي عبارة عن "ثنائيات متقابلة يتشكل بها القول الحجاجي منها : الحقيقة والمجاز، الافتراض واليقين، الاستعمال والابتكار السلطة المجازیة والسلطة الماديّة ..."⁽¹⁰⁶⁾

3- الحجاج عند أوسكمير وديكرو O. Ducrot /G. Aunscomb

تمثّل أعمال أروالدديكرو وجون كلود أوسكومبرتجاها جديدا ومتميّزا في اللّسانيّات النّداوليّة الحديثة ومن الأفكار الجادة عندهما "رفض التّصور القائم على فصل الدّلالة التي تبحث في المعنى (معنى الجملة، النص) والنّداوليّة التي تعنى باستعمال ذلك في المقام.إنهما يعتقدان

¹⁰² - محمد علي القارصي: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغريبة من أرسطو الى اليوم، 347

¹⁰³ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص208

¹⁰⁴ - ibid,p143

¹⁰⁵ - ibid,p152

¹⁰⁶ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص207

أن الأمر كله منوط ببنية اللغة، لأن الجزء التداولي فيها يكون مدمجا في الدلالة وبالتالي يكون موضوع البحث هو الدلالة التداولية المسجلة في أبنية اللغة وتوضيح شروط استعمالها الممكن " (107)

الحجاج عندهما موجود في "بنية اللغة ذاتها، وليس فيما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بنيات شبه منطقية فالخطاب وسيلة الحجاج وهو في آن واحد منتهاه، فيكون الحجاج عندهما بتقديم المتكلم قولاً (ق1) (أو مجموعة أقوال). تفضي إلى التسليم بقول آخر (ق2) أو مجموعة أقوال أخرى⁽¹⁰⁸⁾ وسواء أكان (ق2) صريحا أو ضمنا فعملية قبول (ق2) على أنه نتيجة للحجة (ق1) تسمى عمل محاجة" (2) فالحجاج إنجاز لعملين هما "عمل التصريح بالحجة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى" (109)

قد يبدو الأمر وكأنه عملية استدلال، لكن الباحثين لا يغفلان التمييز بين "عمل المحاجة وبين الاستدلال حيث يقوم القائل (م) الذي يقول القول (ق) بعمل استدلال إذ أحال في الوقت نفسه الذي يقوم فيه (ق) على حدث معين (س) ويقدمه على أنه نقطة انطلاق لاستنتاج يؤدي إلى عملية قول (ق) (110) فالفرق بين الاستدلال وعمل المحاجة، أن الاستدلال أساسه ربط المتكلم لآرائه واعتقاداته بحالة الأشياء في الكون أما الحجاج فعملية موجودة في الخطاب نفسه، أي لا يستند إلى أي حدث في الكون خارجي عن اللغة، فإذن "الحجاج خاصية لغوية دلالية وليس ظاهرة مرتبطة بالاستعمال في المقام" (111)

ويتحقق الحجاج حسبهما من خلال تتابع (ق1) و(ق2) تتابعا صريحا أو ضمنا (أي الحجة والنتيجة) لغويا، أي من بنية هذه الأقوال وليس من مضمونها الإخباري "إنه من أجل أن يكون (ق1) حجة تفضي إلى (ق2). لا يكفي في (ق1) من الحجج - في مستوى المضمون - ما يفضي إلى التسليم بـ (ق2). إذ ينبغي أن تشمل البنية اللغوية على بعض الشروط التي من شأنها أن تؤهل (ق1) هذا لكي يمثل في خطاب م حجة تفضي إلى (ق2)⁽¹¹²⁾، فترابط الأقوال لا يستند إلى قواعد الاستدلال المنطقي، وإنما هو ترابط حجاجي لأنه مسجل في أبنية اللغة بصفته علاقات توجه القول وجهة دون أخرى، وتفرض ربطه بقول دون أخرى. فموضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثل مكونا أساسيا لا يفصل عن معناه و يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة حجاجية معينة⁽¹¹³⁾ الباحثان يركزان على ما في اللغة من أبنية تؤدي إلى حجاجية القول.

¹⁰⁷ - شكري المبخوت: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو اليوم، ص351

¹⁰⁸ - عبد الله صوله: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص36

¹⁰⁹ - نفس المرجع، ص36، 37.

¹¹⁰ - شكري المبخوت: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص361

¹¹¹ - مرجع سابق، ص362

¹¹² - عبد الله صوله : الحجاج في القرآن ص 37

¹¹³ - شكري المبخوت :أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 352

وهو ما "ينقله القول *Acte présumé* ومن المفاهيم المهمة في هذه النظرية الاقتضاء⁽¹¹⁴⁾ أو عمل مقتضى إلى المخاطب بصفة ضمنية، أي أنه يعيد معلومات قديمة، مثلا " كدت تصل متأخرا" نجد الاقتضاء مفاده أن المخاطب "لم يصل متأخرا" وهذا يعرفه المخاطب ولا خلاف فيه ، ولكن للاقتضاء مظاهر أخرى⁽¹¹⁵⁾:

أ-إذا كان المقتضى يقدمه المتكلم على أنه يعبر عن موقفه الشخصي لغويا فهذا يجعل الاقتضاء يقدم على أنه جانب مشترك بينه وبين المخاطب، وبما أنه مشترك فإنه لا يمكن إلا قبوله، وهنا يبرز الجانب الخطابي الأساسي للاقتضاء ب-في الجدال ييسر الاقتضاء إدخال المخاطب ضمن عالم اعتقادات المتكلم فهو يجعل المتكلم يأسر المخاطب في عالمه يقبل مستلزماته على نحو يمنعه من رفضه، أو التساؤل عنه.

وهو على مستويين على مستوى السامع "بالتأثير فيه، *orientation* أو أما هدف الحجاج عندهما فهو التوجيه أو مواساته أو إقناعه أو جعله يأتي عملا ما إزعاجه أو إحراجة وغير ذلك وعلى مستوى الخطاب حيث إن الحاجة من أجل الحصول على النتيجة (ن) بواسطة (أ) إنما هي في نظرنا ضرب من تقديم (أ) على أنها ينبغي أن تؤدي بالمتلقي إلى استنتاج (ن) وجعل (أ) تعلقة لاعتقاد(ن)⁽¹¹⁶⁾

عموما إن الحجاج عند ديكر و أو سكمبر

- قائم في جوهر اللغة
- واسع جدًا، فكل قول حجاجي، وهذا فيه مبالغة كبيرة لأن اللغة وظائف أخرى لا نقل أهمية عن الحجاج.

يمكن القول إن أعمال هذين الباحثين أعمال بنوية تغلق النص أو الخطاب ولا تتعامل مع خارجه، وضمن هذا الدال اللغوي تحيل اللغة على ذاتها، لأنها تعكس عملية قولها بحيث يكون معنى القول هو "ما ينقله من وصف وتمثيل لعملية قول ذلك القول.⁽¹¹⁷⁾

الخلاصة:

اهتم الغربيون المحدثون بالحجاج مع تطور الدراسات اللسانية والتداولية، حيث ظهرت عدة نظريات، وإن اختلفت مشاربها النظرية ومنطقاتها المنهجية أو الأصولية فإنها تكشف لنا بوضوح قيمة الموقف من الحجاج باعتباره عنوان بلاغتنا الجديدة وتجسيدا صريحا لفلسفة الرجّة حسب بول ريكور التي نبهتنا إلى أن كل خطاب آثم وأن لا وجود لخطاب بريء وهذا ما يجعل الحجاج نمطا للخطاب ونوعا يتعالى على مقولات الجنس لأنه قادر على ابتلاع سائر الأجناس.

¹¹⁴ - عرف أبو حامد الغزالي (ت 505) الاقتضاء بقوله: "هو الذي لا يدل عليه اللفظ ولا يكون منطوقا به، ولكنه من ضرورة اللفظ ... وحده الشريف الجرجاني: "المقتضى هو عبارة عن جعل غير المنطوق منطوقا لتصحيح المنطوق، مثاله فتحري رقية وهو مقت شرعا لكنه مملوكة إذ لا عتق فيها لا يملكه ابن ادم فيزداد عليه ليكون تقدير الكلام فحري رقيه مملوكة " عبد الله صوله: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ص 91.

¹¹⁵ - شكري المبخوت: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 357- 372

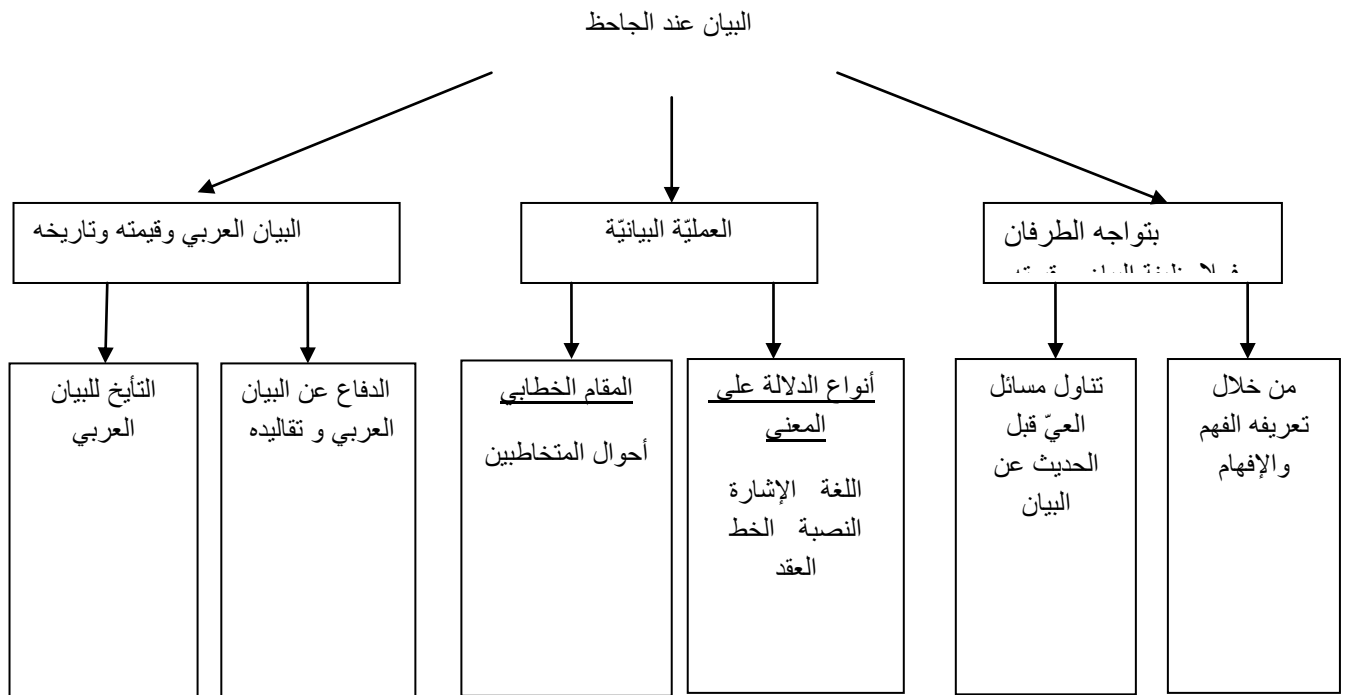
¹¹⁶ - عبد الله صوله: الحجاج في القرآن ص 39

¹¹⁷ - شكري المبخوت: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 352

الحجاج والبلاغة والبيان
والخطابة بين التراث
والبلاغة الحديثة

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، "وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب، ويدوي في كل أفق، ويرنّ صدهاء في سمع كل شاعر وخطيب، وعاش الناس في عصره وبعد عصره ينهلون منه في البلاغة والفصاحة واللسن، والعارضه، كما يقول ابن العميد. وعدّوا التلمذة عليه شرفاً لا يعدّ له شرف، ومجداً يدينهم من بلاط الملوك، وتعصّب له كثيراً من رجال الثقافة الإسلامية في شتّى عصورها، فألفوا الكتب في الإشادة به...»⁽¹¹⁸⁾

ألف الجاحظ كتاب **البيان والتبيين** لأحمد بن أبي داود وجعل بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم وقد لخص محمد العمري موضوع البيان والتبيين في الخطاطة التالية: ⁽¹¹⁹⁾



البحوث الأدبية مصادرها و مناهجها، ص 147: -عبد المنعم خفاجي¹¹⁸

البلاغة العربية أصولها و امتداداتها ، ص 272: - محمد العمري¹¹⁹

1 - مفهوم البيان عند الجاحظ:

أولى الجاحظ أهمية قصوى للبيان ولهذا أفرد له حيزاً معتبراً في مؤلفه حيث يقول "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته... لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الإفهام أو وضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع..." (120)

البيان هنا مفهوم عام لغوي هدفه تحقيق الفهم والإفهام، مع ملاحظة تركيزه على فكرة التّواصل حيث هناك طرفان يشتركان في عمل لغوي ما الغاية منه البيان والإفهام عن كليهما وحسب تقسيم رومان جاكبسون لوظائف اللّغة يقوم البيان بالوظيفة الأولى الإخبارية. وفي هذه الفكرة نلاحظ تساوي البيان والبلاغة في الوظيفة يقول الجاحظ "وكان عبد الرحمن بن إسحاق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمه، قال: سمعت أبا مسلم يقول: سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع، قال أبو عثمان: أمّا أنا فأستحسن هذا القول جداً..." (121)

وفيما يلي جملة من الأقوال نستخلصها من البيان والتبيين نفيدنا في فكرتنا العامة:

"... وليس حفظك الله، مضرّة سلطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العي من خلال الحجّة وعن الحصر من فوت درك الحاجة" (122) وكأني به يقول: إن الأثر الذي يتركه العي يماثل الأثر الذي ينتجه غياب الحجّة، أو أن التأثير العملي العقلي ولذلك فمفهوم العي عند الجاحظ ليس ثابتاً أو لنقل ليس في مستوى واحد وهذا بيان ذلك.

"...مع ما أعطى الله تبارك وتعالى موسى عليه السّلام من الحجّة البالغة ومن العلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة، إلى أن حلّ الله تلك العقدة وأطلق تلك الحبسة وأسقط تلك المحنة... أو... ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الرّاء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه حتى انتظر له ما حاول واتّسق له ما أمل ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتّى صار لغرابته مثلاً... لما استعجزنا الإقرار به والتأكيد له، ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الأكفأ ومفاوضة الإخوان" (123)

فإذا فهمنا من هذين القولين أن العي يمثّل عائقاً يحيل بين البيان وبين هدفه الذي هو عدم القدرة على الكلام بالشكل المطلوب، فالكلام هنا بوصفه إنجازاً فإنه في أقوال أخرى يتصاعد ليصل إلى الفكر والعقل، وهذا من خلال عقد

120- الجاحظ: البيان والتبيين، 1- 76.

121- نفس المرجع، ج 1، ص 86 - 87.

122- نفس المرجع، ج 1، ص 12.

123- الجاحظ: البيان والتبيين ص 1- 15.

الجاحظ لمقارنات بين البيان والعيّ يقول "... البيان بصر والعيّ عَمى، كما أن العلم بصر والجهل عيّ، والبيان من نتاج العلم، والعيّ من نتائج الجهل" (124) فالبيان هنا هو الغاية، ومن ميادينه :

- أ- الاحتجاج ← مقارنة الخصوم
ب- الدعوة إلى مذهب ← الخطب الطوال

ولتمامه لابدّ من التحام "المعنى أو الفكر واللفظ" فالمعاني قائمة في صدور الناس متصورة في أذهانهم مختلفة في نفوسهم ومتصلة بخواطرهم... وإنما يحي تلك ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها" (125) في مقابل هذا الطرح نجد التوحيدي يقول "أعلم أن البليغ مستمدّ بلاغته من العقل، ومأخذه فيها من التمييز الصحيح" (126)

ج- يتطوّر هدف البيان عند الجاحظ من مجرد الفهم والإفهام إلى:

- "... وإن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتثني به الأعناق" (127)
- "وكان أبو بشير إذا نازع لم يحرك يديّه، ولا منكبيه، ولم يقلّب عينيه حتّى كأنّ كلامه إنّما يخرج من صدع صخرة، وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول: وليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتّى كلمة إبراهيم بن سيّار النّظام عند أيوب بن جعفر فاضطره بالحجّة وبالزيادة في المسألة حتّى حرك يديه، وحلّ حبوته..." (128) فإنّ:

- الإقناع الذي يكون عن طريق الاستمالة، استمالة القلوب، وإنشاء الأعناق...
- الإكراه والإلزام، مع ما يحوي ذلك من إنشاء حجج لا تردّ ويرى محمد العمري أن المفهوم الثّاني يدخل ضمن الهموم الشخصية والمذهبية للجاحظ، باعتباره علما من أعلام المعتزلة حاول من خلال جهود شيوخهم المذكورين في البيان، وغير المذكورين تقنين الخطاب الإقناعي. (129)

نلاحظ أن الجاحظ خصّص فصلا للمقال عن البيان إلى غاية الصفحة 87 من الجزء الأول وابتداء من الصفحة 88 يبدأ فصل جديد عن البلاغة، أورد فيه تعاريف عدّة للبلاغة، كالتعريف الفارسي واليوناني "تصحيح الأقسام، واختيار الكلام" (130) والرومي والهندي... وتعريف بعض أهل الهند: "جماع البلاغة البصر بالحجّة والمعرفة بمواضع الفرصة" (131) فالبلاغة عند الأقوام غير العربيّة تعتمد المنطق ويمكن استنتاج أن البلاغة (العربيّة) تقابل الخطابة (اليونانيّة) من التعريف اليوناني. ولكن الشّيء الواضح هو أن الجاحظ عندما عرّف البيان وتحدّث عنه، كان ذلك من نتاج أفكاره، أما عندما انتقل إلى الحديث على البلاغة، فإنّه أورد تعريفاً للأمر الأخرى (اليونانيّة، الفارسيّة...) وحتّى لبعض الشخصيات غير عربيّة الأصل مثل سهل بن هارون وابن المقفع.

ج1 ص 77 :- نفس المرجع 124

125- المرجع نفسه ج1، ص 75.
126- حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي ص 375 نقلا عن الامتناع والمؤانسة ج1، ص 96.
127- الجاحظ: البيان والتبيين ج1 ص 17.
128- المرجع نفسه ص 91.
129- محمد العمري : البلاغة العربية أصولها و امتداداتها ، ص 200
130- الجاحظ : البيان و التبيين ، ج1 ، ص 96.
131- نفس المرجع ، ج1 ، ص 106.

ومع ذلك فإن الجاحظ حينما انتقل إلى الحديث عن البلاغة، لم يفصل بينهما وبين البيان، بشكل يشعر أنك بإزاء مفهومين مختلفين، على العكس من ذلك كثير من الأقوال يقايض - المصطلح لمحمد العمري - فيها البيان بالبلاغة قال مثلاً: "وقال ثمامة: قلت لجعفر بن يحيى ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم محيط بمعناك ويجلى عن مغزاك، وتخرجه عن الشَّرْكة، ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لا بدّ منه، أن يكون سليماً من التَّكَلُّف، بعيداً عن الصَّنْعة، بريئاً من التَّعَدُّ، غنياً عن التَّأْوِيل وهذا هو تأويل قول الأصمعي: "البليغ من طَبَقَ المفصل، وأغناك من المفسّر" (132) لكن البلاغة التي تساوي البيان هنا ليست مشابهة لبلاغة الأقوام غير العربية التي تعتمد المنطق والعقل.

يدخل مصطلح آخر ويدور مع المصطلحين الأوليين، الخطابة، فكثيرة هي الأقوال التي تلمح فيها البعد التّردافي بين البلاغة والخطابة مثلاً: قال ابن الأعرابي: قال بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدى: ما هذه البلاغة التي فيكم؟... قال: شيء تجيش به صدورنا فنقذفه ألسنتنا. فقال رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين هؤلاء باليسر والرّطب أبصر منهم بالخطب، فقال له صحار: "أجل والله، إنا لنعلم أن الرّيح لتلحقه، وإن البرد ليقعده، وإن القمر ليصبحه، وإن الحرّ لينصح" (133) ولم يعلق أحد من الحاضرين أو حتّى الجاحظ بعد ذلك الحديث إلى الخطابة بعد أن بدأ بالبلاغة وكأنّهم لا يرون فرقاً بينهما ولكن في عرض الخطابة والبلاغة بعض النقاط نشير إليها على عجل:

يربط الجاحظ البلاغة بالكتابة "... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، بلاغة قلمك... فأنت البليغ التّام" (134) ولذلك فهو معجب كثيراً بطريقة الكتاب قال أبو عثمان: أما أنا فلم أر قط أمثلاً طريقة في البلاغة من الكتاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً و حشياً فالبلاغة كما تفهم هنا تختلف عن بلاغة اليوناني أو الفارسي في المرتكزات المعتمدة، وأما الخطابة ففيها جانبان هما:

- ❖ **الجانب المكتوب:** تتمثل في "خطب محفوظة، رسائل... تحتل الصنعة
- ❖ **المشاهدة:** تعتمد الإلقاء الفوري، وبالتالي ضرورة اتقاء البديهة، وحسن التّخلص من المواقف المخرجة ومعرفة ما يناسب كلّ مقام من المقال قال: "نظر معاوية إلى النّخار بن أوس العذري الخطيب الناسب في عباءة في ناحية من مجلسه، فأنكره وأنكر مكانه زراية منه عليه فقال: من هذا؟ فقال النّخار: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها" (135)

ترتكز البلاغة عند الجاحظ بالإضافة إلى الكفاءة اللسانية على مساعدات خارجيّة "... جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول..." ثم قال: "وزين ذلك كلّّه، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشّمائيل موزونة، والألفاظ معذلة، واللّهجة نقيّة، فإن جامع ذلك السّن والسّمت والجمال وطول الصّمت فقد تمّ كلّ التّمام، وكمل كلّ الكمال..." (136) وأما أبوبشر مثلاً وهو أحد أئمة القدريّة المرجئة فكان يقول "ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، وكذلك يظهر من عديد الأقوال أن سهل بن هارون ومع ما توفر من الشّروط اللّغويّة والخارجيّة في شخصه لم يكن من رأي الجاحظ. والخطابة ولا شك، ولكي تحقّق هدفها لابدّ من توفرها على جملة من الشّروط هي التي ذكرها الجاحظ

132- نفس المرجع ص 106، 107.

133- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 96.

134- نفس المرجع: ج 1، ص 136

135- نفس المرجع: ج 1، ص 137.

136- نفس المرجع: ج 1، ص 137، 238.

الفصل الأول

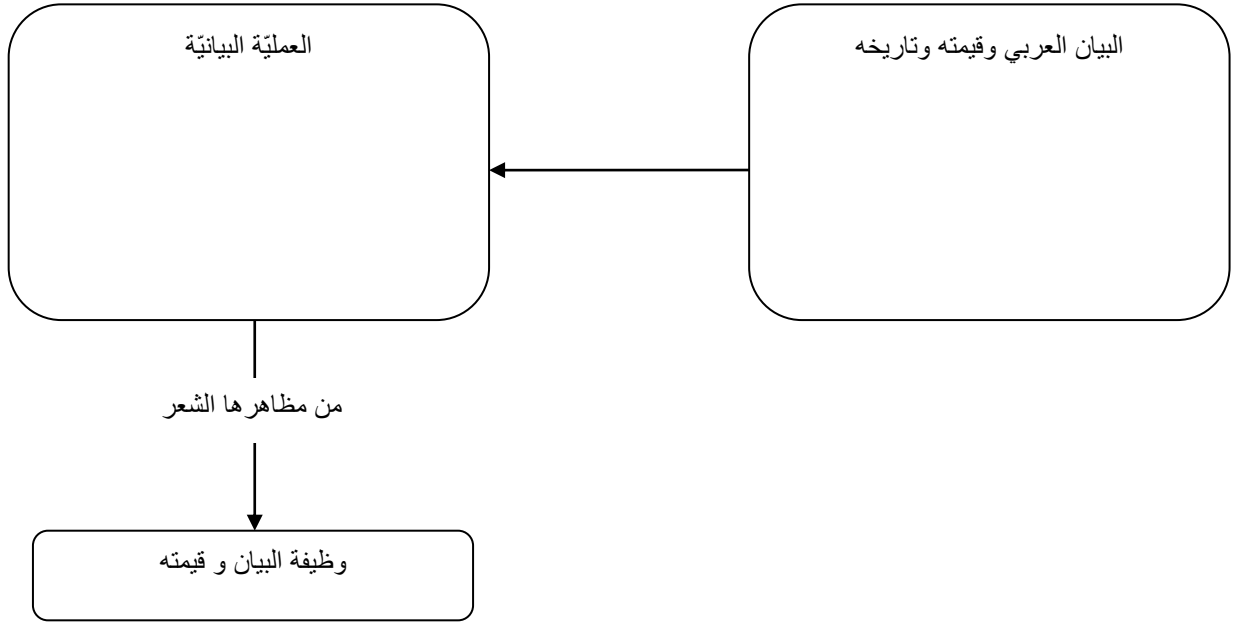
الحجاج

في البلاغة، لأنَّ شخصيَّة البليغ تؤثر كما تؤثر مقدِّرته اللُّغويَّة كما أنَّ البلاغة تكون في الخطابة، كما تكون في السَّجْع أو... (حسب تعريف ابن المقفع لها)⁽¹³⁷⁾.

❖ يذكر محمد الصَّغير بناني مفهومًا للبلاغة، يقوم على المساواة بينهما وبين التَّقْيَةِ⁽¹³⁸⁾ وهذا استخلاصًا من أقوال الجاحظ والتِّي أوردتها على لسان الأجنب "آلة البلاغة"⁽¹³⁹⁾ سهل بن هارون يقول: "إنَّ سياسة البلاغة أشدَّ من البلاغة"⁽¹⁴⁰⁾ ويضيف بناني أنَّ طغيان هذا الجانب التقني هو الذي أدى فيما بعد إلى تغلب جانب الصَّنَاعَة على البلاغة، على يد شخصيَّات هامَّة مثل العسكري في الصَّنَاعَتَيْن والسَّكَاكِي في مفتاح العلوم، وهو المسؤول عمَّا آلت إليه البلاغة من اعتبارات شكليَّة تنتهي في صياغات لفظيَّة، وقوالب جافة لا طائل منها⁽¹⁴¹⁾

وفي موضع آخر نرى الجاحظ وكأنَّه يستدرك ما أوردته في البداية، أنَّ هدف البيان إنَّما هو الفهم والإفهام، بصيغة الإطلاق لنراه في هذا القول يقيّد الهدف يقول: "والعتابي حين زعم أنَّ كلَّ من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أنَّ كلَّ من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقِّه، أنَّه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه ونحن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له: لم اشتريت هذه الأتان؟ قال: "أركبها وتلد لي وقد علمنا أنَّ معناه صحيحًا، فمن زعم أنَّ البلاغة أنَّ يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللَّكْنَة والخطأ والصَّواب والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب كلُّه سواء، وكلُّه بيانًا... وإنَّما عني العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء"⁽¹⁴²⁾

ويمكن أن نستنتج من خلال ما سبق:



¹³⁷ - نفس المرجع: ج1، ص 116.

¹³⁸ - محمد الصغير بناني، النظرية اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص 237.

¹³⁹ - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1 ص 09.

¹⁴⁰ - المرجع نفسه ج1 ص 197.

¹⁴¹ - محمد الصغير بناني: النظرية اللسانية والبلاغة الأدبية عند الجاحظ، ص 238.

¹⁴² - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1 ص 161، 162.

2- الدراسات اللسانية العربية الحديثة:

أتاحت العلوم اللسانية الجديدة للدارسين آفاقاً أوسع في تناول التراث العربي القديم، فكانت هناك أعمال مميزة، جمعت بين المادة الثرية الأصلية والمناهج الدقيقة والشاملة، ومن المحاولات الجادة لقراءة التراث البلاغي العربي محاولة مصطفى ناصف في كتابه "بين بلاغتين" والذي انتهى إلى أن البلاغة العربية بلاغتان "بلاغة الدعاية وكسب المخاطب واسترضائه واستمالته، وتحسين القبيح وتقبيح الحسن" (143) وهي البلاغة التي لها علاقة بالخطابة والحجاج، ويمكن أيضاً أن نستنتج أن البلاغة التي وردت في البيان والتبيين للجاحظ هي من هذا القبيل، يقول مصطفى ناصف: "كان نظام البلاغة هو نظام إدراك المنافع ودفع المضار وإحراز النجاح... فلا غرابة إذا رأينا نظام البلاغة يقوم منذ البدء على مخاصمة الفكر الفلسفي، والبحث الحرّ النزهي، وإعلاء نظام آخر ذي طابع عملي" (144) ويضيف أنها بلاغة لا تهتم بحقائق الأشياء، ولكنها تهتم بالإقناع، وضمت الجمهور إلى جانب دون آخر، والجمهور ليسوا فلاسفة ولا أشباه فلاسفة وإنما هم قوم من عامة الناس، تؤثر فيهم الكلمة المنتقاة والأصوات الرنانة فلا يتعمقون في الأشياء كما يفعل الفلاسفة (145) وأما البلاغة الثانية فهي تميل إلى التأمل في الفلسفة بحيث تتعمق دراسة اللغة، كما اهتمت أيضاً بالإعجاز في القرآن الكريم بدراسة لغته، ونظام عباراته وطريقة تركيبها (146) وبالتالي فهي بلاغة من الدرجة الأولى.

أما جابر عصفور فيورد تصنيفاً آخرًا للبلاغة العربية يختلف عن الأول "هناك بلاغتان في التراث العربي لا بلاغة واحدة... البلاغة الرسمية التي تعرفنا عليها في كتب البلاغة السائدة، وهي البلاغة التي أنتجها البلغاء والمنظرون الذين كانوا على وفاق مع الدولة... وبلاغة أخرى مقموعة في كتب البلاغة الرسمية مسكوت عنها" (147)

La كان الجاحظ يضع البلاغة والخطابة (148) والبيان ثلاثية -نقول تجوز- مترادفية تقابل المصطلح الأجنبي وللتذكير نورد تعريف أرسطو لها "الربطوريا قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور rhétorique المفردة" (149) وفي التقاليد الغربية لها علاقة دائماً بالتفكير الحجاجي ويذهب بن الأثير إلى القول: "مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم والإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الأفكار المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجابة لبلوغ غرض المخاطب لها" (150)

ويظهر هنا أن البلاغة مفهوم عام يندرج تحتها كل من الخطابة (غرض المخاطب بها الإذعان) والجدل (الغرض من الخصم الغلبة والتسليم) وبالتالي فهي تحمل ملامح حجاجية بشكل عام .

143- عبد الله صوله: الحجاج في القرآن ج 24/1 نقلا عن مصطفى ناصف بين بلاغتين ضمن كتاب قراءة جديدة لتراثنا النقدي ص 192.

144- عبد السلام المسدي، التوحيدي وسؤال اللغة ص 152 نقلا عن مصطفى ناصف بين بلاغتين ص 382.

145- المرجع نفسه ص 152.

146- عبد الله صوله: الحجاج في القرآن ج 29/1 نقلا عن مصطفى ناصف بين بلاغتين ضمن كتاب قراءة جديدة لتراثنا النقدي ص 192.

147- المسدي: التوحيدي وسؤال اللغة، ص 16.

148- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي ص 18.

149- أرسطو: الخطابة، ترجمة عبد الرحمان بدوي ص 8.

150- ابن الأثير، المثل السائر، ج 2 ص 64.

استمر عدم التفريق بين المصطلحات الكبرى فتعريف الخطابة بحسب الترجمة العربية لكتاب النقد الأدبي لويليام ومزات وكليت بروكس "البلاغة يمكن أن تعرف إذن بأنها ملكة اكتشاف وسائل الإقناع الممكنة بالرجوع إلى الموضوع بأنه فن Le grand robert بالبيان الذي يعرفه معجم La rhétorique أيًا كان⁽¹⁵¹⁾ وبالنسبة لحسين الصديق فإنه يقابل بينما صلاح فضل يعرف البلاغة القديمة بأنها فن الكلام والكتابة الجيدتين⁽¹⁵²⁾. l'art de parler الكلام

يمكن أن نستنتج في النهاية أن محاولة إعطاء قول حاسم في مصطلحات البيان والبلاغة والخطابة، وأيًا يقابل أمر نسبي، ولن نستطيع تحديده بدقة لأن: L'ARGUMENTATION, LA RHETORIQUE المصطلحات الأجنبية

1- التراث العربي الإسلامي متنوع متداخل، فعلم العربية حتى وقت طويل من نزول القرآن الكريم كانت تدرس مجتمعة، لا منفصلة، هذه الدراسات كانت لأعلام لكل واحد منهم مذهب خاص، فكري أو لغوي أو حتى ديني⁽¹⁵³⁾ ومعلوم أن مادة الدارسين المحدثين هي التراث في أغلب الأحيان، فمن المنطقي أن يتأثر كل دارس بالاتجاه أو بالأعلام التي يرضاها، ويقبلها لأسباب موضوعية أو شخصية. أضف إلى ذلك عدم توفر العربية على معاجم تاريخية ترصد هذه المفاهيم الرئيسية، وتطوراتها الدلالية.

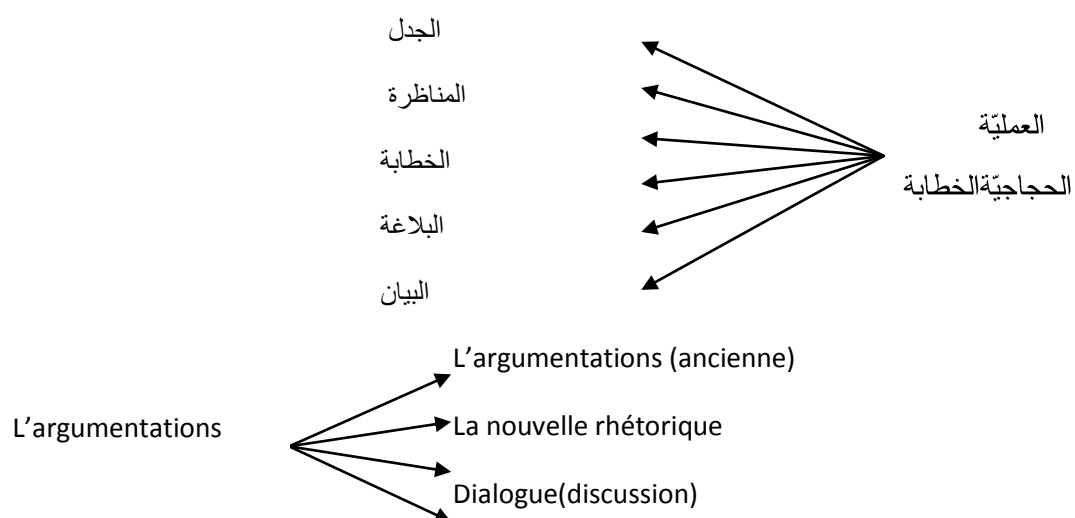
أو L'ARGUMENTATION وحتى الغربيون، لا يتفقون على تعريف واضح محدد للمصطلح المهم "الحجاج" غايته أو ميادينه. وهذه سمة بارزة في الدراسات الإنسانية عموماً.

2- تعود إشكالية ترجمة المصطلحات لتطرح ظلالها هنا، فحتى لو عقدت مؤتمرات عربية لتوحيد وتحديد المصطلحات. سيكون هناك من يخالف تلك الاتفاقيات، ولعل قضية مصطلح LINGUISTICS اللسانيات خير دليل على ذلك. ولكن في كل المصطلحات الواردة سابقاً سمات الخطاب الحجاجي، وإن كان مصطلح الحجاج مغموراً نوعاً ما، فإن العملية الحجاجية كانت السمة المميزة للجهود العربية عموماً، وهذان التقسيمات يوضحان الممارسات الحجاجية العربية ومقابلاتها الأجنبية:

¹⁵¹ - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 19.

¹⁵² - صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 97.

¹⁵³ - محمد الكتاني: جدل العقل والنقل، ص 450.



وعلى كلّ فالحجاج وظيفة من أهم وظائف اللّغة، وإذا كان التّواصل هو المهمّة الأساسيّة في اللّغة فإنّي أقول أن الحجاج هو التّواصل الفعّال والنّاجح، باعتباره يحدث في الأطراف المتحاجة ضرباً من التّغيير سواء على المستوى الفكري أو العمل أو السلوك.

ويمكن في الختام أن نجمع أشكال الحجاج في المخطط التّالي وهو شبه استنتاج لكلّ ما تقدّم.

يفترض طرفين، ولكن ليس مهما عدد المقول إليهم قد يكون فردا
و احدا، أو جماعة محددة العدد أو غير محددة

الطرف (أ)

يأخذ صفته من العمل الحجاجي الذي

حوار

حقيقيا

مفترضا

من أهم مظاهره

الصحافة

- المسموعة
- المرئية

الدعاية

الإشهار

ويبقى القرآن
الدعوة الخالدة
والأزلية لكل الناس
على اختلاف

وأزمانهم

سلبيا كما يقول سيريل
المتألق لا يشاءك فعلا

- خير ما تمثله:
- الخطابة / البلاغة
- la rhétorique
- الخطابة الجديدة أي
la nouvelle
la rhétorique
L'argumentation
لبيرلمان
الخ

حادا غايته إظهار
الصواب

- المجادلة المحمودة
(مثل مجادل الباقلاني
لمسيحيين، أو مناظرة
علماء الدين الإسلامي
للملحدين...)
- المناظرة لغة
واصطلاحا
الخ

حادا غايته
الغلبة

- المماحكة
- المجادلة المذمومة
- المساجلة
- المماراة
- المجادلة المذمومة
- المنازعة
- المناظرة عمليا
- dé batre
الخ

هادئا

- مناقشة
- discussion
- محاورة
- مقابسة
الكريم
أماكنهم
الخ

يختلف الهدف بين تحقيق

اليقين = يحققه البرهان: وهو أعلى درجات الحجاج

الإقناع

الإقناع

الاستمالة والتلاعب بالمشاعر

الخلاصة:

نشأ التفكير الحجاجي الإسلامي نشأة أصيلة، نابعة من القرآن، ومن خصوصيات الدين الإسلامي الحنيف، في خطابه للناس على قدر عقولهم ومختلف عقائدهم، فلم تكن الكتب الفلسفية قد ترجمت إلى اللغة العربية في البيئة الإسلامية، ومع ذلك فإن المشكلات الخلافية الخاصة بالكبيرة والقضاء والقدر، وكيف النعيم، وكيف الجحيم كانت قد أثرت، ونوقشت وأبدى فيها زعماء الفكر الإسلامي آرائهم المختلفة التي تستند في كل منها إلى أدلة عقلية مدعومة بأخرى نقلية، موطّعة على أحسن ما يكون التوظيف، ويذكر بن الأثير "أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية، فهذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس منه، ولا مسلم، ولا أبو تمام، ولا البحتري ولا المتنبي، ولا غيرهم، وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد وهو نفسه ينفي أن يكون قد تأثر بذلك ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه واستهجنه ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا" (154)

بعد نشاط حركة الترجمة، وتأثر عدد كبير من الشخصيات الفاعلة في التاريخ الإسلامي بالفلسفة والمنطق اليونانيين، لم تذب الشخصية العربية تماما ولم تنصهر في هذه الوافدات الأجنبية في "لن نفدت إلى الثقافة الإسلامية تيارات مختلفة اجتمعت فيها وتفاعلت، إلا أنها أنبتت جديدا طبييا... كيفما كانت الأفكار الأجنبية التي تسربت إلى المسلمين استطاعوا أن يخلقوا بيئة عقلية خاصة بهم، وينشئوا لأنفسهم حياة فكرية مستقلة" (155) لأن العرب وإن كانوا أخذوا التنظير، فهذا أمر موجود لدى كلاً لهم.

إن أخذ حضارة من أخرى أمورا علمية وثقافية وفكرية لا ينقص من قدرتها لأنه من سنن الكون والحياة أن تخدم كل حضارة الحضارة الأخرى فحتى وإن استفاد العرب من التفكير الفلسفي اليوناني فلهم الفضل في حماية هذا التراث الإنساني من الضياع، ولولا فلاسفتنا الكبار ما عرف فكر أرسطو وأفلاطون على هذا النحو الرائع من الوضوح والشرح والصدق.

ارتبط باب الحجاج عند العرب بالتفكير فيما هو كائن وما ينبغي بقاؤه وما يجب حذفه، بالنسبة إلى كل طرف من الأطراف المتحاجة في هذا التاريخ العريق.

¹⁵⁴ - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج 1 ص 25 نقلا عن ابن الأثير المثل السائر ص 10.

¹⁵⁵ - محمد عبد الرحمن محمد: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص 352.



الحجاج مفهومه وآلياته وخصائصه اللسانية والعقلية

مفهوم

الحجاج

توطئة:

يستدعي التأثير والإقناع في التّخاطب "آليات فاعلة لتحقيقه ولذا نجد الحجاج ميزة من مميّزات هذا التّخاطب بمواقفه المتعدّدة وأشكاله المتنوّعة بين الشّفويّة والكتابيّة، لذا يعدّ ركيزة النّصوص الموجهة المتضمّنة للمقصديّة والنّقاش والنّقذ والتي منها النّصوص القرآنيّة والفلسفيّة والفقهية والأدبيّة..." (156)

تعود دراسة النّص الحجاجي إلى أزمنة بعيدة ابتداء من مؤلّفات أرسطو في الخطابة وانتهاء إلى أعمال كبار المفكرين "كبير لمان" و "مايير" و ديكر و التي أحاطت بكلّ ما يمكن أن يطرأ على هذا النّص من خلال عدّة نظريّات سبق ذكرها.

والحجاج الذي نتناوله بالدراسة يتمثّل في معرفة ما "تشمل عليه اللّغات البشريّة عامة واللّغة العربيّة خاصة من وسائل لغويّة ومن إمكانيّات صرفيّة ومعجميّة وتركيبية ودلاليّة يوظّفها المتكلّم لتحقيق أهدافه وغايته الحجاجيّة والإقناعيّة" (157)

1- الحجاج:

أ- الحجاج لغة: تجمع المعاجم اللغوية الأساسية في تعريفها للحجاج على ما جاء في لسان العرب لـ "ابن منظور" "يقال حاجبته أحاجه حجاجاً حتى حاجبته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها [...] و الحجّة البرهان و قيل الحجّة ما دافع به الخصم وقال الأزهرى الحجّة و الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة وهو رجل محجاج أي جدل، وحجّه يحجّه حجاً: غلبه على حجّته، وفي الحديث فحجّ آدم موسى أي غلبه بالحجّة»⁽¹⁵⁸⁾ ويقابل هذه اللفظة في الفرنسية لفظة Argumentation والتي تدلّ على معاني متقاربة أبرزها حسب قاموس "روبير" Petit robert - القيام باستعمال الحجج

- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة⁽¹⁵⁹⁾

«أما في الانجليزية فشير لفظ « Argue » إلى وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة كلّ منهما إقناع الآخر بوجهة نظره، بتقديم الأسباب أو العلل « Reasons » التي تكون الحجّة « Argument » مع أو ضدّ فكرة أو رأي أو سلوك ما »⁽¹⁶⁰⁾

ب- الحجاج اصطلاحاً: هو مجال غني من مجالات التّدأوليّة "يشترك مع العديد من العلوم الأخرى يعدّ ضمن الحقل التّدأولي، لكنّه انبثق من حقل المنطق و البلاغة الفلسفيّة⁽¹⁶¹⁾ يرتبط مفهومه بالفعل، وهو بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائماً⁽¹⁶²⁾ يقوم في مفهومه على صناعة الجدل والخطابة، بل إن من الدّارسين حديثاً من عدّ خطاباً جديدة لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة⁽¹⁶³⁾ ولتوضيح مفهوم الحجاج argumentation ينبغي مقارنته بمفهوم البرهنة Démonstration أو الاستدلال المنطقي "فالخطاب الطبيعي ليس خطاباً

¹⁵⁸ - ابن منظور: لسان العرب، مادة (ح ج ج) ج ص 223.

¹⁵⁹ - petit robert dictionnaire de la langue française p 99

¹⁶⁰ - Longman dictionary OF contemporary English p 104

¹⁶¹ - محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج و تطوره في البلاغة المعاصرة ص 58

¹⁶² - المرجع نفسه ص 57

¹⁶³ - عبد الله صوله: الحجاج في القرآن ص 36/1

ت-برهاني بالمعنى الدقيق للكلمة فهو لا يمدّ براهين وأدلة منطق ولا يتبع مبادئ الاستنتاج المنطقي⁽¹⁶⁴⁾

ويقدم أبو بكر العزاوي المثال التالي ليبيّن الفرق بين البرهنة و الحجاج:

1- كل اللغويين علماء

زيد لغويّ

إذن زيد عالم

2- انخفض ميزان الحرارة

إذن سينزل المطر⁽¹⁶⁵⁾

يتعلّق الأمر في المثال الأول ببرهنة أو بقياس منطقيّ (Syllogisme)، أمّا في المثال الثاني فإنه لا يعدّ وحاجاً أو استدلالاً طبيعياً غير برهانيّ واستنتاج أنّ زيدا عالم، في المثال الأول حتميّ وضروريّ لأسباب منطقيّة أما استنتاج نزول المطر في المثال الآخر يقوم على معرفة العالم، وعلى معنى الشّطر الأول من الجملة وهو استنتاج احتماليّ .

- إنّ الحجاج هو « تقديم الحجج والأدلة المؤدّية إلى نتيجة معيّنة وهو يتمثّل في انجاز تسلسلات استنتاجيّة داخل الخطاب »⁽¹⁶⁶⁾ وبعبارة أخرى يتمثّل في انجاز متواليّات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللّغويّة وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها ...⁽¹⁶⁷⁾

¹⁶⁴ - O Ducrot: dire et ne pas dire p 286

¹⁶⁵ - أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 20

¹⁶⁶ - حبيب أعراب: الحجاج و الاستبدال الحجاجي، ص 97

¹⁶⁷ - نعمان بوقره: مباحث في اللسانيات، ص 109

إنّ كون اللغة "لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محدّدة، بواسطة الوقائع les faits المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محدّدة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال فقط، وبواسطة المواد اللغوية التي تمّ توظيفها وتشغيلها" (168) وحتى يتّضح مفهوم

الحجاج أكثر وجب التفريق بين الاستدلال raisonnement

والحجاج Argumentation "لأنهما ينتميان إلى نظامين جدّ مختلفين نظام نسميه "المنطق" ونظام الخطاب" (169) فالأقوال التي يتّكون منها استدلال ما مستقلة بعضها عن بعض، يعني أن كلّ قول منها يعبر عن قضية ما أي يصف حالة ما أوضعا باعتباره وضعا واقعيا أو متخيلا، ولهذا "فإنّ تسلسل الأقوال في الاستبدال ليس مؤسّسا على الأقوال نفسها، ولكنه مؤسّس على القضايا المتضمّنة فيها، أي على ما نقوله أو نفترضه بشأن العالم" (170) أمّا الحجاج "فهو مؤسّس على بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب" (171)

والأمثلة التالية توضّح ذلك :

- 1- أنا جائع إذن أنا بحاجة إلى الطّعام
- 2- الجوّ بارد لنشغل المدفأة.
- 3- الساعة تشير إلى الواحدة لنسرع.
- 4- عليك أن تصبر ليقوى إيمانك.

هذه الأمثلة تتكون من حجج ونتائج، والحجة تمّ تقديمها لتؤدي إلى نتيجة معيّنة، فالجوع مثلا في الجملة الأولى يستدعي الأكل، فالجوع دليل وحجة على أن الشخص المعني بالأمر عليه أن يتناول بعض الأغذية ليسكت جوعه. وكذلك في المثال الثاني فبرودة الجوّ تدعو إلى تشغيل المدفأة، فالمتكلم يقدّم الحجج والأدلة ليصل إلى النتيجة المقصودة أو التي يبغي الوصول إليها "والحجة قد ترد على شكل قول أو فقرة أو نص، أو قد تكون مشهدا طبيعيا أو

168- أبو بكر العزاوي: اللغة و الحجاج ص 22

169- حبيب أعراب: الحجاج و الاستدلال الحجاجي ص 103

170 - Ducrot: les échelles argumentatives p11-10

171- أبو بكر العزاوي: اللغة و الحجاج، ص 23

سلوكا غير لفظي إلى غير ذلك (...) والحجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق. والشئ نفسه بالنسبة للنتيجة والرباط لحاجي الذي يربط بينهما ... " (172)

ونوضح ذلك بالمثل التالي :

- أنا جائع، إذن أنا بحاجة إلى الطعام

- أنا جائع، أنا بحاجة إلى الطعام .

- أنا جائع

- أنا بحاجة إلى الطعام

نلاحظ أنه تمّ التصريح بالحجة أو الرباط والنتيجة ففي المثال الأول:

[أنا جائع إذن أنا بحاجة إلى الطعام]

حجة رابط نتيجة

وفي المثال الثاني صرّح بالحجة والنتيجة وأضرر الرباط

[أنا جائع ، أنا بحاجة إلى الطعام]

حجة نتيجة

أما المثال الثالث فلم يصرّح إلا بالحجة والنتيجة مضمرة تستخلص من السياق:

[أنا جائع]

حجة

ونجد عكس ذلك في المثال الرابع حيث ذكرت النتيجة وأضررت الحجة:

[أنا بحاجة إلى الطعام]

نتيجة

- سمات الحجج اللغوية :

يذكر العزاوي أن الحجج اللغوية تنقسم بعدة سمات ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر⁽¹⁷³⁾

أ- **سياقية:** فالعنصر الدلالي الذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي إلى عنصر دلالي آخر فإن السياق هو الذي يصيرره حجة، وهو الذي يمنحه طبيعته الحجاجية، ثم إن العبارة الواحدة قد تكون حجة أو نتيجة، أو قد تكون غير ذلك بحسب السياق.

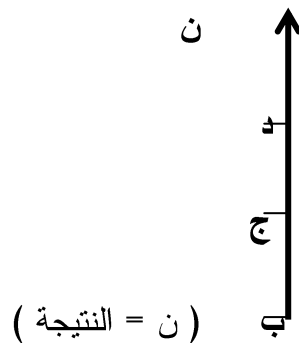
ب- **نسبية:** لكل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقدم خصمه حجة أقوى وبعبارة أخرى هناك الحجج القوية والحجج الضعيفة.

ج- **قابلة للإبطال:** الحجاج اللغوي نسبي وتدرجي وسياقي بخلاف لبرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي.

أما العلاقة التي تربط الحجة والنتيجة تدعى "العلاقة الحجاجية" وهي تختلف بشكل جذري عن علاقة الاستلزام أو الاستنتاج المنطقي ويمكن أن نرمز لها كالتالي : ح --- ن

3- السلم الحجاجي:

هو علاقة ترتيبية للحجج نبينه بالرسم الموالي⁽¹⁷⁴⁾



"ب، ج، د" حجج وأدلة تخدم النتيجة "ن"

1- أبو بكر العزاوي : اللغة والحجاج ، ص 25 .
¹⁷⁴ - طه عبد الرحمان ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص 293 .

4- المبادئ الحجاجية:

إنّ سلامة العملية الحجاجية مرهونة "برابط يضمن الربط بين الحجة والنتيجة وهو ما يعرف بالمبادئ الحجاجية (les topos) وهي تقابل مسلّمات الاستنتاج في المنطق الصوري أو الرياضي" (175) ولها خصائص عديدة نذكر منها ما يلي : (176)

أ- أنها مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة.

ب- العمومية: فهي تصلح لعدد كبير من السياقات المختلفة والمتنوعة

ج- التدرجية : تقيم علاقة بين محمولين تدرجيين أو بين سلميّن حجاجيين .

د- النسبية: فالإلى جانب السياقات التي يتمّ فيها تشغيل مبدأ حجاجي ما ،هناك إمكان إبطاله ورفض تطبيقه باعتباره غير وارد وغير ملائم للسياق المقصود أو يتمّ إبطاله باعتماد مبدأ حجاجي آخر مناقض له .

وبالرجوع إلى المثال الأول:

[أنا جائع إذن أنا بحاجة إلى الطعام]

نقول أن المبدأ topos الحجاجي الموظف في الجملة هو :

- بقدر جوع الإنسان تكون حاجته إلى الطعام

- كلما كان الإنسان جائعا، كان بحاجة إلى الطعام .

فالمبادئ الحجاجية هي: "مجموعة من المسلّمات و الأفكار والمعتقدات المشتركة

بين أفراد مجموعة لغوية معينة، والكلّ يسلم بصدقها وصحتها" (177)

175- طه عبد الرحمان : أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، ص 171 .

176- أبو بكر العزاوي : اللغة و الحجاج ، ص 38 .

177- طه عبد الرحمان : أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، ص 176 .

فالكلّ يعلم أنّ الجوع يسكت بأكل الطّعام، وأن الصدّق والكرم والأمانة من الأخلاق التي يحببها المجتمع.

إذا كانت المبادئ الحجاجيّة: "ترتبط بالإيديولوجيّات الجماعيّة فإنّه من الممكن أن ينطلق استدلالان من نفس المقدمات وأن يعتمد نفس الروابط والعوامل، ومع ذلك يصلان إلى نتائج مختلفة (...) لكن إلى جانب هذه المبادئ المحليّة *topos locaux* المرتبطة بإيديولوجيات الأفراد داخل المجموعة البشريّة الواحدة، هناك مبادئ أهم وهي مشتركة بين جميع أفراد المجموعة اللّغويّة، ومؤشّر لها داخل اللّغة ... " (178) .

وهذا الجانب سنلمسه بوضوح عند تحليلنا لنص المدونة.



توطئة:

إذا كانت اللغة وسيلة تواصل بين البشر، فإنها كذلك أداة لنقل المعنى أو النتيجة في كلّ قياس منطقيّ، وهي في الحجاج وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استمالتهم، وإقناعهم بمصداقية الدّعى المعبر عنها فما هي الآليات اللسانية التي بواسطتها تصل إلى الغاية المنشودة .

وكيف يحلّ اللفظ المحدّد مكانا معينا ليقود إلى غاية ما، ويعتمد تركيبا دون آخر ليقنع سامعيه بأمر ذي علاقة وطيدة بالخطاب في كليّته .

إنّ النصّ الحجاجي يقوم على الاختيار الدقيق والواعي لدقائق الخطاب كالحرص على الانتقاء الجيد للألفاظ ليبلغ مقاصده بيّسر وفعاليّة بالإضافة إلى قوة السبك بين التراكيب وما يلزمها من أدوات ترسخ المعنى وتقويّه، دون أن نهمل أنواع الصّيغ التي من شأنها أن تحوّل أبنية الكلمات إلى رافد إقناعي هام مع مراعاة الوسائل البلاغية التي تمثّل عامل مهمّا يرفد عملية الحجاج و ينمي قدرة الإقناع .

سنتعرف على الآليات اللسانية التي من شأنها أن تخدم النصّ الحجاجي .

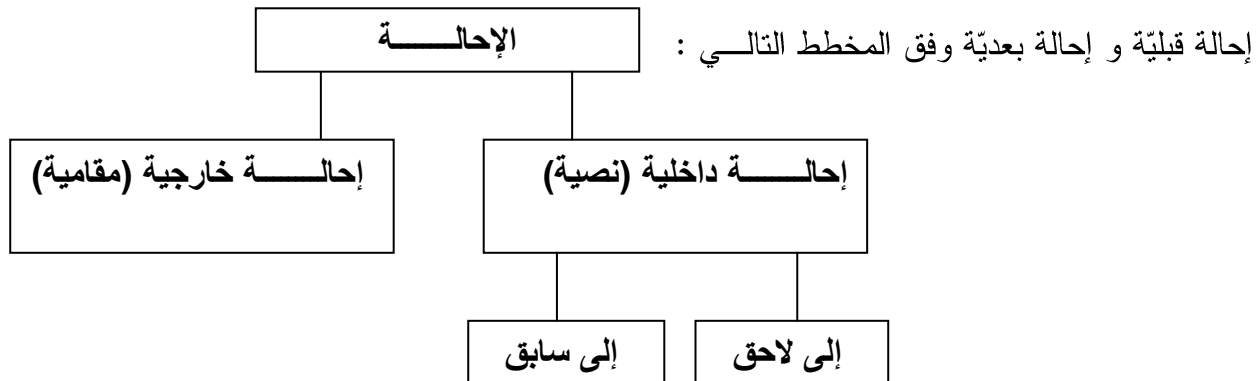
1- الإحالة la référence

هذا النوع قائم على تحقيق "الوصل بين البني النصية المتباعدة داخل النص الواحد، مما يجعل من مهام الربط بهذا النوع من الأدوات تحقيق الانسجام الدلالي بين البني الصغرى للخطاب⁽¹⁷⁹⁾ وأما ضمير الإشارة فتتزل قيمته الإحالية في تحقيق الترابط بين أجزاء الخطاب المتباعدة، عبر تسلسل محكم يحيل إلى مرجع واحد وثابت يمثل موضوع الخطاب⁽¹⁸⁰⁾.

والإحالة عنصر ضروري "لأنها تعبّر عن العلاقة بين العبارات والكلمات والأحداث وحتىّ المواقف فهي واسعة، من صورها المترادفات والألفاظ الشارحة، والكنائيات والزمن... وعنصر الإحالة لا يملك في اللغة دلالة مستقلة وإنما يتضمّنّها من خلال عودته إلى عنصر نصي مذكور في الخطاب⁽¹⁸¹⁾ ونجد الباحثين هاليداي وحسن رقية يجعلانها "من خصائص اللغة الطّبيعية، فالأدوات المحيلة لا تكفي بذاتها من حيث التّأويل بل لابدّ من العودة إلى ما يشير إليه من أجل تأويلها، فهي ذات طبيعة معنويّة توجب تطابق السمات الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه وهي: الضّمائر، أسماء الإشارة وأدوات المقارنة⁽¹⁸²⁾.

أما ديبوجراند فيجعلها: "العلاقة بين العبارات من جهة، وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات"⁽¹⁸³⁾.

وهذا المفهوم يقودنا إلى أن هناك أنواعا للإحالة فمنها النصية و المقاميّة و تنفرع الأولى إلى



¹⁷⁹ - نعمان بوقره ، تفاعل البنية و الدلالة في فلسفة الثعبان المقدس ، ص 04 .

¹⁸⁰ - المرجع نفسه ، ص 04 .

¹⁸¹ - نعمان بوقره: مباحث في اللسانيات النصية ، ص 50 .

¹⁸² - محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص 72 .

¹⁸³ - روبرت دي بوجران : النص والخطاب والإجراء ترجمة تمام حسان ، ص 174 .

أ- الإحالة النصية (داخل النص) Endaufera وتنقسم إلى قسمين :

- الإحالة إلى سابق (قبلية) Anaphara فهنا الضمير يأتي بعد مرجعه في النص.
- الإحالة إلى لاحق (بعدية) Cataphara الضمير يأتي فيها قبل مرجعه في النص.
- ب- الإحالة الخارجية (مقامية) Exophara: الضمير يأتي فيها ليدلّ على أمر غير مذكور في النص مطلقا يعرف من السياق⁽¹⁸⁴⁾

1.1- وسائل الاتساق الإحالية :

- أ- الضمائر : هي نوعان: الضمائر الوجودية مثل : أنا ، أنت ، نحن ، هو ، هم ، هي
- الضمائر الملكية : مثل كتابي - كتابك - كتابه - كتابنا⁽¹⁸⁵⁾
- ب- أسماء الإشارة : الوسيلة الثانية من وسائل الاتساق الداخلية وهي إما تصنف حسب:
 - الظرفية : الزمان (الآن، غدا...) والمكان (هنا، هناك ...) أو الحياد أو الانتقاء (هذا، هؤلاء) أو حسب البعد (ذلك، هناك...) والقريب (هذا، هؤلاء) وأسماء الإشارة تقوم بالربط القبلي والبعدي وفي الغالب تحيل قبلها فتسهم في الاتساق.
- ج- المقارنة: و تنقسم إلى⁽¹⁸⁶⁾:
 - عامة يتفرع منها:

- التّطابق (نستعمل فيه عناصر مثل Same)
- التشابه (نستعمل فيه عناصر مثل Similair)
- الاختلاف (نستعمل فيه عناصر مثل Other - Otherurise)
- خاصة تتفرع إلى: كمية (تتم بعناصر مثل Mare)
- وكيفية (أجمل من، جميل من، جميل مثل)

¹⁸⁴ - روبرت دي بوجراند: النص والخطاب وإجراء، ترجمة تمام حسان، ص 301.

¹⁸⁵ - محمد الخطابي: لسانيات النص مدخل إلى الخطاب ص 86.

¹⁸⁶ - المرجع نفسه، ص 19.

2- دراسة الازدواج (التوازن) :

عني العرب بالمزدوج في صياغة أشعارهم حرصا منهم على الإيقاع الذي يطبع به القصيدة ويرى أرسطو أن: شكل المقالة ينبغي أن يكون غير ذي وزن، ولا عدد فإن ذلك النحو غير مقنع لأنه يظن أنه مختلف أو يراد به التعجب... ويضيف: "قأما الاسم اللاموزون أي السخيف⁽¹⁸⁷⁾ فإنه لا متناه... فقد ينبغي لذلك أن يكون للكلام نبرات (أي إيقاع) وأما وزن فلا..."⁽¹⁸⁸⁾

فلكل أمة اهتمام خاص بعنصر على حساب آخر "فالمنطلق الأول عند اليونان، الاهتمام بالحجة والشعر بجماله الأول عند العرب، وبالتالي ما يفرضه من احترام للوزن، و تقيد بخصائص لغوية... وكل ما يحدثه من عجب يعتبر عندنا انتصارا ونجاحا كبيرين للقاتل، وهذا رفضه أرسطو، لكن جعل له موضوعا خاصا، ليس في هذا المقام ويفضل أرسطو العبارة المقسمة على تلك الطويلة غير المنتهية فحسبه "الكل يسرون إذا رأوا النهاية"⁽¹⁸⁹⁾

ومن أكبر المصطلحات الدالة في بلاغتنا على تقسيمات العبارة إلى أجزاء بينها وزن كامل أو ناقص الازدواج⁽¹⁹⁰⁾ الذي له حضور حتى في النثر، فهو يحقق أغراضا جمالية وتأثيرية، بحكم أنه بنية إيقاعية جوهريّة في الشعر وكذلك النثر وكما قيل في التكرار أنه مشروط، فذلك الازدواج فليحقق الغاية ينبغي تجنب التكلف بكثرة الجناس والسجع... وغيرهما من المحسنات اللفظية بطريقة معوّقة للإقناع وقد نال اهتمام الدارسين القدامى، فأبو هلال العسكري يقول: "لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ولا تكاد تجد لبلّغ كلاما يخلو من الازدواج"⁽¹⁹¹⁾

ومن جملة مميّزات الازدواج :

¹⁸⁷ - السخيف أي الذي بدون إيقاع .
¹⁸⁸ - أرسطو ، الخطابة ، ترجمة عبد الرحمان بدوي ، ص 205 .
¹⁸⁹ - العمري : في بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص 112 .
¹⁹⁰ - المزدوج في علم العروض هو الزحاف المركب ، أي الزحاف يدخل على سببين في تفعيله واحدة كما أنه من أقسام الشعر ، وهو ما أتى على قافيتين إلى آخر القصيدة .
¹⁹¹ - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 113 .

- أ- أنه تكوينات كلامية متوازنة الأجزاء في عدد وحداتها وهيأتها، وترتيبها، وفواصلها .
- ب- كما يقع في تلك الاعتبار الأربعة السابقة قد يقع أيضا رغم الاختلافات بين الأجزاء في أحد هذه الاعتبار أو بعضها.
- ج- إذا لم يقع بين الأجزاء في الطول، فالأفضل أن يكون الجزء الأخير هو الأطول⁽¹⁹²⁾
- د- يبين القلقشندي أهمية مراعاة الوزن بقوله: "الأولى أن يراعي الوزن في جميع الكلمات أو في أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزنا ويسمى التوازن، وهو أحسنها وأعلاها كالأية: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾"⁽¹⁹³⁾ توازن الأجزاء توازنا كلياً أجمل وجوه الازدواج وقد جمع محمد العبد أنواع التوازن في ثمانية أنواع تفصيلية دقيقة هي⁽¹⁹⁴⁾
- النوع الأول: التوازن بين الأجزاء بالاتفاق التام في وزن الوحدات، وعددها وهيئة ترتيبها (المرصع).
- النوع الثاني : التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في وزن الوحدات اتفاقا ناقصا والاتفاق في الترتيب والفاصلة (المطرف)
- النوع الثالث: التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في الترتيب، والفاصلة دون زنة الوحدات
- النوع الرابع: التوازن في وزن الوحدات اتفاقا ناقصا، والاتفاق في الفاصلة دون الترتيب.
- النوع الخامس: التوازن بالاتفاق في الفاصلة دون سائر الملامح الأخرى.
- النوع السادس: التوازن بالاتفاق في وزن الوحدات اتفاقا تاماً، وفي الترتيب دون فاصلة.
- النوع السابع: التوازن بالاتفاق الناقص في الوحدات، والاتفاق في الترتيب دون الفاصلة.
- النوع الثامن: التوازن بالاتفاق في ترتيب الوحدات فقط.

¹⁹² - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص 113، 114

¹⁹³ - محمد العبد: النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص 78 .

¹⁹⁴ - المرجع نفسه ص 271-272

يمكن القول إن التوازن بنيّة تركيبية "تربط بين عنصريّهما علاقات دلاليّة منطقيّة، كما أن الازدواج بنيّة تركيبية تربط بين عناصر علاقات سمعيّة⁽¹⁹⁵⁾ من طول، ووزن، وفاصلة تعكس فكرًا معيّنًا.

3- دراسة التكرار:

يستدعي التأكيد والتذكير تكرار الألفاظ التي تخدم الموضوع وفي هذا المجال قال ابن الأثير: "اعلم أن في القرآن مكرّرًا لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئًا منه تكرّر من حيث الظاهر، فأنعم نظرك فيه، فأنظر على سوابقه ولواحقه لتتكشف لك الفائدة منه"⁽¹⁹⁶⁾

تحتل دراسة التكرار⁽¹⁹⁷⁾ باهتمام كبير في الدّراسات اللّسانية النّصيّة الحاليّة، حيث يقوم بوصفه ظاهرة بيانيّة بوظيفة الرّبط على مستوى البنية الظاهرة للنص المؤدّيّة إلى الانسجام (الداخلي) فهو ليس مجرد إعادة لألفاظ وعبارات داخل النص وقد أوضح صبحي إبراهيم الفقيّ العلاقة بين مفاهيم التكرار -اغويا- وظائفها داخل النص -نصيا- والتكرار في النصّ يشتمل على إحالة قبلية أو سابقة (...). ومن معانيه الكرّ وهو ما ضمّ ظلفتيّ الرّحل وجمع بينهما وفي هذا تحقيق للتماسك بين هاتين الظلفتين...⁽¹⁹⁸⁾ والتكرار ظاهرة من ظواهر التماسك النصي اهتم به الأقدمون كثيرا، فها هو الجاحظ يسميه الترداد ويرى أنه مشروط وليس بجائز في كلّ ظرف يقول: "وجعل ابن السّمّاك يوما يتكلّم، وجارية له تسمع كلامه، فلمّا انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: "ما أحسنه لولا أنّك تكثر ترداده، قال: أرّده حتّى يفهمه من لم يفهمه، قالت: "إلى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد ملّه من فهمه" ويقول: "وجملة القول في الترداد أنّه ليس فيه حدّ ينتهي إليه ولا يؤتّى على وصفه، وإنّما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص ... "⁽¹⁹⁹⁾

¹⁹⁵- محمد العبد، النص الحجاجي العربي ص 68 نقلا عن والترونج، الشفاهية و الكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، والفنون، ص 94

¹⁹⁶- ابن الأثير : المثل السائر ، ج3، ص 27 .

¹⁹⁷- جاء في لسان العرب عن مادة كرر " الكرّ الرجوع... وكرّر الشيء و كرّره، أعاده مرة بعد أخرى وكرّرت عليه الحديث: رددته عليه... والكرّ : الرجوع على الشيء ، ومنه التكرار و الكرّة : البعث و تجديد الخلق بعد الفناء ، و الكرّ بالحبل الغليظ : المجلد 05 ، ص 135 ، 136 .

¹⁹⁸- الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية و التطبيق، ج2 ، ص 135 / 136

¹⁹⁹- الجاحظ : البيان و التبيين ، ج 1 ، ص 104 ، 105 .

القول الثاني يشرح الأول حيث أن التكرار يرتبط بالسامع الملتقي وقدره (قد يكون ضروريًا مملًا) كما أن كلام الجاحظ فيه إشارة إلى اللغة الشفاهية ولكن يمكن سحب الحكم على اللغة المكتوبة كما تبدو وظيفة التكرار ممثلة في الإفهام والتوضيح والشرح وهنا نجد ابن الأثير يضيف إلى ما سبق "توكيد الكلام وتشبيده، وتقريراً لمعنى وإثباته" (200) والتكرار قسمان "أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى والآخر في المعنى دون اللفظ" (201) أسالت دراسة التكرار في النصوص العربية خبر كثير من المستشرقين نذكر منهم بربرا جنستون كوتش "التي ترى أن الخطاب الحجاجي العربي يعتمد في الإقناع على الغرض اللغوي للدعائي الحجاجية، بتكريرها وصياغتها، صياغة موازية وإلباسها إيقاعات نغمية متكررة" (202) وهذا أمر يمكن نفيه بالتأكيد، فالعرب لم يعتمدوا هذه الوسيلة فحسب بل أخذوا بكل وسائل الإقناع والحجاج التي ضبطها العلماء حديثاً في ضوء النظريات الحجاجية وإن لم تضبط قديماً ضبطاً دقيقاً تنظيرياً فهذا لا يعني غيابها.

حتى وإن كانت ظاهرة التكرار لغوية، فهذا لا ينفي عنها البعد العقلي والمنطقي في التأثير لتؤكد أهمية علاقة اللغة والحجاج فيها هو أبو هلال العسكري (394هـ) يؤكد على أهمية التكرار ويقرنه بتأكيد الحجة، ويجعله مدًا للقول، ومن ثم يربط بين مدّ القول، وبلوغه الشفاء والإقناع (203) وتجدر الإشارة أنه ليس أي تكرار يهدف دائماً إلى الإقناع وهنا نخصّ تكرار "الشكل" فقد يكون في حالات يطول فيها الفصل في الكلام حتى يفتقر أوله إلى تمام لا يفهم إلا به، كما قال ابن الأثير، أو لأنّ السبّك والتركيب يقتضيان ذلك.

ويقسم العلماء -حالياً- ببغية التفصيل التكرار إلى أنواع عدّة، بعضها يهتم بالشكل والآخر بالمضمون ونأخذ بالتقسيم الذي أورده محمد العبد في عمله المذكور.

200- الفقي : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، ص 19 .

201- ابن الأثير : المثل السائر ، ج 2 ، ص 146 .

202- محمد العيد: النص الحجاجي العربي ، دراسة في وسائل الإقناع ، ص 192 .

203- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين تحقيق على محمد بجاوي ،ومحمد أبي الفضل إبراهيم ص 156

1.3 تكرار الشكل: وفيه أنواع ثلاثة

أ- تكرار المكرر بذاته.

ب- تكرار في هيئة عنصرين من مادة واحدة.

ج- تكرار بتغيير التركيب .

2.3 تكرار المضمون :

أ- تكرار مفردتين متواليتين أو أكثر في جملة أو فقرة أو نص .

ب- تكرار المضمون المبني على مفردتين في جملتين .

ج- تكرار مفردتين في ثنائية .

د- تكرار المضمون على مستوى الجمل والعبارات .

4- عاملية أدوات التوكيد الحجاجية:

يندرج أسلوب التوكيد عموماً ضمن "سياق استدلالي يمكن اعتباره حجة تقود إلى نتيجة يريد المتكلم من المخاطب التسليم بها وسائل التوكيد الداخلة على الجملة الاسمية، والجملة الفعلية كثيرة"⁽²⁰⁴⁾ إن قولنا "عبد الله قائم" يمثل جملة قائمة بذاتها (...) فقد توفر فيها شرطاً للإفادة والاستقلال وحصل منها معنى: "قيام عبد الله" فإذا أدخلنا عليها الزيادة، بتوكيدها فقلاًنا "إنَّ عبد الله قائم" أو "نَّ عبد الله القائم" أو "إنَّما عبد الله قائم" كان ذلك التوكيد مفيداً من زاوية بلاغية ودلالية (...) إنَّ قولنا "عبد الله قائم" وسائر الأقوال السابقة أقوال يصحُّ أن نقول عن كلِّ منها من زاوية شكلية محضة، إنَّها جمل لكنَّها من الناحية الدلالية مختلف بعضها عن بعض فجملة "عبد الله قائم" هي في سلم الدلالات التي تفيدها شبكة الجمل تقع في الدرجة الصفر من الدلالة⁽²⁰⁵⁾ في حين تقع جملة "إنَّ عبد الله قائم" في الدرجة الأولى من السلم وتقع

²⁰⁴ - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ص 237 .

²⁰⁵ - من القدماء من يذهب إلى الجملة الاسمية المجردة من التوكيد تمثل في حد ذاتها درجة أولى من الدلالة دونها في الدرجة الصفر لجملة الفعلية نفس المرجع ، ص 239 .

جملة "إنَّ عبد الله لقائم" وجملة "إنَّمَا عبد الله قائم" في الدَّرَجَة الثَّانِيَّةُ إِنَّ هذا المقياس الدَّلالي، هو المقياس الذي عذب عن ذهن يعقوب الكندي (ت 252هـ) حيث جاء أبا العباس يقول "إنِّي لأجد في كلام العرب حشوا (...) يقولون: "عبد الله قائم" ثم يقولون "إنَّ عبد الله قائم" ثم يقولون "إنَّ عبد الله لقائم" فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، وهو المقياس الدَّلالي نفسه الذي استخدمه أبو العباس في الرد عليه بالقول: "بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم "عبد الله قائم أخبر عن قيامه، وقولهم "إنَّ عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل وقولهم "إنَّ عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعنى (206)

الجملة هي نفسها في كل الحالات من الناحية الاسنادية	يزداد معنى الجملة بزيادة اللفظ في كل مرة
1- عبد الله قائم	- قيام عبد الله
2- (إن) عبد الله قائم	- قام عبد الله + دفع الشك
3- (إن) عبد الله (ل) قائم	- قيام عبد الله + دفع الإنكار
4- (والله) (إن) عبد الله (ل) قائم	- قيام عبد الله + تأكيد دفع الإنكار

ليعتبر دخول إنَّ على الجملة الاسميّة تكرير لهذه الجملة وإذا دخلت اللّام على الخبر صارت ثلاث جمل (207) وضروب التّوكيد كثيرة نذكر منها:

1.4 القسم: إذا كان للتأكيد فاعلية حجاجية فان القسم يدخل في نفس

المضمار يقول الزركشي في البرهان "ولمّا كانوا قد عدّوا القسم مما يجيء به المتكلم عند

²⁰⁶ - عبد الله صوله: الحجاج في القرآن ، ص 240 .
²⁰⁷ - الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج 2 ، ص 408 .

الحاجة إلى تأكيد كلامه بأكثر من "إن" مع لام الابتداء (...) فإدخال جملة القسم على "إن" مع "اللام" لهو بمثابة أن تكرر جملة الخبر الابتدائي أربع مرّات أو أكثر⁽²⁰⁸⁾

2.4 الصّفة: تعتبر ضرباً من التّوكيد، يقول السّكاكي "إنّ قصر الصّفة على الموصوف ليس إلّا تأكيداً للحكم على تأكيد"⁽²⁰⁹⁾ ويبين ابن يعيش أن الصّفة قد تجيء للتأكيد فيقول "تجيء الصّفة للتأكيد نحو قولهم "أمسى الدّابر وأمسى لا يكون إلّا دابراً (...) ومعنى التّأكيد هنا مدلول الصّفة استفيد ممّا في الموصوف فصار في الصّفة كالتّكرار"⁽²¹⁰⁾.

وعموماً وسائل التّوكيد كثيرة كالمفعول المطلق إذ يأتي المصدر مؤكداً لعامله سواء كان عامله هذا مصدراً مثله أو فعلاً، أو صفة... وكذلك يعتبر العطف من المؤكّدات والعطف المقصود هنا ما يقع بواسطة الواو، فمن الكلمات والمركبات المعطوف بعضها على بعض ما يكرر بعضه بعضاً من جهة المعنى بشكل يقترب من الترادف وفي كتاب "إعراب القرآن" للزجاج (ت 326 هـ) باب خاص بعنوان "باب ما جاء في التنزيل معطوفاً وليس المعطوف مغايراً للمعطوف عليه وإنّما هو أو بعضه"⁽²¹¹⁾

وعليه يمكن القول أن ضروب التّوكيد على الجملة تزوّد بها بإشارات حجاجية marqueurs argumentatifs تستدعي الضمّن وتفتح عليه، وتؤمّي إلى النتيجة وتدفع إلى استنتاجها.

5- عاملية أدوات القصر والاستثناء الحجاجية:

1.5 عاملية "إنّما" + ضمير الفصل " + " ال الموصولية:

يندرج أسلوب القصر ضمن سياق استدلال، يمكن اعتباره حجة تقود إلى نتيجة يريد المتكلّم من المخاطب التّسليم بها و يقتضي استعمال الأسلوب وجود سياق تواصل، وقصد من المتكلّم إلى الحجاج والإقناع. تعتبر "إنّما" هي أمّ طرق القصر وهي بعبارة النّحاة القدامى

2- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 409 .

3- السكاكي : مفتاح العلوم ، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق نعيم زرزور ، ص 291 .

4- ابن يعيش: شرح المفصل ، ج 8 ، ص 130 .

²¹¹ - أبو إسحاق الزجاج: إعراب القرآن، تحقيق ودراسة إبراهيم الأبياري، ج3 ص 88، 89.

متمحّضة له وحكر عليه خصّها الجرجاني في الدلائل بالذّكر أكثر من مرّة إذ يقول "اعلم أنّها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره فإذا قلت إنّما جاءني زيد، عقل منه منك أردت أن تنفي أن يكون الجاني غيره فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك جاءني زيد لا عمر⁽²¹²⁾ ولو أخضعنا هذه الجملة لمقولة التّوجيه في الحجاج مع ديكر ولاحظنا كيف أنّ "إنّما" بإدخالها على الجملة وجّهت الملفوظ نحو نتيجة محدّدة ضيّقة فالجاني كما قال الجرجاني ليس إلّا زيد وهذه هي النّتيجة التي يروم الباث، إيصالها للمتلقّي الذي يتوهم أنّ الذي جاء، قد يكون عمر، أو صالح وهذا ما قصده السّكاكي عندما قال "وكذلك قدر" إنّما هذا لك "تقدير" "ما هذا إلّا لك" تقدير "ما لك إلّا هذا" ⁽²¹³⁾ فقوله تعالى ﴿إنّما نحن مصلحون﴾ ⁽²¹⁴⁾ وهذا الكلام على لسان إسرائيل له نتيجة واحدة لا ثانية لها من جهة البنية اللغويّة، وهي أنّنا لسنا مفسدين. ومما قاله ابن عاشور في تفسيره " أفادت إنّما قصر الموصوف على الصّفة، ردّ على قول من قال لهم لا تفسدوا (...) فردّوا عليهم بقصر القلب وليس هو قصرا حقيقيا لأنّ قصر الموصوف على الصّفة لا يكون حقيقيا (...) واختير في كلامهم حرف "إنّما" لأنّه يخاطب به مخاطبا مصرّا على الخطأ، كما في دلائل الإعجاز، وجعلت جملة القصر اسميّة لتفيد أنّهم جعلوا اتّصافهم بالإصلاح أمرا ثابتا دائما إذ من خصوصيات الجملة الاسميّة إفادة الدّوام ⁽²¹⁵⁾

"فإنّما" بدخولها على الجملة "نحن مصلحون" جعلت الجملة جملتين هما:

- 1- نحن مصلحون .
 - 2- لسنا مفسدين كما تدّعون .
- وهو ما يجعل الكلام ذا طابع حجاجي واضح في حين أنّ غياب " إنّما" يجعله لمجرد الإبلاغ والإعلام وتكتفي اللغة بوظيفتها الإعلاميّة fonction informative لا تتعدّها إلى الحجاجيّة L'argumentativité غير أن مفهوم المخالفة النّاجم عن بنية القصر إذ تفيد "إنّما" على المشهور يفيد كذلك ضمير الفصل نحو قولنا:

²¹² - الجرجاني: دلائل الإعجاز، تصحيح محمد رشيد ص 258.

²¹³ - أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، ص 300.

²¹⁴ - سورة البقرة الآية 11.

²¹⁵ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج 1 ص 283.

- علي هو الذكي .

- الله هو المستعان .

فالمفهوم الذي يقود إليه الملفوظ ، في كلا المثالين وقد اشتمل على ضمير الفصل "هو" [غير علي ليس ذكيا] و [لا يستعان بغير الله] على أنه لو جاء القولان عاريين من العامل الحجاجي هو في قولنا على سبيل المثال:

• علي ذكي

• الله مستعان .

لتعددت المفاهيم الناجمة عن كل منهما، ولفقد الملفوظ بذلك بعده الحجاجي على أن مفهوم المخالفة في كلا المثالين يمكن أن تؤدي إليه "ال الموصولة " وهي كما يقول السيوطي: "بمعنى الذي إذا اتصلت باسم الفاعل أو اسم المفعول " (216)

2.5 عاملية إن/ ما / ليس ... إلّا (الحجاجية) :

هذا ضرب ثان يحقق العاملية الحجاجية وهو ضرب خاص، لأنه يتركب من صرْفَيْن الأول يفيد النفي و الثاني يفيد الاستثناء ، ولقد أجمع النحاة وأهل المعاني على أن هذا الضرب من العوامل يفيد معنى "إنّما" وقد صرح بذلك الجرجاني في الدلائل عندما اعتبر أن جملة [إنّما هو درهم] مساوية لجملة [إن هو إلّا درهم] (217)

فالملفوظ الذي يقوم على عاملين (إن... إلّا) والملفوظ الذي لا يحتوي على هذين العاملين غير متساويين لذلك قال الجرجاني "وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو ما هذا إلّا كذا، وإن هو إلّا كذا فيكون لأمر ينكره المخاطب ويشكّ فيه، فإذا رأيت شخصا من بعيد فقلت ما هو إلّا زيد لم تقله إلّا وصاحبك يتوهم أنه ليس زيدا وأنه إنسان آخر ويجد في الإنكار أن يكون زيدا " (218).

²¹⁶ - جلال الدين السيوطي : الأشباه والنظائر في النحو ، ج 2 ، ص 58 .

²¹⁷ - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، تصحيح محمد رشيد رضا ، ص 256 .

²¹⁸ - المرجع نفسه ، ص 257 ، 256 .

إنّ دخول عوامل من قبيل (ما ... إلّا) أو (إن هو ... إلّا) أو (ليس ... إلّا) على جملة مثل [زيد كاتب] من شأنها أن تخرجها من الابلاغية أي من مستوى الوصف والإبلاغ إلى الحجاجية حيث تكون العوامل المذكورة موجّهة لبقية الخطاب نحو نتيجة بعينها.

ويمكن القول أن مثل هذه الأساليب التي تحمل طاقة حجاجية موجّهة وكما قال ديكر و انسكومبر "تربط بين الضمني والصريح وتقضي على تعدّد النتائج والاستلزامات (...)" وهو الذي جعل الباحثين ينعّتان اللغة بكونها مؤسسة على الحجاج" (219)

6- عاملية أدوات النفي الحجاجية :

مثّل النفي مبحثا مشتركا بين البلاغيين والنحاة، اعتبره البلاغيون وتحديدًا أهل المعاني شقًا للإثبات في الخبر، فعالجوا علاقته بالإثبات، أما النحاة قد عالجوه من منطلق في الدرس مغاير، ذي أصول بنويّة فاعتنوا به وأحصوا حروفه، ومقولاته وها نحن نستعين بكلا الدرسين، لنبيّن عاملية النفي الحجاجية يحقق به المخاطب وظيفة اللغة الحجاجية المتمثلة في إذعان المتلقّي وتسليمه عبر توجيهه بالملفوظ إلى النتيجة "ن"، ولقد حصرت اللغة العربية في لغتها حروف متمخّضة للنفي من قبيل (لا، لن، ما) يصدق عليها قول أنسكومبر "يوجد في اللغة صرافم، عوامل حجاجية، تشدّ الملفوظ وتبدل أقسام النتائج المرتبطة بالجملة في الملفوظ في بدايته" (220)

وإذا كان النفي في عرف المنطقة "هو العامل الذي يحوّل القضية الصحيحة إلى قضية خاطئة والخاطئة إلى صحيحة عامل أحادي opérateur unaire" (221) فإنّه في الدرس اللغوي غير بعيد عن معناه، ووظيفته في الدرس المنطقي فهذا ابن يعيش يعرف النفي بأنّه

1-la pragmatique intégrée considère que l'argumentation traverse l'ensemble des discours, Massy Roth , l'argumentation dans le discours , page 25

220-« Il y a en langue des morphèmes , opérateurs argumentatifs , qui combinés avec un énoncé modifient la classe des conclusions liée la phrase attachée à Anscombe «énoncé de départ , cette modification est souvent une réduction dynamique du sens et scalarité , page 134 . ,

221 - A. Ben Nasar : logique symbolique et élémentaire , page 25

اكذاب إذ يقول: "اعلم أن النفي إنما يكون على حسب الاتجاه لأنه اكذاب له فينبغي أن يكون على وفق لفظه لا فرق بينهما إلا أن أحدهما نفي الآخر إيجاب" (222)

ولقد خصّص ديكرود نصيب الأسد لعامل النفي، في تحديد وجهة الخطاب الحجاجية معتبرا إياه أدق العوامل في تحديد منزلة الملفوظ من السلم الحجاجي منطلقا من مثالين طالما وقف عندهما وهما:

1- لم يقرأ زيد جميع روايات بلزك (223)

2- قرأ زيد بعض روايات بلزك .

ويعلق ديكرود على المثالين مصرّحا بأطروحته قائلا "إنّ أطروحتنا... أنّ المثال الأوّل موجّه نحو نتيجة سالبة، من صنف أنّ زيد لا يعرف بلزك جيّد في حين أنّ المثال الثاني عكس ذلك، حسب رأيي، إذ أنّه موجّه نحو نتيجة ايجابية من صنف أنّ زيدا يعرف بلزك (224) موجّه نحو نتيجة ايجابية من صنف على تلفظ فهو توجيه على توجيه لذلك بمجرد إدماج عامل النفي والنفي فيما نرى تلفظ على تلفظ فهو توجيه على توجيه لذلك بمجرد إدماج عامل النفي تتحدّد النتيجة "ن" بسرعة ولا يجد المتقبّل حرجا أو كدّ ذهنيّ في إدراك المفهوم، بل إنّ عامل النفي كمفهوم علاوة على وظيفته التوجيهية في الخطاب الحجاجي فإنّ له قيمة مضافة وهي على حدّ عبارة ديكرود " أنّه ضروريّ لوصف البنية العميقة للملفوظ الذي يبدو غير منفيّ " (225) وبهذا يتبيّن الدور الفعّال الذي يلعبه النفي في توجيه الخطاب الوجهة التي يبتغيها المخاطب وجعل المتلقّي يذعن ويسلم بالنتيجة .

222- مرفق الدين ابن يعيش □ شرح المفضل ، 92 ج 8 ، ص 107 .

223-O. Ducrot : Les échelles argumentatives , page 17 , les exemples sont

* Il n'a pas lu tous les romans de Balzac

* Il a lu quelque romans de Balzac

224- المرجع نفسه ص 07

225 - car la nation de négation est nécessaire pour décrire structure métique profonde onde d'énoncés superficilegatifillement non négatifs : les échelles argumentatives p 46-47

7- التقديم والتأخير:

وهو عند لجرجاني على ضربين "تقديم على نيّة التأخير كتقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفاعل، مع اقرار كلا العنصرين على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه، الذي كان فيه كقولك **منطلق زيد وضرب عمرا زيد** "فقد بقيت كلمتا" منطق" و "عمرا" على الحكم الذي كان لهما، قبل التقديم والتأخير، لم يزل عنهما، فالأولى ظلت خبرا مرفوعا دائما والثانية مفعولا به منصوبا دائما، وتقديم لا على نيّة التأخير، ولكن أن تنقل الشئ من حكم إلى حكم و تجعله بابا غير بابيه وإعرابا غير إعرابه، ومثاله ما تصنعه "بزيد" والمنطق نقول مرة: "زيد المنطلق وأخرى: المنطلق زيد" (226) وهذان الضربان من التقديم والتأخير آيلان في الحقيقة إلى واحد معتمد فيهما مقياس واحد هو المقياس النحوي غير أننا نجد في كتب علوم القرآن، مقياسا آخر إلى جانب هذا المقياس وهو المقياس الدلالي كتقديم المعطوف عليه على المعطوف (227) الأبعاد الحجاجية للتقديم والتأخير أمثلتها كثيرة ومتنوعة.

مثال 01 : ﴿ قل الله أعبد مخلصا له ديني ﴾ (228)

مثال 02 : ﴿ إياك نعبد و إياك نستعين ﴾ (229)

نلاحظ تقديم " إياك" في المثال الثاني تعظيما لله، و الاهتمام بذكره مع إفادة اختصاص العبادة والاستعانة بالله تعالى ، و ليصير الكلام حسنا متناسقا جاء تقديم المفعول لإظهار أحييته بالعبادة وأنه سبحانه هو المعبود ولا أحد سواه، فالتقديم لعب دورا حجاجيا بارزا وجه الخطاب الوجهة.

المثال : " زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى و ربي لتبعثن" (230)

ماذا زعم الكافرون؟ ← **الّا يبعثوا** (231)

226- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص 38، 48.

227- عبد الله صوله: الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية ج 1 ص 207.

228- سورة الزمر: الآية 14.

229- الفاتحة الآية 05 .

230- التغابن الآية 64.

231- عبد الله صولي : الحجاج في القرآن ، ص 373 / 01 .

(المعلوم أنهم زعموا شيئاً) ← (مركز الاهتمام)

فماذا قيل لهم ؟ ← لتبعثن

(المعلوم أن شيئاً ما ردّ به عليهم) ← (المعلومة الجديدة)

هذا المثال يبرز طيّ الفاعل و التّركيز على الحدث أيّ أنّ الأهميّة في الكلام انتقلت بواسطة البناء للمجهول من الفاعليّة إلى الحدثيّة (232)

8- الوصل والفصل:

يتم ربط الجمل بأدوات عدّة، ذكر العلماء الغايات منها يقول الجرجاني: "و الفصل يكون إمّا للاتّصال إلى الغايّة أو الانفصال إلى الغايّة والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين" (233) والوصل يتمّ عن طريق أدوات وحروف لغويّة كالواو حيث... الخ وهذه الأدوات لا تقوم بالربط فقط بل تؤدّي وظائف أخرى فالفاء مثلاً تقوم بالربط و التّرتيب في نفس الوقت ويكون "العطف في المفرد والجملة" (234). ففي المفرد يتمّ إشراك الثاني في إعراب وحكم الأول أمّا في الجملة فيكون على ضربين (235).

الأول: أن يكون للمعطوف على الجملة موضع من الإعراب، ويكون حكم المفرد مثل (مررت برجل خلقه حسن وخلقه قبيح).

الثاني: أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى مثل (الله زيد قائم وعمر قاعد الله)

232- عبد السلام عثير : عندما نتواصل نغير ، ص 80 .

233- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 243 .

234- عبد السلام عثير: عندما نتواصل نغير ، ص 81 .

235- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 244 .

فالواو هنا رابطة، غير أنها لا تشترك الثانية في إعراب وحكم الأولى ويكون المغزى من هذا الربط في الغالب الزيادة في الاشتراك والافتتران ويعتبر أيضا الفصل وجه آخر للوصل دن حرف أو أداة وقد أجمله الجرجاني في ثلاثة أضرب بخصوص الجمل وهي: (236)

أولا: جملة لها مع التي قبلها حال الصقة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد "جاعني زيد الظريف".

ثانياً: جملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلا أنه يشاركه في الحكم ويدخل معه في المعنى.

ثالثاً: جملة ليست في جملة الحاليين، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم لا يكون منه في شيء فلا يكون إياه ولا مشاركا له في معنى.

أضحت الآليات اللسانية (كالفصل والوصل، و التقديم والتأخير والتعريف والتكثير، والتأكيد والشرط والاستفهام) تأخذ أبعادا غير التي كانت عليها قديما، فلم يعد التقديم والتأخير مثلا للعناية ولكنه أخذ يلعب وظيفة حاجية توجه المستمع إلى ما يصبو إليه المخاطب. حاولت الدراسات المعاصرة الكشف عن وظيفة هذه الآليات بدراسة مكونات اللغة بطرق جديدة تجاوزت بها البحث عن المعنى إلى افتراض معاني أخرى مرتبطة بسياق مفترض ومرتقب وبسامع ليس المطلوب منه قبول المعنى أو رفضه ولكن بسامع مسؤول ومتسائل في نفس الوقت .

للتقديم والتأخير وظيفة حاجية أقوى إذا دخل عليهما الاستفهام، فالقولان أفعلت وأنت فعلت يختلفان من حيث المعنى ومن حيث الوظيفة التداولية ففي أفعلت كان الاستفهام على الفعل وهو يؤدي معنى الشك في الفعل نفسه وليس الفاعل (237) أما في أنت فعلت فهناك

236- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 243-244

237- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 74

تقرير بالفعل من غير توهم بأنّ الحدث غير موجود بدلالة إن الفعل واقع وهو بذلك قول انجازي يؤدّي معاني جديدة غير الاستفهام ⁽²³⁸⁾ يقول الجرجاني: "وأعلم أن الهمزة فيما ذكرناه أنّت فعلت تقرير بفعل قد كان وإنكار لما كان وتوبيخ لفاعله عليه" ⁽²³⁹⁾ ويأخذ الاستفهام بالهمزة في التقديم معاني أخرى منها ⁽²⁴⁰⁾:

- الإنكار: أنّت قلت الشعر ؟ تنكر على المخاطب قول الشعر.

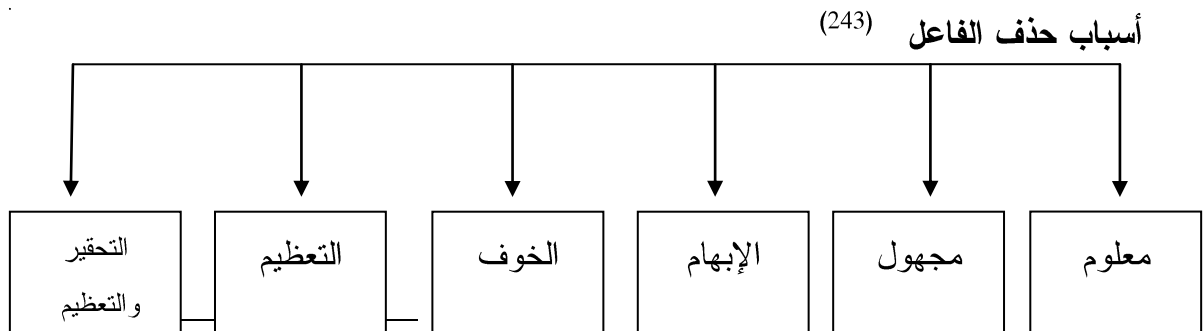
- النفي: أهو قال ذلك ؟ نفي القول على الفعل .

- التسليم بالخبر ومطالبة المستمع بالدليل على خبره (متى كان هذا)

9- الحذف: يكثر الحذف في النصوص المطوّلة ولهذا يلجأ المؤلفون إلى

الحذف ويعتمدون على ما يسمى بالتبعية النحويّة وعليه يمكن تعريف الاختزال بأنّه "حذف كلمة أو أكثر ⁽²⁴¹⁾ فأما حذف كلمة فيكون على سبيل المثال بحذف المبتدأ أو الخبر أو الفاعل أو المفعول وغير ذلك، وأمّا ما زاد على الكلمة فيكون على سبيل حذف جملة القسم وجملة جواب الشرط ⁽²⁴²⁾.

وقد تحدّث محمود سليمان ياقوت، عن أسباب الحذف ولخصّها على النحو التالي:



²³⁸ - المرجع نفسه ص 75

²³⁹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 114

²⁴⁰ - المرجع نفسه ص 118

²⁴¹ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 134

²⁴² - ابن الأثير: المثل السائر، ج2 ، ص 68

²⁴³ - محمود سليمان ياقوت: المبني للمجهول في الدرس النحوي، ص 114

أما عبد الله صوله فيرى أن لأسباب حذف الفاعل "غايات حجاجية" تجمعها غاية كبرى هي التَّبْيِير la focalisation (...) ويفيد من النّاحية الاصطلاحية في علم اللّسان انحصار الكلام في معنى معيّن، بإلقاء الأضواء على العنصر الأساسي فيه باعتباره مدار الكلام في الجملة، فهو يمثّل المعلومة الجديدة فيها⁽²⁴⁴⁾، ومنه يمكن القول أنّا بحذف الفاعل ننقل مركز الاهتمام في الجملة من موقع إلى موقع آخر، وهذا ما ذهب إليه ابن جني حين قال: "أصل وضع المفعول أن يكون فضلة، وبعد الفاعل كضرب زيد عمرا، فإذا عناهم ذكر المفعول قدّموه على الفاعل فقالوا: "ضرب عمرا زيد، فإن ازدادت عنايتهم به قدّموه على الفعل النّاصبة، فقالوا: "عمرا ضرب زيد، فإن تضافت العناية به عدّوه على أنه ربّ الجملة وتجاوزوا به حدّ كونه فضلة، ثم زادوه على هذه الرتبة فقالوا: عمرو ضرب زيد فحذفوا ضميره ولم ينصبوه على ظاهر أمره رغبة به عن صورة الفضلة وتحاميا لنصبه الدّال على كون غيره صاحب الجملة ثم إنهم لم يرضوا له بهذه المنزلة حتّى صاغوا الفعل له وبنوه عل أنّه مخصوص به وألغوا ذكر الفاعل البتّة و أسندوا بعض الأفعال دون الفاعل البتّة⁽²⁴⁵⁾ الدّراسات المعاصرة أولت ظاهرة الحذف اهتماما كبيرا لما لها علاقة بالجانب الحجاجي في اللّغة.

10- الربط الحكمي:

هو ارتباط بنيتين متتاليتين، للوصول إلى حكم ما، و من أهم أشكال ارتباط جزئيتين، واعتماد إحداهما على الأخرى في أساليب اللّغة العربيّة نجد الشرط⁽²⁴⁶⁾

أ-آلية الشرط الحجاجية: يعرف الشرط على أنه "مجازاة تتعقد بين جملتين، أو لاهما فعلية، لتلاءم الشرط مثل قوله تعالى ﴿يريد الله أن يهديه﴾ -سورة الأنعام 125-، و ثانيهما قد تكون اسمية.

²⁴⁴ - عبد الله صوله: الحجاج في القرآن، ص370

²⁴⁵ - ابن جني: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، ص 95

²⁴⁶ - نعمان بوقره: النظرية البيانية عند ابن حازم الأندلسي، ص 123

ب- وقد تكون فعلية جازمة، وغير جازمة أو ظرفية أو شرطية مثل قوله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ -سورة مريم 60- فإذا جمع بينهما وبين الشرط اتحدتا جملة واحدة نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ الزمر 22. ويعرفه الأمدي بقوله "...الحق في ذلك أن يقال الشرط هو ما يلزم من نفسه نفي أمرا ما على كل وجه لا يكون سببا لوجوده ولا دخلا في السبب" (247) والشرط يؤدي وظيفة حاجية قوية، خاصة إذا كانت جملة الشرط ممّا يقبل به السائل، فهذا يسهل قبول جملة جواب الشرط وهو وسيلة جذابة للآخر لأنه يضمن بقاءه معك فمن الشرط يستطيع معرفة جواب الشرط فيكون مشاركا لك في عملية البناء المنطقي لما تريد، و قد لا يتوقع (الجهل أو عدم التركيز) فيكون حينئذ تحت سيطرتك لأنه من الناحية النفسية يبعث على الثقة.

وإذا كان الشرط أسلوبا لغويا ، فإنه لا ينفي عنه اعتماده المنطق أو العلاقة المنطقية بين جزأيه " فأصل الشرط و الجزاء أن يتوقف الثاني على الأول " (248) كقولك: " إن زرتني أحسنت إليك " فالإحسان إنما استحق بالزيارة، وقد تحدثت السكاكي عن الشرط في باب الاستدلال، و تكلم عن أحوال الاستدلالات، في الشرط فقال: "اعلم إن الإثبات في الشرط هو كون الاتصال أو الانفصال قائما فالاتصال كقولك " إن أكرمتني أكرمتك ... والانفصال كقولك "إما أن يقوم زيد وإما أن يقوم عمر وأما النفي فيه، فهو سلب الاتصال كقولك: " ليس إن أكرمتني أهنك أو ليس إما أن يقوم زيد وإما أن يقوم عمرو" (249)

وقد وقف ديكرو عند علاقة الشرط، فبيّن أنّ هذه العلاقة تدخل في نطاق الحجاج المضمر لأننا إن عقدنا علاقة شرطية بين طرفين فإننا أضمرنا أن الشرط يستوجب الجواب أي يكون الشرط سببا لنتيجة هي الجواب، واشترط أن ينتمي الشرط في خدمة الجزاء متساويا معه (250) إنّ هذا الطرح قد نتج عنه إعادة دراسة وظائف اللغة دراسة جذرية ونعني بذلك تقديم "ديكرو وأنسكومبر" الوظيفة الحاجية على الوظيفة الإبلاغية في اللغة وبديهي منذ

247- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ج2 ص 352.

248- نفس المرجع، ج2 ص 354.

249- السكاكي: مفتاح العلوم، شرح نعيم زرزور، ص 491

أرسطو أن كلّ دارس تعرض لدراسة وظائف اللغة قدّم الوظيفة الابلاغية على الحجاجية، ليأتي ديكرود فيقدّم على هذه الوظيفة الإبلاغية الوظيفة الحجاجية وقد كان كلامه كلّه مبنياً على هذا الافتراض العلمي وهو أن اللغة في جوهرها حجاج إذ البنية الحجاجية سابقة للمضمون ولذلك كان التسلسل والترابط في الخطاب قائماً على الرّهان الحجاجي وهذا ما أشار إليه ديكرود في بداية كتابه (القول و المقول)⁽²⁵¹⁾

²⁵¹ - O. Ducrot : « les echelles argumentatives p 51-52.



توطئة :

يشترك الجنس البشري فطرياً في استعمال عدّة آليات منطقية وغير منطقية في إنشاء الكلام وتأويله انطلاقاً من تجارب الأفراد وتفاعلهم مع محيطهم الخارجي من خلال اللغة التي يستعملها وإذا صحّ أنّ "اللغة هي مادة الحجاج، صحّ معها أن الفكر هو الآلة التي تقوم بتحديد المبادئ والقواعد داخل أنساق تصورية، تعبّر عن العلاقات التي تنظّم تلك المبادئ والقواعد كما نجدها في تحليل الخطاب"⁽²⁵²⁾ و مهما كانت الآراء التي تصاغ باللغة ، فإنّها جميعاً تخضع لنفس قوانين الفكر ونفس مبادئ المنطق وكلما افلح الفرد في الاختيار المناسب لهذه الآليات كان لخطابه وقع على مخاطبيه وضع اللغويون عدّة آليات تقوم عليها العملية الحجاجية نذكر أهمّها:

1- القياس Syllogisme :la

أرجع أرسطو العمليتين الأساسيتين في العلوم، الاستقراء والاستنباط إلى "الخطوات القياسية التي أنتجت البرهان وأنتجت بطريقة معكوسة الاستقراء"⁽²⁵³⁾. ومن هنا كان المنشغلون اليونان في الحقل العلمي يتحدثون عن البرهان لا عن القياس، لأن البرهان هو قياس الضرورة، والاستقراء هو عكس ذلك، وما لبث أن تم الاعتراف بالقياس لكن خارج الميدان العلمي، أي في الاستدلال الجدلي والاستكشافي حيث استعيرت صورة القياس من البرهان، لكي تكون أداة استدلال بواسطة عناصر اللغة الطبيعية⁽²⁵⁴⁾ وبهذا حصر المنطق اليوناني الاستدلال في القياس الحملي مما جعل العلاقة المنطقية تقوم فيه على مبدأ التداخل الذي يقضي باندراج أجزائه بعضها في بعض، ويجعل العناصر التي تدخل فيها لا تتجاوز ثلاثة، الشيء الذي يجعل النتيجة في القياس ترجع إلى ما وضع في المقدمات⁽²⁵⁵⁾.

وقد تنبّه أرسطو في هذا الإطار إلى أنّ هناك ضرورة منطقية تربط المبادئ (أو المقدمات) بالنتائج، فترغم السامع إذا ما اعترف بمقدمات معينة على قبول النتيجة إلى درجة لا يكون في حاجة إلى طلبها⁽²⁵⁶⁾ بناء على ذلك يمكن القول بأنّ لقياس آلية أساسية من آليات الذهن البشري، تقوم بالربط بين شيئين على أساس جملة من القواسم المشتركة، للوصول إلى استنتاج ما بألفاظ فيها شيء من الالتباس والاشتراك⁽²⁵⁷⁾.

2.1 وظيفة القياس :

يستعمل متكلم اللغة بنية استدلالية مغايرة نوعاً ما لتلك المستعملة في بنية القياس الصوري لأنّ مستعملي اللغة لا يستدلون بالمعنى الشكلي بل يستدلون بمقدمات يختارون إظهارها حسب ما

²⁵³ - كورنفورنت موريس : منخل إلى المادية الجدلية ، نظرية المعرفة ، ترجمة محمد مصطفى ، ص 137 .

²⁵⁴ - الفدي محمد ثابت : أصول المنطق الرياضي ، ص 349

²⁵⁵ - نفس المرجع : ص 351 .

²⁵⁶ - طه عبد الرحمان : تجديد المنهج في تقويم التراث ، ص 325 .

²⁵⁷ - طه عبد الرحمان : أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، ص 95 .

تقتضيه مقامات القول أو عدم إظهارها، اعتماداً على ذكاء القارئ أو لاعتبارات تداولية أخرى (258) فالمتكلم حين يقول مثلاً: "الإنسان فان" لا يستحضر مقدمتين وقياساً، لأن ذلك ممّا هو

معلوم كنتيجة للتجربة، فالخطاب عادة لا يهدف إلى الوقوف فقط على هذه النتيجة، إنه يعرضها ويقدمها من أجل هدف تداولي حسب مقام القول الذي قد يكون وعظاً أو إرشاداً أو تنبيهاً (259) ومنه يمكن القول أن الذهن البشري قادر على المزوجة بين القياس و الاستنباط دون صعوبة أو تعارض.

3.1 أنواع الأقيسة:

تعددت أنواع الأقيسة بحسب تنوع النصوص الحجاجية و نجد ما يلي:

1.3.1 القياس المنطقي: يعتبر "بنية أساسية في كلّ خطاب حجابي" و لا يجب القياس إلاّ عن قول متقدّم فيكون القياس نتيجة ذلك، ربّما كان هذا القول في اللسان العربي مقدّمة أو مقدمتين لإحدهما بالأخرى تعلق (260) ومن أمثلة القياس المنطقي المثال الذي أورده محمد العبد في كتابه النص والخطاب والاتصال وهو (المال لمن حفظه، والحسرة لمن أتلفه، وانفاقه هو إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب). يمكن تصوّر القياس المنطقي على النحو التالي:

- [المقدمة الكبرى]: ————— ← الحسرة لمن أتلف المال

- [المقدمة الصغرى]: ————— ← إنفاق المال هو إتلافه .

- [النتيجة]: ————— ← الحسرة لمن أنفق المال . (261)

2.3.1 القياس المضمّر: هو أحد أنواع القياس المنطقيّ، محذوف المقدمة وهي عادة المقدمة الكبرى (262) فعندما نقول "الوطن جدير بالولاء، لأنّه يساعد على تربية المرء" يستلزم القياس المنطقي الكليّ القياس المضمّر.

258- عبد السلام عشير : عندما نتواصل بغير ، ص 39

259- عبد الرحمان بدوي: المنطق الصوري و الرياضي ، ص 500 .

260- محمد العبد: النص والخطاب والاتصال ص 218.

261- محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص 227.

- المقدمة الكبرى (مضمرة): كل شيء يساعد على تربية المرء جدير بالولاء .

- المقدمة الصغرى (مذكورة): وطن المرء يساعد على تربيته .

- النتيجة : وطن المرء جدير بالولاء ⁽²⁶³⁾.

في القياس المنطقي لابد من قبول المخاطب للمقدمة الكبرى وإلا كان الحجاج عبثاً، وفي القياس المضمر يسلم المخاطب جدلاً بتلك المقدمة، فالقياس المنطقي والقياس المضمر هما الشكلاّن المنطقيّان الأعم في الخطاب الحجاجي العربي ⁽²⁶⁴⁾.

3.3.1 القياس المتدرج:

يعدّ القياس المتدرج امتداداً معقداً للتعليل القائم على القياس المنطقيّ، ذلك أنه تتصل بعض مجموعات القياسات المنطقية ببعض حتى تؤدي إلى نتيجة هي المقدمة الكبرى لنتيجة أخرى لاحقة⁽⁴⁾، ويمكن أن نوضح ذلك بالمثال التالي:

- كلّ المسايّرين للموضة متحرّرون من القيود.

- كلّ المتحرّرين من القيود مزعزعون.

- كلّ المزعزعين مرضى عقلياً.

- كلّ المرضى عقلياً في حاجة إلى التعاطف.

- كلّ المسايّرين للموضة في حاجة إلى التعاطف.

نلاحظ فيما سبق أنّ المقدمتين (1) (2) تقودان إلى النتيجة : [كلّ المزعزعين مرضى عقلياً] وذلك أنّ التعبير "متحرّرون من القيود" موزّع على المقدمة الصغرى: "كلّ المسايّرين للموضة مزعزعون" وهذه هي المقدمة الكبرى غير المعبر عنها، والتي تقود مع القول الثالث "كلّ المزعزعين مرضى عقلياً" إلى نتيجة أخرى جديدة "كلّ المسايّرين للموضة مرضى عقلياً"

1- مليكة غبار ، أحمد أمزيل، محمد رويض، علي أعور : الحجاج في درس الفلسفة، ص 17 .

2- محمد العيد : النص و الخطاب و الاتصال، ص 230 .

3- المرجع نفسه ص 231 .

4- طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص"371

"وهي نتيجة ترجع بدورها إلى المقدمة الكبرى التي كان القول الرابع مقدّمها الصّغرى، وكان القول الخامس نتيجة القياس المنطقي الضمني والاستنتاج المتدرّج الكلّي (265) .

ويمكن القول أنّ القياس الذي نقصده، هو القياس الطّبيعي "لأنّه أغنى وأكثر إجرائيّة في اللّغة من المقياس الصّوري البر هاني، وأنّه لا يوجد في الخطاب الطّبيعي للاستبطاط المنطقي والاستقراء التّجريبي الذي تحدّده المعرفة العلميّة، ولذلك فالقياس الطّبيعي يصبح أكثر ملائمة للاستدلال اللّغوي، إذ به يتماسك الخطاب و تتركب القضايا فيما بينهما لتنشئ قطعا خطابيّة موحّدة(266) .

2- مرتكزات الحجاج:

يرتكز الخطاب الحجاجي على عناصر أولها المقدّمات des prémisses، تؤخذ عل أنّها مسلّمات يقبلها الجمهور ومنها الوقائع والحقائق والافتراضات والقيم، والمواضع les lieux وسنفضّل القول في كلّ منها.

1.1 – الوقائع : les faits

تمثّل ما هو مشترك بين عدّة أشخاص أو بين جميع النّاس، إنّ الوقائع لا تكون عرضة للدّحض أو الشّك وهي تشكّل نقطة انطلاق ممكّنة للحجاج، و تنقسم الوقائع إلى وقائع مشاهدة معاينة من ناحية ووقائع مفترضة والتّسليم بالواقعة من قبل الفرد ليس إلّا تجاوبا منه مع ما يفرض نفسه على جميع الخلق إذ الواقع يقتضي إجماعا كونيا(267) وبهذا نرى أنّ الوقائع تعتبر من ركائز الحجاج الهامّة، التي يستغلّها المحاجّ للإقناع والتأثير في متلقي.

2.1 الحقائق ————— ق:

هي أنظمة أكثر تعقيدا من الوقائع، وتقوم على الرّبط بين الوقائع والحقائق وقد يعمد الخطيب إلى الرّبط بين الوقائع والحقائق من حيث هي موضوعات متّفق عليها لتحديث موافقة

265 - محمد العبد: النّص والخطاب والاتصال، ص228

266 - طه عبد الرّحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص290

267 - عبد الله صوله: أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، ص308

الجمهور على واقعة معينة غير معلومة والمثال الذي ضربه أرسطو من كتاب (الخطابة المقالة 1 الفصل 2) الواقعة (أ) (واقعة جزئية) وهي أن بايستراتوس وقبله ثياجيس الميغاري كان قد طلبا حرسًا خاصًا وحين حصلوا على ذلك تحولوا إلى طاغيتين. القضية (ب) وهو الرأي الذي يريد الخطيب حمل السامعين على التصديق به وديونوسيوس طاغية لأنه يطلب حرسًا خاصًا، فقد تضافرت على تأييد القضية (ب) الواقعة (أ) النظرية (س) (268) فالحقائق إذا ما زكيت بوقائع كانت أكثر إقناعًا.

3.1 الافتراضات Les présomptions

شأنها شأن الوقائع والحقائق تحظى بالموافقة العامة، ولكن الإذعان لها والتسليم بها لا يكونان قوبين حتى تأتي مسار الحجاج عناصر أخرى تقويهما. والافتراضات إنما تحدّد بالقياس إلى العادي أو المحتمل... ولكن هذا العادي وهذا المحتمل يتغيّران بتغيّر الحالات (269) فهي وإن كانت من مرتكزات الحجاج إلا أنها تتطلب فكراً واعياً للنجاح في توصيلها للسامع.

4.1 القيم Les valeurs

إنّ القيم عليها مدار الحجاج بكلّ ضروبه... فهي التي يعول عليها في جعل السامع يذعن لما يطرح عليه من آراء (270)، والقيم نوعان مجردة كالعدل، والحق، ومحسوسة مثل البلد. والإنسان لا يخلو من قيم يؤمن بها و يذعن لها

5.1 الهرميات Les niera dies :

القيم متفاوتة الدرجات (271) وهي بذلك تخضع لهرم معين لأنّ للعاطفة مثلاً درجات و للكره كذلك درجات " إن هرمية القيم في البنية الحجاجية أهمّ من القيم نفسها، فالقيم وإن كانت تسلم بها الجماهير فإنّ درجة تسليمها بها تكون مختلفة من جمهور إلى آخر (272) فالإيمان بالجزاء والعقاب يقع في أعلى الدرجات بالنسبة للمسلم عن غيره من الذين ينتمون إلى ديانات أخرى.

268- نفس المرجع ص 309.

269- عبد الله صوله: أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص 309.

270- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 284

271- نفس المرجع ص 285.

6-1 المواضع les lieux:

لا يمكن الحديث عن المنطق دون حديث عن ضروب الأقيسة التي يقوم عليها، فكذلك الأمر بالنسبة للحجاج، لا يمكن الحديث عنه دونما حديث عن المواضع، كيف لا وقد عرفها شيسترون بكونها "مخازن الحجاج" وألح أرسطو على أنها "ما يجب حسن امتلاكه" حتى يصلح الحجاج ويحقق الملفوظ وظيفته الحجاجية فهي ليست حججا في حد ذاتها بل كما سماها بيرلمان ما يشبه الأقسام les Rubriques التي يقع تحتها ما يؤيد الحجج⁽²⁷³⁾ وهي أنواع :

3- التقنيات الحجاجية:

الأشكال الحجاجية Shemes argumentatif التي يمكن اعتبارها مواضع حجاجية lieux argumentatifs على نوعين⁽²⁷⁴⁾:

- طرائق الوصل أو الاتصال Procédés de liaison

- طرائق الفصل أو الانفصال Procédés de dissociation

1- الطرائق الاتصالية :

وهي الطرائق "التي تقرّب بين العناصر المتباينة وتتيح إقامة ضرب من التضامن لغاية تقويم أحد هذه العناصر بواسطة الآخر تقويما إيجابيا أو سلبيا" ⁽²⁷⁵⁾ ومن بين الطرائق الاتصالية .

1.1 الحجج شبه المنطقية:

تسمد قوتها الاقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة وإذ كانت تشبهها فلا يعني أنها هي وعليه وجب التدقيق بأن يبذل جهدا كبيرا في بناء استدلالها ومنها:

²⁷² - عبد الله صوله: أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص310

²⁷³ - Amassy Ruth : l'argumentation dans le discours, p102

²⁷⁴ - عبد الله صولة: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص324.

²⁷⁵ - طه عبد الرحمن : اللسان و الميزان ، ص 260.

1.1.1 التناقض وعدم الاتفاق incompatibilité (276):

والمقصود بالتناقض Contradiction هو أن تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحداهما نفي للأخرى... كأن يقال (المطر ينزل ولا ينزل) في حين أن عدم الاتفاق أو التعارض بين ملفوظين يتمثل في وضع الملفوظين على محكّ الواقع والظروف أو المقام، لاختيار إحدى الأطروحتين و إقصاء الأخرى.

2.1.1 التماثل والحدّ في الحجاج: (277)

التماثل التام مداره على التعريف définition من حيث هو تعبير عن التماثل بين المعرفّ والمعرفّ وليس المعرفّ تمام المعرفّ على الحقيقة لهذا سميّ الحجاج من هذا القبيل حجاجاً شبه منطقيّ.

فقولنا الرجل وجلّ، والأب يبقى أباً.

هو من قبيل تحصيل الحاصل، لاتجد فيه معنى المعرفّ وهو رجلاً أو أباً هو نفسه معنى المعرفّ وهو الرجل والأب، ولهذا قيل عن مثل هذه القضايا أن أحد ركنيها أو لفظيها ورد على الحقيقة، والآخر على وجه المجاز.

3-1-1 الحجج القائمة على العلاقة التبادلية:

تتمثل هذه الحجج "في معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل الآخر معالجة واحدة وهذا يعني أنّهما متشابهتان بطريقة أو بأخرى⁽²⁷⁸⁾ ومن أمثلة ذلك "ضع نفسك مكان لا يؤمن أحكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبه لنفسه".

4.1.1 حجج التعدية Arguments de transitivité (279)

²⁷⁶ - عبد الله صوله ، ضمن أهم النظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، ص 325
²⁷⁷ - عبد الله صوله ، ضمن أهم النظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، ص 327 .
²⁷⁸ - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص264

إنّ التّعدية خاصّة شكليّة تتّصف بها ضروب من العلاقات التي تتيح لنا أن نمرّ من إثبات أنّ العلاقة الموجودة بين "أ" و "ب" من ناحية و "ب" و "ج" من ناحية أخرى هي علاقة واحدة إلى استنتاج أنّ العلاقة نفسها موجودة بالتالي بين "أ" و "ج" مثال ذلك :

(علي أخو محمد) و (علي أخو عمر) $\Longleftarrow$ (عمر أخو محمد)

نلاحظ أنّ التّعدية مبنية على علاقة التّضمن وهذا ما نلمسه في المثال الذي ضربه "برلمان" "قضى سقراط نحبه لأنّه إنسان" النتيجة المسكوت عنها "كلّ إنسان فان"

2.1 الحجج المؤسسة على بنية الواقع :

تقوم "بربط الأحكام المسلّم بها، وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة ومسلّمًا بها وذلك بجعل الأحكام المسلّم بها والأحكام غير المسلّم بها عناصر تنتمي إلى كلّ يجمع بينها ولا يمكن التسليم بأحدهما دون أن يسلم بالآخر⁽²⁸⁰⁾.

1.2.1 الوصل السببي: وله ثلاثة ضروب⁽²⁸¹⁾ وهي :

➤ حجاج يرمي إلى الرّبط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي مثال ذلك "اجتهد ففتّج".

➤ حجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما ، وقع سبب أحدثه وأدى إليه ومثال ذلك "نجح لأنّه اجتهد".

➤ حجاج يرمي إلى التّكهن بما سينجرّ عن حدث ما من نتائج، مثال "هو يجتهد فسينجح".

ولهذا النوع من الوصل " تأثير مباشر في توجيه السلوك وعدّه من أهمّ وسائل الحجاج"⁽²⁸²⁾.

279- عبد الله صوله: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص330

280- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص253.

281- عبد الله صوله: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص329.

282- نفس المرجع، ص334

2.2.1 حجة التبذير:

حجة تقوم على التتابع، وإن لم تكن ليعتمد فيها على السببية وتتمثل في أن نقول حسب برلمان "بما أننا شرعنا في العمل وضحينا في سبيله بما لو أعرضنا عن تمامه لكان مضيعة للمال والجهد فإنه علينا أن نواصل إنجازَه" (283)

3.2.1 حجة الاتجاه :

وتتمثل أساسا في التحذير من مغبة إتباع سياسية المراحل التنازلية كقولنا إذا تنازلت هذه المرة وجب عليك أن تتنازل أكثر في المرة القادمة و الله أعلم أين ستقف بك سياسة التنازل هذه؟

3.1 وجوه الاتصال التوايدي:

1.3.1 الشخص وأعماله: إن الإنسان كل لا يتجزأ ينظر إليه من زوايا عدة "فعلم الأخلاق والقضاء يعتمدان مفهوميّ الإنسان وأعماله من حيث هما مفهومان مترابطان... لا فكاك لأحدهما عن الآخر فعلم الأخلاق والقضاء يحكمان على العمل وعلى صاحبه في الوقت نفسه... فعلاقة الوصل التوايديّة لا يتبع الحجاج فيها مسار - عمل شخص - وإنما يتبع فيها أيضا مسار - شخص عمل - وهو ما أسماه برلمان "التداخل بين العمل والشخص" (284) وهكذا يتبين أن للشخص وأعماله دور في استمالة المتلقين.

2.3.1 حجة السلطة: تختلف السلطة في هذا المجال وتتعدد تعددا كبيرا فقد تكون "الإجماع، أو الرأي العام، أو العلماء... أو الأنبياء وقد تكون غير شخصية مثل الفيزياء أو العقيد أو الدين... وقد يعتمد الحجاج بالسلطة على ذكر أشخاص معينين على أن تكون سلطة هؤلاء معترفاً بها من قبل جمهور السامعين... والعادة في الحجاج ألا تكون الحجة بالسلطة الحجة الوحيدة فيه وإنما تأتي هذه الحجة مكملة لحجاج يكون غنياً بحجج أخرى" (285)

2-meyer (Michel) : logique , langage e et argumentation , p 113

3-Meyer (Michel) : page 114

4.1 الاتصال المؤسس لبنية الواقع : يوجد بنيات مستمدة من الواقع الماضي، بما تختزنه من تجارب إنسانية وأحداث تاريخية أو شخصية تترجمها الحكم والأمثال والحكايات وغيرها، تكون معروفة من قبل، وذات قيم مجتمعية، تحظى باحترام واهتمام الأفراد والجماعات، تستخدم داخل القول الحجاجي للإقناع وتختلف وفق الضرورة السياقية أو المقامية ومن بين هذه البيانات نذكر ما يلي:

1.4.1 المثل Exemple : هو نوع من الاستدلال "يقوم بنقله نوعية من خلال الجمع بين الاستقرار والمثابرة عن طريق الحدس، وقد وجد هذا التوظيف كقيمة رمزية أو بمثابة مسلمات قيمية تستجيب للقضايا المطروحة (286)، وقد وجد هذا التوظيف امتدادا واسعا داخل الخطابة العربية حيث يرجع الخفاجي أساس المثل إلى كونه: "ماثل في خاطر الإنسان أبداً وشاخص، وأعون شيء على البيان" وفي نفس السياق يؤكد الزمخشري: "أن الأمثال هي زيادة في الكشف و تنتمي للبيان وتضرب العرب الأمثال لإبراز جليات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في صورة المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم، وقمع لسورة الجامح الأبي" (287). فالمثل يصور المعاني بصورة الأشخاص مع ترسخه في الذهن وتقريب المعنى للمتلقى.

2.4.1 النموذج le modèle والنموذج المضاد Anti modèle

وسيلة تعبيرية "مؤسسة على حجة السلوك باعتبار السلوك قدوة تستوحي من الأشخاص أو الجماعات أو الأفكار... تؤكد لها قيمة الأفعال وذلك كميل طبيعي في الناس نحو الاقتداء بنماذج معينة حيث تعتبر في القول الحجاجي مقدمات تستخلص منها نتائج معينة تؤدي إلى امتداح سلوك خاص" (288) لذلك تعتبر النماذج الجيدة وراء تشكيل سلوك وثقافة الأفراد والجماعات كما يعتبر "النموذج المضاد نموذجا يستعمل أيضا كتقنية في الخطاب الحجاجي ويكون أكثر فعالية حيث يفقد النموذج الأصلي قيمته وفعاليته ويحوّله في مجالات مقامية معينة

²⁸⁶ - عبدالسلام عشير: عندما نتواصل بغير، ص 218
²⁸⁷ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 417.

إلى الهزأ أو الهزل أو السخرية كما في المثال الذي أورده برلمان⁽²⁸⁹⁾ حين قال الأب لابنه الكسول: في مثل سنك كان نابليون على رأس الفصل الذي يدرس فيه.

فرد الابن : وفي مثل سنك كان نابليون إمبراطورا .

3.4.1 الشاهد Illustration :

طريقة تدور حول تقوية وتأكيـد الأطروحة "فالغاية منه لا تكمن فقط في تعويض المجرّد باللمس وتبديل أو نقل الأطروحات من مجال إلى مجال آخر كما هو الشأن في المثل أو التمثيل وإنما تكمن أساسا في تقوية الفكرة وتأكيـد حضورها في الذهن⁽²⁹⁰⁾ ولهذا فإن اختيار الشاهد يخضع لمعايير تقتضيها الشروط المقاميّة التي تجد لها صدى شعورياً وعاطفياً لدى المخاطب، فتقوم بدور المحرك لخياله وتفرض عليه الانتباه وتسهّل عليه عمليّة الفهم⁽²⁹¹⁾ والشاهد حسب الجاحظ يستمدّ طاقته من العيان والمشاهدة" وهو استشهاد على شيء ما بقرآن أو حديث أو شعر أو مثل أو خبر مرويّ بهدف ثباته أو إنكاره أو الاحتجاج له أو بطلانه أو نحو ذلك⁽²⁹²⁾

1.4.4 التمثيل Analogie:

طريقة حجاجيّة "تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائمة، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة"⁽²⁹³⁾ وينطلق الحجاج بالتمثيل من التجربة "بهدف إفهام الفكرة أو العمل، على أن تكون الفكرة مقبولة وذلك بنقلها من مجال إلى مجال مغاير، جرياً على مبدأ الاستعارة ويرتكز التمثيل على استدعاء صورة تحكي أحداثاً من أجل نقل أفكار مرجعيّة ذات قيمة رمزيّة"⁽²⁹⁴⁾

1-IBID page 425

²⁹⁰- Miescher (Jaques) : Théorie pragmatique et pragmatique conversationnelle page 38

3-IBID page 484

²⁹² - الجاحظ : البيان و التبيين، ج 1 ص 86

5- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 301

6 - Robrieurj . j : Eléments de rhétorique et d'argumentation page 45 .

2-الطرائق الانفصالية في الحجاج:

تحدثنا عن ثلاثة مظاهر من الاتصال الحجاجي هي الحجج شبه المنطقية والحجج المؤسّسة على بني الواقع، والحجج المؤسّسة لبني الواقع وهي طرائق تربط بين عناصر غير مترابطة في أصل وجودها، أما الطرائق الانفصالية أو الفصل "فإن الانفصال بين العناصر في الحجاج يقتضي وجود وحدة بينها، ومفهوم واحد لها فهي عناصر عائدة إلى اسم واحد... وقع الفصل بينها لأسباب دعا إليها الحجاج ومردّ ذلك إلى زوج (الظاهر/الواقع). بمعنى أن الأشياء أو المعطيات قد تكون حدان ظاهر زائف وواقع حقيقي (295) ويرى "برلمان وتيتكاه" أنّ الظاهر هو ما يخاطر بالذهن ويدركه الفكر منذ الوهلة الأولى فهو المعطى الراهن المباشر في حين أن الحقيقي لما كان تميّزه لا يكون إلّا في علاقته بالظاهر ومقارنة به فإنّه لا يمكن أن يكون إلّا نتيجة فصل تحدّثه داخل الحدّ الأول -في الظاهر- سعيًا منا إلى القضاء على ما يمكن أن نلمحه في مظاهر الحدّ الأول هذا من تناقضات بينها توقظ فكرنا من غفلته عنها وانخداعه بها (296) وتتجلى طرق الفصل في الأقوال والخطابات بما يعبر عن حضور أزواج من قبيل (297)

- ظاهري /حقيقي Apparent /Réal

- هو شبه كذا .

- غير كذا، غير صحيح.

- بعض الجمل الاعتراضية: إنّ هذا البطل إن صحّ أنّه بطل.

- بعض الأفعال مثل: يزعم، يتوهم.

- وضع بعض الأقوال بين قوسين أو مزدوجتين وبالتالي نلاحظ أن الفصل

يكون داخل المفهوم الواحد بين ما هو ظاهري وما هو حقيقي كأن يقال: "إنّ ملكا يفعل هذه

الأفعال ليس ملكا" !

295- عبد الله صولي: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، ص 344.

296- المرجع نفسه ، ص 345 .

الخلاصة:

إنّ بناء القول الحجاجي يتشكّل عن طريق تفاعل بنيته اللّسانية (ربط، تكرار، توكيد.... الخ) وبني المنطقية (قياس وقائع، شواهد، أمثلة) وهي عناصر ضروريّة لنجاح العملية الحجاجية. وبتحليلنا لنص الخطبة تبين أنّها توفرت على أهم هذه البنى اللسانية والمنطقية التي عملت على الرّفْع من قيمتها الحجاجية.



الفصل الثالث

التحليل النصي الحجاجي للخطبة طارق ابن زياد

يعدّ طارق بن زياد من أشهر زعماء المقاومة في المغرب العربي في العصر العربي الوسيط، وقد استطاع بفضل عقيدة الإسلام وسماحة الدين ويسر الشريعة الربّانية أن يتعلّم القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وبفضلهما فتح طارق الأندلس ونش الدين الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى وصلت الفتوحات الإسلامية لابوابتيه بفرنسا فمن هو هذا الفاتح؟

أورد ابن عذارى المراكشي في كتابه "المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب" أن نسب طارق بن زياد هو طارق بن زياد بن عبد الله بن لغو بن ورقجوم بن الأثير بن ولهاص بن يوطف بن نفاوي... فهو نصري⁽²⁹⁸⁾ وقد اختلف المؤرخ ونفي نسبه فهناك من يعتبره فارسياً همدانياً، وهناك من يدافع عن بربريته بأنه من مواليد قبيلة نفرة البربرية، وقد قيل إن طارق طويل القامة، ضخّم الهامة، أشقر اللون، وتتطبق هذه الصفات على عنصر البربر⁽²⁹⁹⁾ ومن المعروف أن طارق مولى مغربي لموسى بن نصير، وهو أيضاً من البربر الزناتيين وقد أسلم طارق منذ أيام عقبة بن نافع الفهري، وكان طارق حسب الروايات الأدبية والنقدية شاعراً مقلداً إذ أورد له المقرئ في كتابه "نفح الطيب" بعض الأدبيات الشعرية نقلاً عن الحجاري في المسهب وابن اليسع في المغرب وهي⁽³⁰⁰⁾:

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا

عسى أن يكون الله منا قد اشترى

نفوسا وأموالا وأهلا بجنّة

إذاما اشتهينا الشيء فيها تيسيرا

إذا نحن أدركنّا الذي كان أجدر

²⁹⁸ - ابن عذارى: بيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج 1 ص 43.

²⁹⁹ - علي محمد محمد الصلابي: صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي. المجلد 1، ص 311.

³⁰⁰ - المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، محمد محي الدين عبد الحميد، ج 1 ص 248.

توجه طارق بن زياد لفتح الأندلس سنة 92هـ في اثني عشر ألف جندي فيهم ثلاثمائة فقط على أكثر تقدير من العرب الذين كانوا قوادا مؤطرون للفرق العسكرية وعبر طارق في سفن يوليان ونزل بمنطقة تحمل إلى يومنا هذا اسمه (جبل طارق) وفتح الجزيرة الخضراء ودخل جيشه بعد أن أحرق السفن، في معركة حامية الوطيس مع جيش لذين استمرت ثمانية أياما حسوما انتهت بهزيمة القوط شر هزيمة وفتحت هذه المعركة أبواب الأندلس على مصراعها أمام الفتوحات الإسلامية، ثم وصلت جيوش طارق طليطلة سنة 93هـ دون مقاومة تذكر⁽³⁰¹⁾ وهكذا استطاع رجال طارق بن زياد أن يفتحوا مدن الأندلس زهاء ثمانية قرون في ظل التسامح والتعايش والتقدم والازدهار حتى تبدلت أحوال المسلمين...⁽³⁰²⁾.

طارق بن زياد خطيبا:

قال طارق بن زياد خطبة رائعة أثناء فتحه الأندلس بعد أن أحرق السفن التي حملتهم إلى الجبل المسمى باسمه (جبل طارق) قطعاً لأملهم في الهروب والرجوع والفرار، وتحفيزاً لهم على المواجهة والمقاتلة ومحاربة العدو. وبذلك تكون خطبة طارق أقدم نص أدبي نثري وصل إلينا في الأدب المغربي⁽³⁰³⁾. وهذا نص الخطبة التي ألقاها طارق على مسامع جنوده فبعثت فيهم الحماسة والشجاعة.

³⁰¹ - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 89.

³⁰² - نفس المرجع ص 90.

³⁰³ - عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ج1، ص 53.

تحليل الخطبة

لسانينا

1- الإحالة:

تمثل الإحالة في اللسانيات العلاقة الدلالية التي تربط العناصر اللسانية ببعضها في المستوى التركيبي، وهي أيضا شكل من أشكال التكرار النحوي، لما يصلح أن يستبدل به كالضمائر⁽³⁰⁴⁾ والمتفحص نص الخطبة يجد أن الإحالة قد تنوعت فمنها:

1.1 الإحالة الضميرية:

نلاحظ حضور ضمير المتكلم المفرد المحيل إلى طارق بن زياد كما في قوله:

"... واعلموا أنني أول مجيب ..."⁽³⁰⁵⁾.

"... وإني عند ملتقى الجمع ..."⁽³⁰⁶⁾.

"... واحملوا معي ..."⁽³⁰⁷⁾.

"... وإن هلك قبل وصولي ..."⁽³⁰⁸⁾.

"... فاخلفوني في عزيمة ..."⁽³⁰⁹⁾.

"... فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي ..."⁽³¹⁰⁾.

عمل الضمير المتصل (الياء) المحيل إلى طارق بن زياد على أغناء الخطبة من الناحية المعنوية، وأعطى حضورا متميزا للقائد المتواجد بين صفوف جيشه، كما عمل الضمير على تماسك الملفوظات وتقادي التكرار، وكما نعلم فالإحالة الذاتية تؤثر في الملتقى وتشده إلى الموضوع المطروح. لم يغفل الخطيب استعمال الضمير المخاطب الذي يحيل إلى الجند فقال:

³⁰⁴ - Dubois et autres dictionnaire de linguistique p 36.

³⁰⁵ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

³⁰⁶ - نفس المرجع.

³⁰⁷ - نفس المرجع.

³⁰⁸ - نفس المرجع.

³⁰⁹ - نفس المرجع.

³¹⁰ - نفس المرجع.

"... البحر من ورائكم والعدو أمامكم" فالضمير المتصل (الكاف) أحال إحالة قريبة، وربط بين أجزاء العبارة دون حاجة للتكرار الاسمي.

ويبين المثال الموالي تنوع الإحالة مما ساهمت في اتساق البني النصية قال: "...وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم..."⁽³¹¹⁾ راح بين الإحالة المنفصلة والإحالة المتصلة فالمنفصلة "أنتم" عملت على التشخيص بالإضافة إلى الربط، فقد شخصت المعني بالأمر -وهو جيش المسلمين- أما الضمائر المتصلة "الكاف" والهاء" فقد أحالت مرة على العدو ومرة على المسلمين.

وبصفة عامة كانت ضمائر الاتصال المفردة (الهاء) و(الياء) غالبية على نص الخطبة، دون أن نتغافل على حضور الضمائر المنفصلة (أنا) (أنتم) ولهذه الإحالة وظيفة برهانية، فالملاحظ أن الخطبة حافلة بهذا النوع من الإحالة سواء البعدية أو القبلية. ولقد تمكن الخطيب من توظيف هذه الإحالات حتى يتجنب التكرار من جهة ويسجل حضور الجند وحضور شخصه من جهة أخرى.

ويمكن القول أن الإحالة الضميرية أبررت معالم الخطيب اللغوية والبيانية وعملت على تماسك نص الخطبة.

2.1 الإحالة الإشارية:

اعتمد الخطيب الإحالة الإشارية القريبة، فالمسح يسجل حضور "الأداة الإحالية المتمثلة في هذه" بشكل بارز لأنه يكثر من الجمل الشارحة والاحتمالات ويذكر المقدمات ويعيدها وهذا لا شك يجعله يستعين بأسماء الإشارة للربط دون تكرار. كما أن الإحالة الإشارية القريبة تدل على التحام طارق ابن زياد بعناصر جيشه. ووجوه في ساحة الحرب، نذكر بعض الأمثلة:

"... واعلموا أنكم في هذه الجزيرة..."⁽³¹²⁾.

"... فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة، من أمركم بمناجزة هذا الطاغية..."⁽³¹³⁾.

³¹¹ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

³¹² - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

نلاحظ أن اسم الإشارة "هذه" زيادة على الربط تجسيدا للوضع الذي هم فيه. أما الإشارة "هذا" فقد عمل على تقريب الصورة وتوضيحها في ذهن جيش المسلمين.

وقوله كذلك: "وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة..."⁽³¹⁴⁾

"ورضيكم لملوك هذه الجزيرة"⁽³¹⁵⁾

"وإظهار دينه بهذه الجزيرة"⁽³¹⁶⁾

"واكتفوا المهم منفتح هذه الجزيرة بقتله..."⁽³¹⁷⁾

فاسم الإشارة "هذه" عمل على تعيين المكان "هذه الجزيرة" وليس غيرها فالاهتمام منصب على هذه الجزيرة وكأنه أعطى المكان نوعا من الأسبقية، فكأنني به يريد القول إن تمكنت من هذه الجزيرة فقد فتحت لكم بقية الجزر أو الأراضي الواقعة وراء البحر، فهذه الجزيرة هي مفتاح كل البقاع الباقية.

2- دراسة الازدواج:

إن الازدواج من أقسام الشعر، "وهو ما أتى على قافيتين إلى آخر القصيدة، رغم هذا فيمكن النظر إلى المزدوج في النثر على أنه من باب حكايته بنية إيقاعية جوهريّة في الشعر، ذات تأثير سمعي، وعاطفي في المستمع. ولكننا نحسبه أصيلا في نثر لغة ذات أصول شفهية"⁽³¹⁸⁾.

عولج المزدوج عند البيانين مظهرا من مظاهر الجودة في صناعة الكلام. ويستخلص من جملة ما ذكره القدماء عن الازدواج ما يلي:

³¹³ - نفس المرجع.

³¹⁴ - طارق بن زياد من نص الخطبة .

³¹⁵ - نفس المرجع.

³¹⁶ - نفس المرجع.

³¹⁷ - نفس المرجع.

³¹⁸ - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 267.

1. إن الازدواج يقع أيضا على رغم الاختلاف بين الأجزاء في أحد الاعتبارات السابقة، يقع في اعتبارين اثنين منها أحيانا.
2. إذ لم يقع التوازن بين الأجزاء في القول، فالأفضل أن يكون الجزء الأخير أطول، وإن كان ورد في كلام العرب الفصحاء ما كان فيه الجزء الأخير أقصر.
3. توازن الأجزاء توازنا كليا أجمل وجوه التوازن.
4. فضلا عما للتوازن من أثر سمعي، ايجابي في رونق الكلام. فأن له بتمكين معناه⁽³¹⁹⁾.

وقد كان الازدواج في نص الخطبة على النحو التالي:

الترتيب	النوع
المرتبة -1-	النوع الرابع
المرتبة -2-	النوع الخامس
المرتبة -3-	النوع الأول

أول ما يلاحظ اعتماد الخطيب النوع الرابع بكثرة، لطبيعة الخطاب، للإقناع والاستحالة ليس مسألة هينة، لذلك كان تركيزه على شد انتباه السامع طوال مدة الخطبة حتى يضمن موالاته وتأييده. وهذا ما يجعل أغلب نماذج هذا النوع تتقاطع تقاطعا صريحا مع تكرار المضمون نذكر بعض الأمثلة: "إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالألفة الألد طويلا"⁽³²⁰⁾ وأيضا: "ولا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظكم فيه أوفر من حظي"⁽³²¹⁾ وكذلك: "وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة، من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحل المنسوجة بالعقبان المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان"⁽³²²⁾ وقوله: "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا" فالنوع الرابع احتل مساحة كبيرة كما سبق الذكر.

³¹⁹ - الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص116.

³²⁰ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

³²¹ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

³²² - نفس المرجع.

أما من النوع الخامس "لا وزركم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما سيخلصونه من أيدي أعدائكم" وأيضاً: "وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبتم ربحكم وتعوضت القلوب برعبها منكم الجرادة عليكم"⁽³²³⁾ فالخطيب اعتمد هذا النوع لأنه يحاول الشرح والتفصيل ليصل بالجند إلى تبني دعواه، وهذا المستوى الأساسي الذي تتفاعل فيه البنية والدلالة وتشغلان معاً سواء في النص الحجاجي أم غيره من النصوص.

ومن النوع الأول (أعلى المراتب عند القلقشندي) نجد له حضوراً مثلاً "يكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه"⁽³²⁴⁾ وكذلك "البحر من ورائكم والعدو أمامكم"⁽¹⁾.

لم يكثر الازدواج لدرجة التصنع، بل كان بما يكفي لإحداث الجمال في نفس وسمع المتلقي، فقد قدم خطبته بطريقة تشعر معها أن الرجل لا يقصد اختيار الكلمات وأنها ترد بكل عفوية قال الجاحظ: "قبل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرفاشي: لم تؤثر السجع على المنشور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذان لسماعه أشط وهو أحق بالتقييد، وبقلة التلفت، وما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنشور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"⁽³²⁵⁾ وهنا إضافة إلى الوظيفة الجمالية التأثيرية أشار إلى فكرة مهمة هي الوظيفة التذكيرية وقد لاحظ هذه الفكرة بالذات WALTERONG في قوله: "ويميل التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي حتى عندما يكون في شكل شعري إلى أن يكون إيقاعياً بشكل ملحوظ لأن الإيقاع حتى من الناحية الفسيولوجية يساعد على التذكر"⁽³²⁶⁾.

يمكن القول: "أن الازدواج بنيّة تركيبية ترتبط بين عناصرها علاقات - سمعية - من طول ووزن وفاصلة تعكس فكراً واضحاً، مرتباً.

³²³ - نفس المرجع.

³²⁴ - الجاحظ: البيان و التبيين ج 1. ص 87

³²⁵ - نفس المرجع. ج 1 ص 88

³²⁶ - محمد العمري: النص الحجاجي العربي، ص 68.

عمل الازدواج في نص الخطبة على تناسقها من خلال الازدواج بين عبارات من جملة واحدة، أو بين جمل تامة قائمة بذاتها كما يمكننا أن نحس بالسلاسة والانتقاء غير المفضيين إلى الثقل أو التكلف. فالإضافة إلى الصبغة الجمالية أضفى الازدواج على نص الخطبة الطابع التأكيدى للغرض الذي ترمي إليه.

3- بينة التكرار:

يعتبر من المفاهيم الأساسية في معالجة النص الأدبي، فهو وسيلة مهمة لاكتشاف أبعاد الخطبة و" يمكن أن يتمظهر العنصر المكرر في أشكال مختلفة فيما أن يكرر الدال مع المدلول واحد، وإما أن يكرر مع مدلول يتحقق من جديد في كل مرة أو يتكرر المدلول الواحد مع دالات مختلفة، مما يؤكد السمة البنيوية للتكرار في النصوص ..."(327).

إلا أن دراسة الظاهرة لا تتوقف عند حد رصد تواترها الخطابى، بل من حيث كونها وسيلة للإفهام والإفصاح والكشف، والتأكد، والتقريب، والإثبات، ويميز علماء اللسانيات النصية بين التكرار التام، والجزئى الذي يقوم على الاستعمال المختلف للجزء اللسانى للمادة المعجمية نفسها، ويعد هذا النوع بالذات من أهم الآليات اللسانية التي تحقق الحجاجية ..."(328)، بالإضافة إلى تكرار الترادف في مستوى اللفظة أو العبارة، يكون التكرار في مستوى البنيات(329)

ونجد أن أشكال الروابط التكرارية قد تعددت في صور عدة(330)

أ- التكرار التام: " ... يستخدم بشكل عام لتأكيد رأي ما، أو واقعة ما، أو وصف ما، ويقول البلاغيون العرب: إنه يستخدم أيضا لتأكيد المدح أو التهويل أو الوعيد ..."
ب- التكرار المرادف: ويتحقق بالنسبة للكلمات التي تظهر متقاربة جدا ولا يستطيع النص تحديد الفروق والاختلافات.

التكرار الجزئى: يقصد به تكرار عنصر سبق استخدامه ولمنه في أشكال مختلفة.

327 M.FREDERIC, la répétition , étude linguistique, p 18.

328 محمد العبد: النص الحجاجى العربى، دراسة في وسائل الحجاج، ص 65.

329 عبد الحميد هندواي، أسلوب التكرار بين الدرس القديم والأسلوبية الحديثة دراسة تطبيقية ص 91.

330 صلاح حسين: مدخل الى علم الدلالة، ص 236.

د- شبه التكرار: أقرب إلى التوهم حيث تفتقد عناصر التكرار المحض ويكون في مستوى التشكيل الصوتي ليحقق الرابط النصي.

وسنحاول في الجداول الآتية توضيح أنواع التكرار الذي ورد في نص الخطبة.

التكرار التام	عدد تكراره	التكرار الجزئي	عدد تكراره	تكرار المرادف	تكرار
أنفسكم	3 مرات	صبرتم- الصبر	مرتان	العدو-طاغية	واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا
نفسى	3 مرات	أعدادكم-العدو	مرتان		المهم ... يقتله
اعلموا	3 مرات	الأبطال- بطل	مرتان	الجزيرة-المدينة	ثقة منه بارتياحكم للطعان
الأبطال	مرتان	أقوات- أقواته	مرتان	الأبطال-الفرسان	استماحكم بمجادة الأبطال
الجزيرة	3 مرات	حامل- احملوا	مرة	كلمته- دينه	ثواب الله على اعلاء كلمته
طاغية	مرتان	حظكم- حظي	3 مرات	الحوار- البنات	واظهار دينه بهذه الجزيرة
هلكت	مرتان	حضره	مرتان	الطعان- المجادة	ذهبت ربحكم وتعوضت
ملوك	مرتان	أنفسكم- نفسي	مرتان	المقصورات-الرافلات	القلوب برعها منكم ...
لكم	7 مرات	من دون- دونه	مرتان	أصهار- أختان	اعلموا أنني أول مجيب حامل
أمركم	مرتان	أمر- أمركم	مرتان		بنفسي على طاغية قومه

الممعن بالنظر في الجدول يتبين له انتشار أنواع التكرار بشكل متساو تقريبا وسنحاول دراسة كل نوع.

1.3 التكرار التام: جاء في الخطبة لتأكيد الوقائع وتثبيتها في ذهن السامع، فمثلا في قوله:

"واعلموا أنكم في هذه الجزيرة..."⁽³³¹⁾

"واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق..."⁽³³²⁾

"واعلموا أول مجيب إلى ما دعوتكم..."⁽³³³⁾

³³¹ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

³³² - نفس المرجع.

³³³ - نفس المرجع

جاء التّكرار التّام سعيًا من الخطيب إلى إقناع الآخر بدعاويه، فنجدّه في كل مرة يعود إلى نفس اللفظة حتى يعيد نصاعة الفكرة لدى المتلقي، ولأن طبيعة السامع تتجذب لكل أمر ورد على نفس الصورة. ضف إلى ذلك أن التكرار التام ورد في الألفاظ المؤثرة التي لا بد من تكرارها بالصيغة نفسها حتى تؤدي غرضها الإعلامي وكذلك التأثيري.

2.3 التّكرار الجزئي:

يتطلب هذا النوع من التّكرار "استخدام العناصر الأساسية للكلمة مع تغيير في صيغتها حسب مقولات الكلمة المتنوعة وبهذا الشكل يساعد التكرار على تنشيط المفاهيم"⁽³³⁴⁾ وهذا ما سعت خطبة طارق بن زياد إلى تثبيته.

فقله: " ... فليس لكم والله إلا الصّبر ..."⁽³³⁵⁾ .

" ... واعلموا أنكم إن صبرتم ..."⁽³³⁶⁾

فغاية هذا التّكرار إلى جانب الوظيفة الإيقاعية المؤثرة في السّامع، الاتساق الذي يضمّنه للنص من خلال تكرار المفردات على مستوى العناصر الأساسية.

3.3 تكرار المرادف:

يقول البلاغيون: " إن التّكرار بالترادف يشد الانتباه إلى أهمية هذا الشيء المكرر في عالم النص ويعتبرونه نوعا من أنواع الالتفات ..."⁽³³⁷⁾.

ونجد التّكرار بالترادف قد ورد في نص الخطبة بنسبة لا تقل عن باقي الأنواع الأخرى وهذا يدل على أن الخطيب يمتلك من الزاد اللغوي ما يضمن له إعادة المعنى بصياغة جديدة

³³⁴ - صلاح حسنين، مدخل إلى علم الدلالة، ص 243.

³³⁵ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

³³⁶ - نفس المرجع.

³³⁷ - صلاح حسنين، مدخل إلى علم الدلالة، ص 264.

فقله: "... ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه..."⁽³³⁸⁾ فإظهار الدين، هو إعلاء كلمته ولكنه وحتى يرادف من جهة ويبرز أهمية هذه المهمة من جهة أخرى اختار الكلمة للدلالة على الدين فالترادف خدم الاتساق النصي وعمل على توصيل المعنى الدقيق للمتلقى وهذا يعود إلى تفتن الخطيب إلى المفردات التي تخدم أهداف الخطبة والمتمثلة في جلب انتباه السامع والتأثير عليه وتقوية عزيمته.

3.4 تكرار المضمون بين جملتين متواليين:

إن تكرار المضمون على مستوى الجمل يبدو جليا وواضحا في نص الخطبة وهذا الأسلوب يحتفي احتفاء خاصا بإعادة صياغة المعنى وإيقاعية التوازن اللذين يعكسان تفكيراً مطولاً، تغلب فيه السلاسة والهدوء على الانتقالات المفاجئة أو السريعة⁽³³⁹⁾ وقد يقول والتر اونج WALTERONG "... ويميل التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي إلى أن يكون إيقاعياً بشكل ملحوظ لان الإيقاع يساعد على التذكر"³⁴⁰ إن طارق بن زياد اعتمد على هذا النوع عند سبك الجمل والربط بينهما والمتأمل حالات هذا النوع يجد أن الجملة الثانية تميل غالباً إلى أن تكون أعم وأقوى في دلالتها من الجمل الأولى التي تشترك معها في الدلالة العامة. ومن أمثلة ذلك قوله:

"ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحتكم بمجالدة الأبطال"⁽³⁴¹⁾

نلاحظ أن هذا النوع له أهمية خاصة في دفع المعنى إلى درجة أقوى فالخليفة اختارهم لأنه يعلم أنهم لا يخافون الحرب ولا الطعان هذا المعيار الأول الذي أسسه تم الاختيار ولكنه ليس المعيار الأساسي كونهم محاربة ومبارزة الأبطال وهذا المعنى وصل من خلال تكرار المضمون الذي زاد من فاعلية الثانية على الأولى. أما المثال الثاني فقله:

"اعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على

طاغية قومه... "

³³⁸- طارق بن زياد، من نص الخطبة.

³³⁹- محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص 247.

³⁴⁰- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

³⁴¹- نفس المرجع

نجد أن الخطيب يشرح الجملة الأولى من خلال الثانية وهذا ما يجعل الأثر أبلغ في النفس وأكثر إقناعاً للمتلقي.

فالخطيب (القائد) حامل بنفسه على طاعة القوم " وفي هذا دفع وتحفيز للجند، فالتكرار بين الجملتين أدى وظيفتين بالإضافة إلى السبك وجه طاقة حجاجية تخدم موضوع الخطبة. ويمكن القول أن التكرار وفر طاقة حجاجية، أحدثت أثراً في المتلقي الجند، وساعدتهم على تقبل أطروحة المتكلم (القائد)، ذلك لأنه تنوع بصفة حسنة وهذا التنوع خدم أهداف الخطبة، وترك آثاراً في سلوك الجند، وهذا ما تروم إليه الخطبة، التي ألقاها "طارق بن زياد" على جيشه، محفزاً إياهم للتغلب على جيش "الذريق".

4- أدوات التأكيد في دورها الحجاجي:

وهو "معنى" مستفاد من صيغ وأساليب لغوية معينة معروفة في العربية وغرض تواصلية يستخدمه المتكلم لتثبيت الشيء في نفس المخاطب وإزالة ما علق بها من شكوك وإمالة ما خالجه من شبهات⁽³⁴²⁾ وقد حدد الاسترأبادي الغرض من التأكيد وجعله في ثلاثة أشياء.

1. أن يمنع المتكلم غفلة السامع عنه.
2. أن يدفع ظنه بالمتكلم الغلط، فإذا قصد المتكلم أحد هذين الأمرين فلا بد أن يكرر اللفظ غفلة السامع عنه، أو ظن أن السامع ظن به الغلط فيه.
3. أن يدفع نفسه ظن السامع به تجوزاً⁽³⁴³⁾.

وقد حفلت الخطبة بأنواع كثيرة من التأكيدات نحاول أن نبينها من خلال الأمثلة التالية:

التأكيد بإن: قال الزركشي: "إذا قصدوا مجرد الخبر أتوا بالجملة الفعلية وإن أكدوا فالاسمية ثم بها وباللام"³⁴⁴ وذلك مثال قوله: "...ولأنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه.." ⁽³⁴⁵⁾

³⁴² - مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد وتوجيه، ص 234.

³⁴³ - رطي الدين الاسترأبادي: شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، تح، رحاب عكوي، ج2، ص 377.

³⁴⁴ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 405.

³⁴⁵ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

أكد بالأداة (إن) لدفع الشك أو الظن بأنه ربما يتخلف عن الركب فقد جاء بهذه الأداة ليبعد عن ذهن المستمع الشك الذي قد يراوده في قائدته والأمر نفسه في قوله: "... وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة"⁽³⁴⁶⁾

فالخطيب يسعى من خلال هذا التأكيد أن يفهم الجيش أنهم في مركب واحد ويواجهون نفس المصير فكونه القائد لا يعصمه من مواجهة العدو وجها لوجه.

وربما جاء بالقول التالي ليؤكد القول السابق، حين يقول:

"... وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي..."⁽³⁴⁷⁾

ففي هذا القول رد على كل تساؤل، قد يجول بخاطر الجند، وقد عمل هذا التأكيد على رفع معنويات المجاهدين، لعلمهم أن قائدهم سيتولى القضاء على قائد جيش العدو، ولم تتوقف سلسلة التأكيدات التي راح يعطيها في قوله: "... فإنهم بعده يخذلون..."⁽³⁴⁸⁾ تأكيد آخر لدفع الريبة عن سامعيه، حيث يؤكد أن جند "الذريق" سيولون الأدبار، بمصرع قائدهم وهذا القول هو في حد ذاته دفعا للقضاء على هذا الطاغية فيقتله تنتهي المعركة ويحسم الأمر لصالح المسلمين.

وإذا كانت (إن) أقوى من التأكيد باللام "فاللام تفيد تأكيد مضمون الجملة ولهذا زحلقوها في باب صدر الجملة كراهية ابتداء بمؤكدين ولأنها تدل بجهة التأكيد، وإن تدل بجهتين: العمل والتأكيد (...). وإذا جاءت مع "إن" كانت بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات لأن "إن" أفادت التكرير مرتين. فإذا دخلت اللام صارت ثلاثاً"⁽³⁴⁹⁾ كقوله: "... وإن انتهاز الفرصة فيه ليتمكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت..."⁽³⁵⁰⁾.

نلاحظ أنه أكد بمؤكدين (إن + اللام) وفي هذا دفع لإنكار المنكرين لفكرة الانتصار على جيش "الذريق" المتفوق عدة وعتادا ويمكن توضيح ذلك بالجداول الآتية:

³⁴⁶ - نفس المرجع.

³⁴⁷ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

³⁴⁸ - نفس المرجع، من نص الخطبة.

³⁴⁹ - الزركشي: في علوم القرآن، ج3، ص 396.

³⁵⁰ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

الجملة	عمل الكلام فيها	المفهوم
وأن انتهز الفرصة فيه ليمكن إنسمحتم ...	ألفت انتباهكم/ أبين لكم/ أعلمكم أصرح بأنه	إذن عليكم بالتفكير في خطة تمكننا منه/ عندما تتضافر الجهود تحين الفرصة
فإن هلكت بعده فقد كفيتمكم...	أخبركم أن قضائي على لذريق قد يهلكني أعلمكم...	إذن فالأحرى لكم أن تثقوا في كلامي فقد أكفيكم مشقة الحرب
فإن هلكت بعده فقد كفيتمكم		

نلاحظ أنه ضاعف من درجة التأكيد ليصل بهم إلى الإذعان والتسليم بفكرة النصر على العدو.

والقصر هو أيضا ضرب من التوكيد وتكرير للجملة فهو عند بعضهم "توكيد مضاعف" (351) وهذا النوع أيضا نجده في الخطبة مثل قوله: "... فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ..." (352)

زواج بين القسم والحصر وفي هذا تأكيد لدفع الإنكار فلا يمكن أن ينتصر الجنود على الأعداء إلا إذا تحلوا بالصبر وهو أعلى مراتب الإيمان والصبر هنا بمعناه الواسع كما لا يمكن التوفيق إذا غاب الصدق في نيتهم، الصدق في طلب الشهادة ولقد عطف على الصبر وعيا منه بمدلولهما، وتأثيرهما في عقلية المجاهد الذي يطلب الشهادة بل يسعى للظفر بها. وفي قوله: "... وأنتم لا وزركم لكم إلا سيوفكم ..." (353).

"... ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم ...".

"وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبداً بنفسي ..." (354)

351- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج15، ص 323.

352- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

353- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

354- نفس المرجع.

إذا كان القصر تأكيداً كما سبق ذكره فيظهر إفاد أنه العامل الرئيسي في ظهور حجاجية هذه الأقوال فتجريد الكلام من هذا النمط من التأكد من شأنه أن يفقده طاقته الحجاجية ويرده إلى طبيعته الإخبارية ومن هنا نفهم حرص الخطيب على انتقاء الأساليب المناسبة لتعمل على إشارة المتلقي والتأثير فيه سواء من الناحية النفسية أم العقلية.

لم تخل الخطبة من تأكيدات أخرى نذكر كمها على سبيل المثال لا الحصر، التأكيد بالصفة فقد وردت في عدة مواضع كقوله: " وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة"⁽³⁵⁵⁾ (نعت جملة).

" ... ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس " (نعت جملة).

" فقد ألفت إليكم مدينته المحضة " (نعت للمدينة)⁽³⁵⁶⁾

"وقد بلغتكم ... الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات ... والحلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ..."⁽³⁵⁷⁾

قال ابن يعيش: "تجني الصفة للتأكيد"⁽³⁵⁸⁾.

نلاحظ أنه في كل الأقوال السابقة، يؤكد بالصفة ففي قوله: .. فقد ألفت به إليكم مدينته المحصنة .."⁽³⁵⁹⁾ تنبيهاً لعناصر الجيش أن مهمة أصبحت أسهل بخروجه إليهم لأن اقتحام المدينة يصعب من المهمة ذلك لأنها محصنة ومعروف أن المدن المحصنة يصعب على الجيش دخولها. ثم يستعمل الصفة ليغري الجند ويحفزهم للإسراع بالنصر لأن ما ينتظرهم .. الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان ..."⁽³⁶⁰⁾

³⁵⁵ - نفس المرجع.

³⁵⁶ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

³⁵⁷ - نفس المرجع.

³⁵⁸ - بن يعيش: شرح المفصل، ج 2 ص 76.

³⁵⁹ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

³⁶⁰ - نفس المرجع.

حتى إذا كانت الصفة هنا "الممدح والثناء"⁽³⁶¹⁾ فإنها عملت على تحريك الرغبة في الفوز بالحدود الحسان، وهذه طبيعة البشر التي تسعى إلى الاستحواذ على الأجل والأحسن فالفائد يظهر من خلال خطبته معرفة بخبايا النفوس فيحاول أن يستغل هذا الجانب للتأثير والإقناع.

بالإضافة إلى الصفة نعثر على نوع آخر والمتمثل في العطف والمقصود هنا ما يقع بواسطة "الواو" فمن الكلمات والمركبات المعطوف بعضها على بعض ما يكرر بعضه بعضا من جهة المعنى بشكل يقترب من الترادف مثل قوله:

"... استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته..."⁽³⁶²⁾.

"... عطف الجيش على الأسلحة وما الجيش إلا سلاح"

"... لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوقولا حملتكم على خطة أرخص فيها..."⁽³⁶³⁾

نجد أن المعنى يتكرر فالمركب الأول يحمل نفس معنى المركب الثاني، فالخطيب يفصل بعد إجمال، وهو يدفع بالمتلقي إلى فهم الغاية من الخطاب، حتى إذا كان التسليم يكون عن دراية واقتناع، وهذا النوع من التكرير يزيد من القوة الحجاجية التي يسعى الخطيب إلى رفعها من خلال الأساليب المستعملة.

ونفس الأمر بالنسبة للقول الموالي:

"... ثقة منه بارتياحكم للطعانواستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان"

إن عطف المركبات من شأنه أن يفصل القول وفي هذا التفصيل شارات حجاجية تخدم القول وتثريه، فالارتياح للطعن هو نفسه الاستراحة بالمجادة، ويمكن القول أن هذا العطف نوع من الصيغ اللغوية وخدم الخطبة من الناحية الحجاجية.

ومن المؤكدات الواردة في الخطبة البديل إذا يقول ابن السيد: "ليس كل بدل يقصد به رفع الإشكال الذي يعرض في المبدل منه، بل من البديل ما يراد به التأكيد"⁽³⁶⁴⁾ مثل قوله:

³⁶¹ - عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 422.

³⁶² - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

³⁶³ - نفس المرجع.

"... من أمركم بمناجزة هذا الطاغية" (365)

"... وإظهار دينه بهذه الجزيرة..." (366)

"حامل بنفسه على طاغية قومه لنريق..." (367)

نلاحظ أن البديل وظف لغرض التأكيد وهذا ما تسعى إليه الخطبة، فلفظة "طاغية" عملت على التأكيد وليس التكرير... الخ.

ويتضح من كل ما تقد أن المؤكدات المذكورة تنهض بوظيفة حجاجية تتمثل في تقديم هذه المسائل للمتلقى حقيقة عليه باعتبارها مسلمات ومقتضيات غير قابلة للنقاش والمجادلة.

5- الحذف ووظائفه الحجاجية:

هو إسقاط جزء الكلام أو كله، يقول الجرجاني في هذا الشأن "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى ترك الذكر أفصح عن الذكر، والصمت عن الإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تتطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين (...)" ورب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد⁽³⁶⁸⁾ تنوع الحذف في خطبة "طارق بن زياد" لاعتبارات نتناولها بالشرح والتفصيل وسنركز على بعض الأقوال على سبيل المثال لا الحرص كقول الخطيب "... البحر من ورائكم، والعدو أمامكم..." (369)

حذف الخبر المتعلق بالمبدأ، وأصل الكلام (البحر موجود من ورائكم) و (العدو موجود أمامكم) "ولا يحذف المسند إلا إذا دل عليه دليل حالي أو مقالي"⁽³⁷⁰⁾ فقد حذف الخبر احترازا عن العبث في ذكره ولوجود المفسر (من ورائكم) (من أمامكم) فلو قال (البحر من ورائكم، والعدو موجود أمامكم) لوقع في التكرار الذي لا يخدم تناسق التركيب، ضف إلى ذلك أن هذا الحذف يعبر عن حالة من الضيق تحاشي الإفصاح عنها، بالتخفيف من بعض أجزاء القول،

³⁶⁴ - عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 454.

³⁶⁵ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

³⁶⁶ - نفس المرجع.

³⁶⁷ - نفس المرجع.

³⁶⁸ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز.

³⁶⁹ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

³⁷⁰ - عبد الفتاح لاثين: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص 154.

حتى لا يصدر هذا القلق إلى نفوس الجند، ثم إنه لجأ للطباق (أمامكم / ورائكم) لأن الذهن عادة ما يلجأ إلى المتعاكسين، لتحديد المفهوم أو ما غمض عنه، وفي هذا دفعا لجعل المتلقي لا يشرد بأفكاره، ويتابع تسلسل الخطاب وهذا المسعى يرومه النص الحجاجي.

أما النوع الثاني فيتمثل في حذف المبتدأ "فالمسند إليه ركن في الجملة والأصل فيه أن يذكر، فلا يعذر عن ذكره إلى الحذف إلا إذا كان في سياق الكلام قرينة تدل عليه وأفاد الحذف معنى إضافيا لا يستفاد عند الذكر"⁽³⁷¹⁾ كقوله: "... فقاتله إن شاء الله"⁽³⁷²⁾ وأصل الكلام (فأنا قاتله) وقد حذف المبتدأ كون المسند لا يصلح إلا "طارق" وفي هذا منحى حجاجي، أراد من خلاله طمئننته جنده قبل المعركة بأنه قادر على قتل هذا الطاغية، ويكفيكم عناء ذلك وفي هذا أيضا احتقارا لقائد جيش العدو ورفعاً لمعنويات الجند وتحفيزاً لهم على خوض غمار المعركة بكل بسالة والنوع الثالث فيتمثل في حذف المفعول به "إن المسند إذا ورد على صورة الفعل قد يتبعه قيود، من مفعولات وغيرها، وقد يتجرد منها. وكلما زادت فوائد الإسناد لأن المفعول هو ما وقع عليه الفعل (...). إذا أريد إثبات المعنى للفاعل من غير نظر إلى تعلقه بمفعول، ويكون المتعدى حينئذ كاللزام، قد يذكر المفعول لئلا يتوهم أن الغرض إثبات الفعل للفاعل من حيث تعلقه بمفعول"⁽³⁷³⁾ مثال قوله: "فاحملوا معي، فإن هلكت بعده..."⁽³⁷⁴⁾ غيب المفعول به لإثبات الفعل للفاعل على الإطلاق، وكذلك قصد التعميم في المفعول، فقد طلب مساعدة ومساندة جنده فهذا القول طي للمفعول والتركيز على الفعل والفاعل أي أن الأهمية انتقلت من المفعولية إلى الفاعلية وبالتالي نقل مركز الاهتمام في الجملة من موقع إلى موقع آخر وهذا الحذف شحن الخطاب بطاقة حجاجية تبعث على بعث الثقة في القائد والجند معا بحيث ساوهم بنفسه من خلال طلب العون مما يدل على الثقة التي وضعها فيهم، وقدرتهم على فتح الجزيرة والقضاء على "الذريق".

³⁷¹ - نفس المرجع، ص 152.

³⁷² - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

³⁷³ - صلاح حسنين: المدخل إلى علم الدلالة، ص 255.

³⁷⁴ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

6- التقديم والتأخير ووظائفهما الحجاجية:

يأتي التقديم "على وجهين، الأول على نية التأخير كخبر المبتدأ، إذ آخر عن المبتدأ، والثاني تقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن ينتقل الشيء من حكم إلى حكم، كتقديم المفعول على الفعل فيصبح فاعلا، ويكون الغرض الأساسي من التقديم لدى النحاة هو العناية (...). ذلك لأن التقديم لا يأتي لإبراز الفائدة في الكلام أو عدم الفائدة فقط وإنما يأتي لتمييز المعاني المختلفة التي تدور في ذهن السامع"⁽³⁷⁵⁾ وسنقدم أمثلة على هذا النوع كقوله:

"وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا ..."⁽³⁷⁶⁾

"... وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة ..."⁽³⁷⁷⁾

"... ولن يعوزكم بطل تسندون أمركم إليه ..."⁽³⁷⁸⁾

ففي المثال الأول قدم المفعول به (كم) على الفاعل (الوليد) لإبراز الاهتمام بالجند لقد أثار تقديم الجند على الخليفة وفيه تشجيعا لهم وإعلاء لمقامهم وأيضا ليصير الكلام حسنا متناسقا، ولو قال (وقد انتخب الوليد بن عبد الملك الجند) لصار القول عاريا من التناسق وخاليا من الطاقة الحجاجية التي يسعى المخاطب توصيلها إلى الجند الذين جاءوا من بعيد لفتح هذه الجزيرة وإعلاء كلمة الله على هذه الأرض. وبالتالي هم الأحق بهذا التقديم.

وكذلك الأمر في القول الثاني فقد قدم المفعول به (كم) على الفاعل (ما)، وفي هذا التقديم وظائف حجاجية تتمثل الأولى وهي الأهم والمتمثلة في المكانة التي يحتلها المجاهدون، فقد قدمهم على الخليفة لأنهم باعوا أنفسهم لله وثانیا في حصول دلالة التضمن (ما أنشأت) عوضا من الدلالة التصريحية وهذا أبلغ من الحجاج بواسطة الدلالة التصريحية، ضف إلى ذلك حرص المخاطب على عدم تشتيت انتباه المتلقي (الجند) وربطه بموضوع الخطابة.

³⁷⁵ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 75.

³⁷⁶ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

³⁷⁷ - نفس المرجع.

³⁷⁸ - نفس المرجع.

أما في القول الثالث فقد نقل مركز الاهتمام من موقع إلى آخر أي من الفاعل (البطل) إلى المفعول به (كم) وهذا النقل لمركز الاهتمام منطقي جدا لأن المجاهدين باعوا أنفسهم لله، وفي هذا قوة اقناعية تؤدي بالمتلقي إلى التأثر والاقتراع وتبني أفكار الخطيب.

ثم إننا نجد نوعا آخر من التقديم نلمسه في قوله:

"... وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم بأنفسكم للموت"⁽³⁷⁹⁾

المعلوم أن فعل الشرط يتقدم جواب الشرط ولكننا نلاحظ في هذا القول تقدم جواب الشرط (وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن) الخطاب يهدف إلى إقناع المتلقي بوجهة نظر معينة وحمله على السير في طريق رسمها الخطيب وحتى يتسنى للخطيب استمالة المتلقي قدم جواب الشرط تحفيزا له، ومراعاة لطبيعة البشر التي تنفر من الموت. فلو قدم فعل الشرط (إن سمحتم بأنفسكم للموت) لأجهض عملية التقبل والإقناع، لأن المقام يستدعي التحفيز والتذكير بالفرص المتاحة للتغلب على العدو، وترسيخ فكرة النصر بل الإيمان بها، ولهذا قدم جواب الشرط ليكون أول ما يطرب سمع المتلقي، فيقبل على المعركة متسلحا بهذا الإيمان، ففي التقديم طاقة إقناعية يفرضها الخطاب.

7- الأساليب الإنشائية وقيمتها الحجاجية:

اصطلحت الأساليب الإنشائية بدور هام في العملية الحجاجية، إذ كثيرا ما تبني الحجة بأسلوب إنشائي، وكثيرا ما تعضد الأساليب الإنشائية حججا قائمة الذات بما توفره من إثارة وما يستدعيه من عواطف وأحاسيس، ذلك لأن الأساليب الإنشائية خلافا للخبرية لا تنقل واقعا، ولا تحكي حدثا فلا تحتل تبعا لذلك صدقا أو كذبا، وإنما تثير المشاعر، وتشن من ثمة طاقة حجاجية هامة، لأن إثارة المشاعر ركيزة كثيرا ما يقوم عليها الخطاب الحجاجي وهو ما أكده "أوليرين" في قوله "الأمر والتهديد وإثارة مشاعر الخوف كلها حجج لأنها دون أن تحدد أليا الموقف توفر الأسباب الداعية لاختيار هذا الموقف."⁽³⁸⁰⁾ ومن أهم الأساليب الإنشائية.

³⁷⁹ طارق بن زياد: من نص الخطبة.

³⁸⁰ - محمد العمري: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 102.

1.7 الاستفهام:

حظي السؤال منذ الفلسفة اليونانية باهتمام كبير (....) وقسما أكد سقراط أن عملية التفلسف لا تعدو أن تكون طرحا لأسئلة، لا تبحث عن أجوبة بل تحاول الكشف عن الجواب المتوهم لدى المخاطب (....) وقد جعله أرسطو تابعا للجدل ووجها من وجوهه المتعددة. وقد أعاد المحدثون النظر في قضية المساءلة لأسباب كثيرة، وحاولوا تقديم إضافات تنطلق من قراءة جديدة لتاريخ الفلسفة من أبرز هؤلاء "ميشال مايير (Michel Meyer) الذي قدم في كتابه الموسوم De la problématique النظرية المسائلة (التي تعنى بدراسة المساءلة)⁽³⁸¹⁾.

إن السائل متى طرح سؤالاً دعا المتلقي إلى اتخاذ قرار بل إن الجواب حتى وإن علم السؤال الذي هو مصدره يثير السؤال⁽³⁸²⁾ فمن هنا ندرك أهمية المساءلة من الناحية الحجاجية إذ لما كان الكلام إثارة السؤال أو استدعاء له فإنه يولد بالضرورة نقاشاً (...) على هذا النحو ندرك خطورة طرح الأسئلة في الخطاب، إنها وسيلة هامة من وسائل الإثارة ودفع الغير إلى إعلان موقفه، إزاء مشكل مطروح⁽³⁸³⁾ وهذا ما جسده السؤال الذي افتتح به الخطيب خطبته، دفع المتلقين إلى الإعلان عن موقف معين إزاء المشكل الذي يتواجد فيه الجيش، والمتمثل في كيفية التصدي لجيش العدو.

فقله: "... أيها الناس أين المفر؟ ..." (384)

فالموقف الذي ينبغي على المتلقي إعلانته قد حددته جملة من الألفاظ و القرائن النصية. كالبحر من ورائكم - العدو أمامكم - الضياع - جيش - عدو - أسلحة الباحث يدفع المتلقي إلى الإقرار بالمأزق الذي هم فيه، فلا جدوى من محاولة العودة إلى الوراء، لأن البحر يشكل عائقاً ولا يملكون وسائل العودة إلى الوراء، لأن البحر يشكل عائقاً ولا يملكون وسائل العودة إلى الوراء، ولقد اعتمد رابطاً حجاجياً ونعني به أداة الحصر إلا التي وجهت القول كله إلى ما جاء بعدها وتدفع المتلقي إلى تبني الموقف المحدد إثرها، "على

³⁸¹ - م علي القارصي: مقال البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لمايير ميشال، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد

الغربية من أرسطو إلى اليوم ص 394.

³⁸² - نفس المرجع ص 395.

³⁸³ - نفس المرجع ص 396.

³⁸⁴ - طارق بن زياد من نص خطبته.

أن طاقة السؤال الإقناعية تنبني في أغلب الأحيان على الضمني لا على المصرح به وهو أمر تعرض إليه ديكرو حين بين أن الافتراضات الضمنية في بعض الأسئلة هي التي تجعل الاستفهام أسلوباً حجاجياً لأن أية إجابة مهما كان نوعها لا بد أن تسلم بتلك الافتراضات بل تقر ضمناً بصحتها⁽³⁸⁵⁾ وهذا ما نلمسه في نص الخطبة فبعد السؤال قدم القائد الحل ضمناً في قوله: "فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام..."⁽³⁸⁶⁾ على هذا ندرك قدرة السؤال على الاضطلاع بدور حجاجي مع تعويل السائل على الضمني وبالتالي يوجه المتلقي إلى ما يرمي إليه ويثير عاطفته وهذا ما سعى حجاجي في الخطبة التي نحن بصدد تحليلها.

2.7 الوظيفة الحجاجية لأسلوبي الأمر والنهي:

اهتم الدارسون "بالفعل وعلاقته في إطار الحجاج اللغوي إيماناً منهم بأن اللغة كما يقول برلمان ليست وسيلة تواصل فحسب بل إنها أيضاً أداة تأثير في النفوس ووسيلة إقناع"⁽³⁸⁷⁾ وأبرز من بحث في الأفعال وعلاقتها بالأقوال أو ستين (AUSTIN) إذ أكد أنه لا يمكن الحديث عن قول في صورته المجردة بل إن كل قول له غاية عملية ما، وهو في ذاته عمل نقوم به، لذلك يسميه أوستين بالعمل القولي (acte locutionnaire) غير أننا نجد أقوالاً كثيرة، تهدف بالأساس إلى صياغة واقع جديد، وتكون هذه الأقوال عادة بين حضور طرفي الخطاب، في المكان والزمان فبمجرد صياغة القول يحدث فعل ما، وهو ما يسميه أوستين بالعمل اللاقولي (acte illocutionnaire) ومن ثمة تنتهي إلى أنه لا يوجد قول نقوله إلا وهو يحمل عمليتين: عملاً قولياً و عملاً لا قولياً.⁽³⁸⁸⁾ ومنه يمكن القول أنه لا حديث عن قول منفصل عن القول نفسه قد يكون فعلاً خاصة إذا كنا بإزاء خطاب حجاجي يسعى إلى الإقناع وهذا الأمر يبينه قول طارق بن زياد: "اعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام..."⁽³⁸⁹⁾

³⁸⁵ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 206.

³⁸⁶ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

³⁸⁷ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 174.

³⁸⁸ - أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج ص 163.

³⁸⁹ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

الخطيب ينقل لنا واقعا جديدا، أصبح يعيشه رفقة جيشه وذلك عن طريق الفعل "اعلموا" فهو يبين ويشرح الوضع الذي هم فيه، لكم سرعان ما يتحول من نقل وإخبار إلى صنع وانجاز، انجاز لواقع طارئ ونلمس ذلك في قوله: "فادفعوا عنكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية"⁽³⁹⁰⁾ بمعنى التصدي لهذا الطاغية بكل الوسائل المتوفرة حتى وإن كانت ضئيلة فالمواجهة هي الحال الوحيد، حتى لا تذهب ربحكم ويستسهلكم العدو.

والفعل "ادفعوا" يحمل طاقة حجاجية هامة لأنه ينجز واقعا خاصا ويبنى بالكلام عالما متميزا.

وفي الإطار ذاته نجد المدح يتوجه الخطيب إلى جيشه معلنا أنهم نخبة الجيش الإسلامي ولهذا خصهم الخليفة بهذا الشرف العظيم الذي يتمناه كل مجاهد حيث يقول:

"... وقد انتخبك الوليد بن الملك، أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا..."⁽³⁹¹⁾

فالفعل "انتخبكم" يجسد واقع المدح والإقرار بأفضلية هؤلاء المجاهدين فهو يعلي من شأنهم وهذا له علاقة وطيدة بالحجاج، إذ ليس هناك أبلغ من صياغة هذا الواقع في الإقناع، بصدق المديح، والاستدلال على أحقيتهم في الفوز بمغانم الجزيرة، وبالتالي حملهم على تقبل خطاب القائد واحتضان الأفكار.

"إن توجيه الخطاب إلى المتلقي إما له بالفعل، أو نهيا لع عن ذلك يحمل طاقة حجاجية"⁽³⁹²⁾ وفي الأسلوبين الأمر والنهي طاقة حجاجية لأن "الأمر والنهي أسلوبان إنشائيان ينتميان إلى صنف الأفعال التي وسمها أوستين (actes perlocutionnaires) أي الأقوال التي فيها انجاز لأفعال معينة ولكنه انجاز ضمني لأن صيغتي الأمر والنهي تحملان معنى الدعوة، ومن ثمة تبدو صلتها بالحجاج وثيقة لأنهما يهدفان إلى توجيه المتلقي إلى سلوك

³⁹⁰ - نفس المرجع.

³⁹¹ - نفس المرجع.

³⁹² - أبو بكر العزاوي: الحجاج واللغة ص 121.

معين⁽³⁹³⁾ ففي قوله: "اعلموا أنكم إذا صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالألفة الأبد طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظكم فيه أوفى من حظي..."⁽³⁹⁴⁾.

حكمت الصيغة الأمر والنهي هذا القول ومثلنا دعوة واضحة إلى تبني جملة من القيم وتحويلها إلى أفعال ومواقف وهي قيم نبيلة ومتعارف عليها كالصبر من أجل تحقيق غاية سامية ولكن الأهم من ذلك أن مجرد قيام الخطيب أمرا وناهيا، له قيمة حجاجية فمن أعطى نفسه حق الأمر والنهي، هو بدون شك مطلعا على خبايا الأمور، فكان بالتالي حقيقيا بالطاعة، وهو أمر يعيه "طارق بن زياد" بدليل قوله: "واعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه"⁽³⁹⁵⁾ والخطبة ترخر بهذا النوع من الأفعال التي صاغها بطريقة تحمل السامع على الإقرار بصدق الدعوة ومن أمثلة ذلك.

"فاحملوا معي فإن هلك بعدة فقد كفيتكم أمره..."⁽³⁹⁶⁾

فالدعوة المدبرة عنها بالفعل "احملوا" تعبر عن صدق العاطفة والحاجة الماسة إلى المساعدة فقد تحول الطلب إلى طاقة اقناعية هامة، خاصة وأنه قدم نفسه عليهم وكيف لا وهو قائد الحملة. وكذلك قوله: "... فاخلفوني في عزيمة هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة..."⁽³⁹⁷⁾.

نلاحظ في كل مرة أن الخطاب يرتقي في درجة الإقناع والتأثير وهو ما يبينه الأفعال - أخلوني - احملوا - اكتفوا - فهو يدعو بالحاح إلى القضاء على لذريق وفتح الجزيرة لأن هذا الأمر فيه تمكين لدين الله لإذن الخطاب يتوجه إلى قلوبهم ليؤثر في سلوكهم.

كما إن الأمر والنهي نابضات بالإثارة، قادران على تحريك الوجدان وإحداث ما ينشد المتكلم تحقيقه في المثلي، من انفعال كبقية الأساليب الإنشائية، كالتمني والدعاء، والقسم... الخ.

³⁹³ - محمد العمري: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 67.

³⁹⁴ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

³⁹⁵ - نفس المرجع.

³⁹⁶ - نفس المرجع.

³⁹⁷ - نفس المرجع.

8- الاستعارات المجازية والفعل الحجاجي في الخطبة:

أولت الدراسات اللسانية المعاصرة الاستعارة، مكانة خاصة، في تحليل الخطاب، وخاصة في الخطاب الحجاجي، باعتباره آلية تساهم كباقي الآليات في بناء القول الحجاجي من مختلف النواحي الحجاجية، وذلك بغية التأثير والإيقاع.

1. انطلق الأصوليون العرب لفهم المعاني والدلالات اللغوية، من حقل "تداولي" يقوم

على الاستعمال فنظر إلى الظاهرة اللغوية من خلال حقيقتين⁽³⁹⁸⁾

أ- الحقيقة الوضعية وهي اللفظ المستعمل أولاً فيما وضع له.

ب- الحقيقة المعرفية وهي اللفظ المستعمل فيما وضع له، في عرف الاستعمال فأطلقوا المجاز وهو يعني كل انتقال من معنى إلى آخر لما بين المعنيين من تعلق. وتكون المزية إثبات وجه الشبه وهذا ما عرف عند البلاغيين أيضاً بالمجاز ويقول الجرجاني: "الكلام على ضربين، ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكم بذلك اللفظ على معناه الذي يقضيه موضوعه، في اللغة، ثم نجد لذلك المعنى دلالة تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر الكفاية والاستعارة والتمثيل أولاً ترى أنك إذا قلت في المرأة "تؤوم الضحى" فإنك تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ على المعنى الذي يوحيه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من "تؤوم الضحى" في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها، وهو تعريف دقيق يميز بين ظاهر اللفظ وخفية..."⁽³⁹⁹⁾

إن الاستعارة باعتبارها مجازاً، تقوم على الجمع بين شيئين أو فكرتين انطلاقاً من العلاقة الشبيهة من أجل تقديم صورة جديدة، أو مخترعة تتدخل فيها عملية التخيل والإبداع "ذلك لأن الاستعارة عند قدمائنا العرب المتنورين ليست فقط زخرفاً أو نقشا لتزيين الكلام، ولكنها فن لغوي تداولي يعطي للقول قوته الدلالية، وإصابته النفسية تأثيراً، وانفعالا واستحساناً"⁽⁴⁰⁰⁾

³⁹⁸ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 112.

³⁹⁹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ص 301.

⁴⁰⁰ - محمد عمران: حجاجية الصورة الفنية في الخطاب العربي، ص 67.

وإذا كان هذا شأن الاستعارة عند العرب فإنها عند الغرب "تركيب لسانی سليم، تمثل خصوصية منطقية، ليست دائماً كاذبة وتتميز عن عمليات المشابهة أو المماثلة لكونها تلتزم بوجود خصوصية مشتركة للقضايا المطروحة.

كما تتميز بكونها متغيراً يختلف من شخص لآخر، ولا يمكن الإتيان بمعادل معناها، لأنها أصلاً تستعمل في الحالات التي يستطيع قول آخر أن يؤدي نفس المعنى، ونفس التأثير" (401).

وبين سوزل واكو أن الاستعارة "لا تؤسس علاقة تشابه بين مرجع ومرجع ولكنها تؤسس علاقة مقارنة بين محتويات التعبيرات المختلفة ومن ثم فهي لا تعوض بتعابير لسانية أخرى، لكنها تضع في المقابل تعبيرين متميزين حاضرين في التظاهرات الخطية للخطاب موضع تفاعل" (402).

انطلاقاً من المفاهيم والتعريفات السابقة يمكن القول أن الاستعارة تعد آلية حجاجية فإذا كانت الاستعارة الشعرية تمتلك السامع أكثر مما ترغمه، فإن الاستعارة الحجاجية تكون أكثر قهراً واقتصاراً (403) وقد بين طه عبد الرحمن بأن وظيفتها داخل الحجاج تكمن في إضافة شيء جديد، هو تكثيف القول انطلاقاً من بعض الصور المجازية، لكي بشكل قوة في المعنى والبيان حتى يتسنى للمتكلم من خلال هذه القوة تمرير موافقته وأطروحاته (404) ويذهب جورج لايكوف في كتابه "الاستعارات التي نحيا بها إلى" أن الاستعارة من أكثر الوسائل الأسلوبية رواجاً في كلام البشر والإنتاج الأدبي (405) ويمكن القول أن الاستعارة المكنية احتلت حيزاً لا بأس به في حقل التصوير وهي أكثر وروداً من الاستعارة التصريحية نظراً إلى اختفاء المشبه به وحلول شيء من لوازمه حيث نجد المتلقي في هذا اللون من التصوير فاعلاً وإيجابياً يعمل الذهن، ويمد النظر لتأليف الهيئة الحاملة لظلال الصورة الفنية، ذلك أن المتلقي في الاستعارة التصريحية يتلقى الفكرة جاهزة مكتملة العناصر، وأما في الاستعارة المكنية فغنه يحتاج أن

401 - Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique. ED P 60.

402 - I Dib p 155.

403 - I Dib p 349.

404 - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكثر العقلي، ص 304.

405 - جورج لايكوف: الاستعارات التي نحيا بها، تر محمد عبد الجليل العريض، ص 21.

يعمل ذهنه ليكمل العناصر الناقصة من الصورة، فكأنه يشترك مع المرسل في إكمال أجزاء الصورة.

وإذا نظرنا إلى استعارنا "طارق بن زياد" وجدناه أميل إلى إخفاء المستعار وإحلال بعض لوازمه محله، حتى يجعل الخطاب أكثر عمقا، وإيحاء وتأثيرا في السامع. كما في قوله: "... وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تتجزوا لكم أمرا..."⁽⁴⁰⁶⁾ شبه الأيام بشيء مادي يمتد وحذف المشبه به وجاء بأحد لوازمه (يمتد) ولقد اختار [الامتداد - امتدت] لما فيه من طول الوقت والانتظار، والقلق الذي ينتاب الجند مع انتظار المجهول، وفي هذا اللفظ قوة تعمل على تحريك النفس.

فالاستعارة عملت على تكثيف القول لأن القائد لم يشرح ولم يفصل بل ترك المتلقي يمعن التفكير ويقلب الأمر على جميع الأوجه حتى إذا ما وصل إلى نتيجة معينة تكون أوقع وأكثر تأثيرا من تلك الجاهزة.

وكذلك في قوله: "... فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة..."⁽⁴⁰⁷⁾

في كل مرة يحذف المشبه به ويخفيه حتى يكون الوقع أشد لقد شبه العاقبة بأمر مادي يمكن دفعه وفي هذا الربط بين الخذلان والعاقبة تحريكا للخيال ليتصور ما مدى مأسوية هذه العاقبة. إذا لم يسعى الجند لدفعها، لقد عرف كيف يحرك مخيلة السامع، ويسمو به من حقيقة الواقع إلى فضاء الخيال، انطلاقا من عمليات ذهنية تقوم على التأويل وبهذا الأسلوب استدرج الخطيب متلقيه بشكل غير مباشر وأثار انتباههم إلى ما يقوله، وما يريد الوصول إليه.

والقول الاستعاري انتشر بطريقة مكثفة في الخطبة مما يدل على أن القائد يسعى إلى ترك المجال مفتوحا أمام التأويلات المختلفة للسامع حتى يشرك سامعيه فيما يذهب إليه وبالتالي يؤثر فيهم وهو ما نلمسه في قوله: "... وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم

لأنفسكم بالموت..."⁽⁴⁰⁸⁾ حذف المشبه به وأفصح بأحد لوازمه (سمحتم) فقد شبه النفس بالشخص الذي يسمح له بالتصرف ولكن السماح للنفس لا يكون بالموت بل بأمر آخر، وهذه

⁴⁰⁶ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁴⁰⁷ - نفس المرجع.

القاعدة يمكن أن نصفها بالحجاج الخاطئ فهو يومهم بالشيء ويقصد غيره، ويمكن أن تحدث في نفس المتلقي ثغرات في الاستقبال، سببها بنية الصياغة، وظرف الخطاب وينتج عنه:

- هل المحارب لا يسمح لنفسه بالموت.
- هل الموت كائن حي؟ أم مبتغى المقاتل المسلم/ الشهادة ...
- كما نجد قوله: "... ثقة منه بارتياحكم للطعان ..." (409)

فالعادة أن لا يرتاح الإنسان للحرب ولكن القول جاء ليحدث نوعاً من الصدمة قصد التأثير في المتلقي

- وأيضاً قوله: "... وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاعة ..."
- وأيضاً: "... ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته ..."
- "... وإظهار دينه بهذه الجزيرة ..." (410).

لقد وظف الخطيب الاستعارة في خطبته بشكل ملفت للنظر فالإي الجانب البعد الجمالي الذي أضفته على الخطبة عملت على تقوية المعنى وتمكينه.

لقد أراد من وراء استخدامه للاستعارة تجسيد المعنوي وإعطائه أبعاداً ومادية محسوسة حتى ليتمكن رؤيته أمام ناظريك، فهو يجسد الفكرة الذهنية ليسهل على العقول إدراكها بمساعدة الشعور والخيال، فالصورة إذن لا تخاطب العقل، وإنما المشاعر والخيال، ومحاولة إشغال الشعور بإعادة تركيب الصور التي تثيرها لديه، "إنها تستخدم في الغالب للتذكير بالمشاعر العاطفية المقترنة عند المتلقي" (411) وهذا كله يتوافق مع أرسطو الذي اعتبر الاستعارة بمعناها عنصر إغراب، يحدث الهيبة والعجب يقول: "وإنما كانت الألفاظ المغربة تعطي في المعنى أمراً زائداً لمواضع الغرابة فيها، فإنه كما يعرض لأهل المدينة أن يتعجبوا من الغرباء

⁴⁰⁸ - نفس المرجع.

⁴⁰⁹ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

⁴¹⁰ - نفس المرجع.

⁴¹¹ - حسني الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي ص 295.

الواردين عليهم، وتخضع لهم أنفسهم، كذلك الأمر في الألفاظ الغريبة عند ورودها على الأسماع"⁽⁴¹²⁾ وإذا كانت الخطبة تزخر بالاستعارات، فإنها لم تخل من المجاز المرسل ولقد ذهب بعض اللغويين إلى أن "أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة"⁽⁴¹³⁾ ففي قوله: "... تعوضت القلوب برعبها منكم الجرأة..."⁽⁴¹⁴⁾ أراد بالقلب الشخص، والقلب هو أهم ما في الإنسان، فلقد أعطى الجزء، وأراد الكل فالمجاز في هذا التركيب ربط بين الجمال والإقناع لأن المعنى يحتاج إلى جمال يوشيه، ويحفظ له رونقه ويدعم فعله، كما نجد المجاز المرسل في قوله: "... ألقت إليكم مدينته المحصنة..."⁽⁴¹⁵⁾ فالعلاقة في هذا المجاز علاقة محلية أراد الخطيب من خلالها التأثير في المتلقي، بأن المدينة نفسها ألقت بهذا الطاغية للقضاء عليه، والتخلص منه خارج أسوارها المحصنة وفي هذا دفعا معنويا للمجاهدين، فالمجاز حمل القول طاقة حجاجية تفقد لو كان القول مباشرا عاديا، إلى جانب المجاز المرسل نعثر على صورة بيانية ثالثة والمتمثلة في التشبيه.

يرى عبد القاهر الجرجاني أن "الشئين إذا أشبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين أحدهما: أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول، والآخر أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول"⁽⁴¹⁶⁾ وهذا نلمسه في قول الخطيب "اعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام"⁽⁴¹⁷⁾ شبه صورة الجيش في هذه الجزيرة البعيدة كصورة أيتام في مأدبة اللئام الذين لا يكثرثون لأمره وكان مقصده في ذلك إقامة الحجة على متلقي الخطاب عبر تقريب المعاني وتجسيدها لأن ظروف الحرب تتطلب أن يبرر الخطيب الصورة في أوضح مظهر مشبعة بأبين دلالة، فلا أبلغ من صورة اليتيم عند اللئيم، أراد بهذا التشبيه التمثيلي تحريك مشاعرهم والتأثير فيهم بل ودفعهم إلى التفكير في تغيير الوضع وترجيح الكفة لصالحهم على أنه ليس التشبيه الوحيد الذي عثرنا عليه في نص الخطبة فهناك قوله: "ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ فيها بنفسي..."⁽⁴¹⁸⁾ هذا الأسلوب بتجرده من الأداة يتميز بالمطابقة التامة بين المشبه والمشبّه به وبخلوه من وجه الشبه يتميز

⁴¹² - محمد العمري : في بلاغة الخطاب الإقناعي ص 124.

⁴¹³ - علي عمران: حجاجية الصورة الإقناعي ص 131.

⁴¹⁴ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁴¹⁵ - سامية الدريدي: الحجاجي الشعر الجاهلي ص 269.

⁴¹⁶ - نفس المرجع ص 270

⁴¹⁷ - طارق بن زياد : من نص الخطبة.

⁴¹⁸ - نفس المرجع.

بإجمال التقريب بينهما مما يسمح باعتبار التشبيه البليغ أسمى درجات التشبيه وباعتماده هذا التركيب دفع بالمتلقي إلى تقبل أطروحته وهذا مسعى حجاجي واضح في الخطبة.

التشبيه الذي اعتمده طارق بن زياد، وسيلة تأثير وإقناع مهمة غرضه التوضيح والإفهام والانتقال بالمعنى من الإجمال والعموم إلى التفصيل والتخصيص وبالتالي يهيمن على فكر المتلقي ومن بين ما استرعى انتباهنا في وضعها في المواضيع الملائمة لها.

ويمكن إجمال القول في موضوع الاستعارة والذي نعني به كل أنواع التشبيه وكل أنواع الاستعارة أنها تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه المتلقي إلى وجهة للخطاب محددة ومن ثمة تحقيق أهدافه الحجاجية.

8- المحسنات البديعية ودورها الحجاجي:

يستعمل المرسل "أشكالا لغوية بأنها أشكال تنتمي إلى المستوى البديعي، وأن دورها يقف عند الوظيفة الشكلية ولكن لها دورا حجاجيا لا على سبيل زخرفة الخطاب ولكن بهدف الإقناع والبلوغ بالآثر مبلغه الأبعد..."⁽⁴¹⁹⁾ والبلاغة العربية "ملئمة بهذه الصور والشواهد التي تثبت أن الحجاج من وظائفها الرئيسية، وليس وجودها على سبيل الصنعة في أصلها وإن كان لا يمنع المخاطب من أن يبدع كيفما شاء"⁽⁴²⁰⁾.

وإذا أدركنا أن الآليات القياسية التي تتحكم في بناء الخطاب، تقوم على عمليات التفريق والإثبات مثل المقابلة والجناس والطباق وغيرها اصطناعا للتحسين والبديع وإنما أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ...⁽⁴²¹⁾

وإذا تفحصنا نص المدونة وجدنا بعض المحسنات البديعية كقوله "...البحر من ورائكم والعدو أمامكم..."⁽⁴²²⁾ فطباق الإيجاب أعطى صورة واضحة للموضع الذي يتواجد فيه الجند، بل أكثر من ذلك فقد عمل الطباق على تجسيد صعوبة الموقف وحساسيته، فالبحر وراء

⁴¹⁹ - عبد الهادي بن طاهر الشهدي: استراتيجيات الخطاب، 307.

⁴²⁰ - نعمان بوقرة، تفسير النصوص وحدود التأويل عند ابن حزم الأندلسي، ص 91.

⁴²¹ - علي عمران، حجاجية الصور الفنية في الخطاب العربي، ص 89.

⁴²² - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

الجند فلا عودة لأن سفنهم أحرقت، والعدو أمامهم بأسلحته الموفرة أمام قتلهم وضعف أسلحتهم فما كان ليصل هذا الإحساس لولا الطباق الذي وظفه الخطيب للرفع من درجة الحذر والاستعداد فالصورة البلاغية ذات قيمة حجاجية "إذا أحدثت تغيير في الرؤية وكذا إذا بدا استعمالها طبيعياً في الموقف..."⁽⁴²³⁾.

ونجد الطباق أيضاً في قوله: "... إن صبرتم على الأشق القليل استمتعتم بالألفة الألد طويلاً..."⁽⁴²⁴⁾ فالطباق "ليس بالضرورة ترفا لفظياً فحسب بل تعبير في أكثر الأحيان عن حركة نفسية متوهجة، وصراع بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، بين الراهن والمتوقع... فكثرة المعارضات تشف عن غليان داخلي ورفض للأمر الواقع"⁽⁴²⁵⁾ فالخطيب حاول أن يبعث الأمل في المستقبل وما يحمله من نعيم ورغد في الحياة، فلجأ إلى الطباق الذي عمل على إقناع المتلقي، أن الشقاء مدته قصيرة، بينما النعيم سيكون أطول، والطبيعة البشرية تروم الدائم على الزائل في كثير من الأحيان.

ومن المحسنات البديعية التي نعثر عليها في نص الخطبة السجع، الذي يطالعك من بداية الخطبة إلى آخرها ورغم ذلك لا نشعر بالتكلف الذي نجده في بعض النصوص النثرية، على العكس تماماً فقد أضفى على نص الخطبة نوعاً من القوة والحماسة وعمل على رفع درجة التأهب والاستعداد لمواجهة العدو.

ففي قوله: "... البحر من ورائكم والعدو أمامكم..."⁽⁴²⁶⁾ فالسجع وقع بين (ورائكم وأمامكم) وهو ما يسمى "بالمتوازي" وقوله أيضاً "أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام..."⁽⁴²⁷⁾ جاء السجع "مطرفاً".

وأيضاً "إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالألفة طويلاً..."⁽⁴²⁸⁾ فنلاحظ أن تغيير شكل السجع من فقرة إلى أخرى ينم عن مدى تحكم الخطيب في مثل هذا النوع من المحسن.

⁴²³ - عبد الهادي بن ظافر الشهدي: استراتيجيات الخطاب، 319.

⁴²⁴ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

⁴²⁵ - محمد أحمد قاسم ومحي الدين ذيب، علوم البلاغة، ص 26.

⁴²⁶ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

⁴²⁷ - نفس المرجع.

⁴²⁸ - نفس المرجع.

فقد جاء مرة قصيرا ومرة أخرى متوسطا ومرة ثالثة طويلا مثل قوله: "... وقد بلغكم ما أنشأت... ذوي التيجان" (429).

وكذلك قوله: "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان ... الفرسان ..." (430).

⁴²⁹ - نفس المرجع.

⁴³⁰ - نفس المرجع.

تقنيات المواجهة
في الخطبة على
ضوء أنواع الحجج

توطئة:

إن الحديث عن بنية الحجاج في أي خطاب حجاجي يعني بالضرورة النظر في مختلف التي وظائفها المحتج لغاية الإقناع أو الحمل على الإذعان، وكمعرفة البنية الحجاجية في خطبة "طارق بن زياد" اعتمدنا تصنيف برلمان وتيتكاه في كتابهما "الخطابة الجديدة" والذي شرحه ووضحه عبد الله صولة "في مقاله المذكور في كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" وتبين أنه يمكن رد حجة ما، إلى أكثر من تصنيف وذلك لانفتاحنا على أكثر من تأويل ولطبيعة الحجاج البعيدة عن الصرامة والدقة اللتين لا تظفر بهما إلا في مجال البرهنة العلمية.

وهذه الأصناف الكبرى هي التالية:

1. حجج شبه منطقية Argument quasi-logiques
2. حجج تؤسس على بنية الواقع Argument fondés sur la structure du réel
3. حجج تؤسس بنية الواقع Argument fondant la structure du réel
4. حجج تستدعي القيم Argument fondés sur les valeurs
5. حجج تستدعي المشترك Argument basés sur le commun

1- الحجج شبه المنطقية:

إن الحجاج في جوهره ينبذ قانون "الكل أو لا شيء" أي يرفض الصرامة في ضبط الحدود والفروق، ويجد في المنطقة الوسطى المتسمة بالغموض تربة خصبة ... فحقيقة هذه الحجج أن كل حجة منها تستند إلى مبدأ منطقي، كالتطابق أو التعددية، أو التناقض يقول "برلمان" موضحا هذا الأمر "إنها حجج تدعي قدرا محددا من اليقين من جهة أنها تبدو شبيهة بالاستدلالات الشكلية المنطقية، أو الرياضية ومع ذلك فإن من يخضعها إلى التحليل ينتبه في وقت قصير إلى الاختلافات بين هذه الحجج والبراهين الشكلية لأن جهدا يبذل في الاختزال، أو التدقيق يسمح بمنح هذه الحجج مظهرا برهانيا، ولهذا السبب ننعته بأنها شبه منطقية⁽⁴³¹⁾ ويذهب برلمان في هذا المجال إلى أن من يعتمد حججا شبه منطقية في خطابه الحجاجي، قد يحاول أحيانا إظهار الاستدلال المنطقي الذي تعود إليه الحجة مفتخرا بطابعها المنطقي محاولا توظيفه للإقناع وقد يخفي أحيانا كثيرة مرجعه الاستدلالي بحيث يشكل النسيج الداخلي للحجة⁽⁴³²⁾ ويمكن القول أن الحجج شبه المنطقية تنقسم إلى فرعين: حجج شبه منطقية تعتمد البنى المنطقية كالتناقض والتعددية... وحجج شبه منطقية تستند إلى العلاقات الرياضية كإدماج الجزء في الكل، وتقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له⁽⁴³³⁾.

1.1 الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية:

التناقض وعدم الاتفاق: إن التناقض الصارخ من قبيل أبيض/أسود نادرا جدا في الحجاج، فالخطاب الحجاجي قلما يلتجئ إلى الاستدلال بالخلف (par l'absurde) ولكنه يحتفل احتفالا واضحا بعدم الاتفاق (incompatible) إذ يدفع الحجاج أطروحة ما مبينا أنها لا تتفق مع أخرى⁽⁴³⁴⁾ وإن لم نجد هذا النوع من التناقض وعدم الاتفاق في الخطبة بشكل صريح فإننا نلمسه من خلال المقابلة بين مبدأ أو فكرة ونتائجها ومثال ذلك قول طارق "أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس

⁴³¹ - محمد العمري: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 144.

⁴³² - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 192.

⁴³³ - نفس المرجع ص 194.

⁴³⁴ - محمد العمري: هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي، ص 174.

لكم والله إلا الصدق والصبر... وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم...⁽⁴³⁵⁾.

فهو يبرر الحاجة إلى مواجهة العدو، وهو نقيض مبدأ السلم وحجته في ذلك مقابلة يجريها بين هذا المبدأ ونتائجه السلبية، فهم إن استسلموا ولم يقاوموا كانت نهايتهم على يدي "الذريق" وجنده ذلك لأن كل أسباب القوة هي لصالح الطرف الآخر وعلى هذا النحو لا يبدو التقابل أو عدم الاتفاق منطقيًا خالصًا وإنما صنعه الخطيب ليبرر موقفًا أو رأيًا، ولذلك يقول برلمان: "حالة عدم التوافق هذه تتوقف على قرار شخصي فتبدو أبعد ما يكون عن التناقض الصوري لأن انعدام التوافق لا يفرض نفسه بل يفرض ولذلك يظل الأمر قائمًا في أن ينفيه عند الإقضاء قرار جديد"⁽⁴³⁶⁾.

وقوله أيضًا: "... ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم"⁽⁴³⁷⁾.

يبدو هذا القول في ظاهره منطقي ولكن الأقوات هي ملك للأعداء والاستيلاء عليها يعد من باب التعدي على ممتلكات الغير ولكن الخطيب يبرر هذا الفعل لكونهم غرباء لا يملكون ما يحفظ حياتهم، وبالتالي مشروعية هذا الفعل.

الحجة القائمة على العلاقة التبادلية: يقضي مبدأ "التماثل" قاعدة في التعامل مع المتماثلين في "العدالة" أي في التعامل مع العناصر المنتمية إلى صنف واحد بكيفية واحدة ولذا نتحدث عن المبادلة أو التبادل وهي علاقة منطقية خالصة غير أن الحجة تظل شبه منطقية فحسب لأنها إسناد للحكم ذاته إلى أمرين ندعي أنهما متماثلان⁽⁴³⁸⁾ فقد ماثل الخطيب بينه وبين جنده حين أكد أن ما يجري عليهم يجري عليه في قوله: "ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها

⁴³⁵ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁴³⁶ - شكري المبخوت: الحجاج في اللغة ضمن مصنف "أهم نظريات الحجاج" ص 307.

⁴³⁷ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁴³⁸ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 201.

النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي...⁽⁴³⁹⁾ وهو قول في ظاهره مقنع يحتكم إلى مبدأ منطقي هو "المعاملة بالمثل" ولكن يكفي أن يشكك الجند في هذا القول لتنتهار الحجة ونلاحظ أن "طارق بن زياد" أراد من وراء هذا الخطاب أن يبين لجنده أنه لا يتميز عنهم، بل هو مقاتل في الصف الأول، ومن شأن هذا القول أن يجعل المتلقي يتقبل الفكرة، ويدع عن لما يسعى إليه الخطيب، وبالتالي يقدم على الحرب بكل شجاعة وإقدام.

2.1 الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:

تعتمد هذه الحجج في واقع الأمر "قواعد رياضية تشكل خلفيتها العميقة، ونسجها الداخلي بل تؤسس طاقتها الحجاجية، وتعد معينها الاقناعي، وهي عديدة...⁽⁴⁴⁰⁾ ولقد عثرنا في الخطبة على:

أ- تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له Argument de division

ينص هذا الصنف من الحجج على "تقسيم كل إلى أجزائه المكونة له وبيان أن حكما ما ينطبق على جزء من أجزائه ينطبق تبعا لذلك على الكل، على هذا النحو يبدو هذا الصنف من الحجج مقنعا في ظاهره لصبغته الرياضية الواضحة، ولكنه في الحقيقة لا يعدو أن يكون شبه منطقي لأن الأجزاء لا تعبر في كل الحالات وبدقة عن الكل...⁽⁴⁴¹⁾ وهذا النمط نجده في الخطبة من بدايتها إلى غاية الخاتمة فقله:

"... ادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية"⁽⁴⁴²⁾

فهذا القول يمثل الكل فيقتل لذريق "يكون مغنمها خالصا لكم من دونها ومن دون المسلمين سواكم" فمآل الجزيرة إليكم ومغانمها من نصيبكم ضف إلى ذلك "إعلاء كلمته... وإظهار دينه بهذه الجزيرة..."

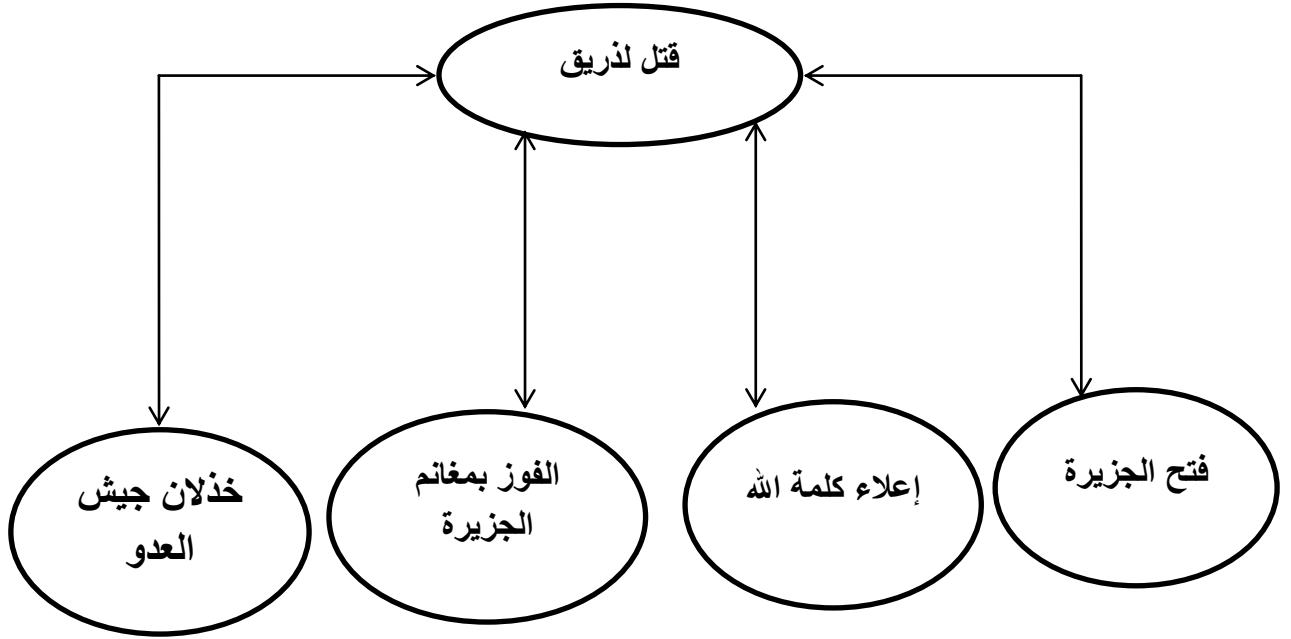
⁴³⁹ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁴⁴⁰ - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ص 305.

⁴⁴¹ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 317.

⁴⁴² - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

ثم بقتل هذا الطاغية "واكتفوا المهم من فتح الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون" فجيئته سيخذل ويتراجع ويولى الأديار وبالتالي فإن أي جزء من الأجزاء تؤدي بالضرورة إلى الكل ويمكن التمثيل لذلك هذا المخطط :



ب- الحجج القائمة على الاحتمال L'argumentation par le probable

يقول طارق بن زياد "إن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تتجزوا لكم أمرا، ذهبت ربحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم..."⁽⁴⁴³⁾

وأياضا "إن انتهاء الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت..."⁽⁴⁴⁴⁾.

هذا النوع من الحجج يؤسس على حظوظ المرء في تحقيق أمر ما، أو انجاز حدث معين أو اتخاذ موقف محدد وخليفته واضحة...⁽⁴⁴⁵⁾

⁴⁴³ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁴⁴⁴ - نفس المرجع.

⁴⁴⁵ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 213.

فهو يحتاج لإمكانية التغلب على العدو، بحجة الاحتمال فيربط الواقع بالمحتمل ربطاً واضحاً فالسماح للنفس بالاستشهاد هو الذي يخلق فرصة النصر، وهذا المحتمل القائم مرهون بمدى قابلية الجيش.

أراد من خلال هذه الأقوال أن يؤثر في عاطفتهم وسلوكهم، فمن المحتمل أن تطول الأيام على هذه الحالة وفي هذا ذهابكم وفشلكم في المهمة التي قدمتم من أجلها بل تمكن العدو منكم... ثم يرتقي في أسلوب الخطاب ليكون الأمل قائماً "إن انتهاز الفرصة فيه..." فهذا القول يحمل طاقة حجاجية واضحة تبعث على التفكير في خلق هذه الفرصة التي تخلصنا من الكرب الذي نحن فيه.

إن الحجج القائمة على الاحتمال تعمل دائماً لصالح المخاطب لأنه يترك المجال مفتوحاً للتأويلات المتعددة وفي هذا تكمن حنكة الخطيب ولأن طبيعة البشر التي تتمسك بأي خيط نجاة مهما كانت محدوديته.

2- الحجج المؤسّسة على بنية الواقع Arguments fondés

sur la structure du réel

لا يعتمد هذا الصنف من الحجج على المنطق و"إنما يتأسس على التجربة وعلى علاقات حاضرة بين الأشياء المكونة للعالم، فالحجاج هنا ما عاد افتراضاً وتضميناً، بل أصبح تفسيراً وتوضيحاً للأحداث والوقائع (...). فالمتكلم متى اعتمد هذا الصنف من الحجج إنما يذهب في الواقع إلى أن الأطروحة التي يعرضها تبدو وأكثر إقناعاً، كلما اعتمدت أكثر على تفسير الوقائع والأحداث وأن الخطاب الحجاجي يكون أنجع وأقدر على الفعل في المتلقي والتأثير فيه كلما انغrust مراجعة في الواقع" (446)

سنحاول فيما يلي الوقوف على الحجج التي تأسست على بنية الواقع.

1.2 التتابع: الحجة السببية:

"يبني هذا الحجاج على تتابع ثابت للأحداث محيلين على رابط سببي يصل بينهما"⁽⁴⁴⁷⁾ ويوضحهما قول الخطيب.

"وقد استقبلكم عدوكم بجيشهن وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم" يقدم جملة من الأسباب التي تجعل من المواجهة أمرا حتميا على الجند .
أولا: استحالة العودة لأن الوسيلة مفقودة.

ثانيا: العدو استقبلكم بجيشه وأسلحته الموفورة فقد اعتاد الناس استعمال لفظة (استقبال) لمن كان ضعيفا، تجب وفادته، وتكريمه، لكن الخطيب استعملها ليدل أن العدو في موقف المقتدر، وأن الجيش في موضع العنصر الدخيل على الموقع، وليس له من خيار إلا إثبات الحالة، وخاصة أنه أردفها بجملة اسمية وقعت حالا (وأقواته موفورة) وهو من قبيل التعريض.

ثالثا: يقدم السبب الثالث الذي يفرض هذه المواجهة فرضا "وأنتم لا ورز لكم غير سيوفكم" فمتى علم العدو أنكم بهذا الضعف استصغر كم وأقبل عليكم كما تقبل النسر على فريستها.

أراد الخطيب أن يشرح الوضع لجنده، ويطلعهم على خبايا الأمور سعيا منه لترسيخ فكرة النصر على جيش لذريق بالرغم من قوته لأن القوة الحقيقية تكمن في الإيمان بالقضية التي قطعوا البحر من أجلها. على هذا النحو يتحلى الجانب التأثيري في هذه الحجة لأن الشرح والتفصيل يضطلعان بدور حجاجي هام.

2.2 الغائية – حجة التجاوز:

تضطلع الغائية التي يستبدها العلم "بدور أساسي في الأحداث الإنسانية ومنها نستطيع أن نشق حججا كثيرة تؤسس كلها على الفكرة القائلة بأن قيمة الشيء تتصل بالغائية التي يكون لها وسيلة: حججا لم تعد تعبيراً عن قولنا "يسبب كذا وإنما من أجل كذا"⁽⁴⁴⁸⁾

هذا الصنف من الحجج شملته خطبة طارق بن زياد ففي قوله: "ولقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان ... ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه ..."⁽⁴⁴⁹⁾

يؤكد الخطيب لجنده أنهم عبروا البحر وجاءوا إلى هذه الأرض البعيدة لغاية سامية، إعلاء كلمة الله وإظهار دينه فهم في حربهم ضد لفریق يرفعون من شأن الإسلام ويمكنون لدين الله على هذه الجزيرة، فالجهاد فرض على كل مسلم شرعه الله وحته عليه بل ووعد الذين يستشهدون في سبيله نعيما لا يفنى وحياة خالدة. إذن بشهادة بالنسبة للمسلم هي أسس الغايات ولهذا الأمر هم على أرض هذه الجزيرة وبما أن الغاية نبيلة فلا خير من كل التضحيات.

وحجة الغاية لها دور كبير في التأثير على الملتقى ولهذا قلما تغيب في الخطاب الحجاجي لأنها المحرك الأساسي للمشاعر سواء أكانت معنوية أو مادية وإن كانت الغاية المادية تعتبر ثانوية في هذه الخطبة.

ثم إن حجة الغاية تؤدي إلى نوع آخر من الحجج وهي:

⁴⁴⁸ - شكري المبخوت: ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 309.

⁴⁴⁹ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

3.2 حجة التّجاوز:

"إن حجة التّجاوز تؤكد إمكانية السير دائما نحو نقطة أبعد في اتجاه، دون أن نلمح للسير في ذاك الاتجاه حدا، وذلك بفضل تزايد مطرد في قيمة ما⁽⁴⁵⁰⁾ فهذه الحجة تقوم إذن على اعتبار ما عد عائقا مجرد وسيلة لبلوغ مستوى أعلى وهي متمثلة في قوله: "... فاحملوا معي، فإن هلك بعدة فقد كفيتمكم أمره، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلك قبل وصولي إليه، فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه..."⁽⁴⁵¹⁾

جاء طارق بن زياد لهذه الجزيرة لفتحها ونشر الدين الإسلامي في ربوعها فالغاية كما سبق القول واضحة ومعلومة للجميع وحتى ينجح في مهمته لابد من الإجهاض على طاعة القوم ولقد تولى هذه المهمة بنفسه بل وأعلنها على مسمع الجيش ولكن إذا لم تسمح الظروف بذلك، فالجرب لا تتوقف، والغاية تبقى قائمة، وباقية بقاء جنده، لأنه يعتبر نفسه نقطة عبور يجب تجاوزها وعدم التوقف عندها حيث يزيدهم صلابة وشحذا للعزائم بالإضافة إلى تحميلهم مسؤولية إتمام المهمة من بعده وفي هذا تأثير على الجند وحملهم على فتح الجزيرة بكل الوسائل المتاحة لديهم.

لقد عرف كيف يجعل من نفسه عنصرا لا يعلو على بقية العناصر بل ويتحمل أضعاف ما يتحملون، فالخطيب يقنع المتلقي (الجند) بصدق نواياه وفي هذا حمله على الإذعان والتسليم وهو جوهر الخطاب الحجاجي.

⁴⁵⁰ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 307.

⁴⁵¹ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

4-2- حجة السلطة: Argument d'autorité

تتمثل حجة السلطة في "الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف اعتماد على قيمة صاحبها"⁽⁴⁵²⁾ تقوم هذه الحجة في النص على فكرة الأمر، والاستجابة له. فالقائد يخترق بنصه عقل الجند ليكون له سلطان الأمر، وفرض السلطة، والسيطرة على الموقف من حيث هو ظرف لا يقبل اللين أو التراخي وفلسفة القوة لا يعدمها الحرب ولا يفقدها قائد المعركة، ونجدها في النص في أكثر من موضع فقولاه:

" فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية"⁽⁴⁵³⁾

" وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين من الأبطال عربانا"⁽⁴⁵⁴⁾

"... وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم... فاحملوا معي..."⁽⁴⁵⁵⁾.

لقد كان الخطيب يحمل القائد المحنك، والبطل المتمرس بأمور الحرب، وأخلاق القيادة والعلم بسيكولوجية المحارب، وحتى يكون خطابه مؤثرا لم يؤثر على نفسه عليهم ولم يكن بأفضلهم أو يدعوهم إلى ما لا يقوم به، فالسلطة تفرض عليه أن يكون حكيما في سياسة الجند مقدما نفسه في المعركة، مظهرا أحسن البلاء، ليكون لهم القدوة والمثل، وليحقق بهم ما جاء لأجله "واعلموا أنني مجيب إلى ما دعوتكم إليه..."⁽⁴⁵⁶⁾ فهو يبطن الغاية بالترغيب في موضع الشدة "... ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ... ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين ... "

يتكلم عن المصاهرة في زمن الحرب، وعن الفوز بالمغانم زمن الموت وذلك تجسيدا للسلطة التي يتمتع بها. ويمكن الإشارة إلى أن حجة السلطة "لا تكفي عادة صاحبها حاجته إلى غيرها من الحجج، بل تأتي في أغلب الخطابات الحجاجية مكملة للحجج المتنوعة، تعضدها

⁴⁵² - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 232.

⁴⁵³ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁴⁵⁴ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁴⁵⁵ - نفس المرجع.

⁴⁵⁶ - نفس المرجع.

لكن لا تعوضها تردفها دون أن تحل محلها إنها تأتي في أغلب الأحيان لتكمل حجاجا ثريا عوض أن تكون الحجة الوحيدة فيه⁽⁴⁵⁷⁾

وتوازيا مع حجة السلطة يظهر نوعا آخر، لا يقل أهميته عن الحجج السابقة ونعني به حجة الرمز.

5.2 حجة الرّمز le symbole

تؤسس هذه الحجة "على الانتماء، ولكنه انتماء اجتماعي أو ثقافي خالص لذلك تتغير الأوساط الاجتماعية والبيئات الثقافية وعديدة متنوعة فهي الوطن، واللغة والمعتقد وهي أيضا أبطال الأساطير عظماء التاريخ، وقد تكون إلى ذلك كله معلما أو راية، وعلى هذا النحو تعبر الرموز على انتماء الفرد إلى المجموعة، انتماء وجدانيا بل مقدسا في أغلب الأحيان⁽⁴⁵⁸⁾.

وفي نص الخطبة نجدها متداخلة مع حجة السلطة، وذلك مثل قوله:

" وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين من الأبطال ...⁽⁴⁵⁹⁾

لقد عرف الفضاء الذي يجب أن يتحرك فيه خطابه، فربط الجند بالرموز المعبرة عن الانتماء الثقافي والاجتماعي. فقد ذكرهم بالخليفة الذي لا يعطى له أمر، وهو الذي أرسلهم في هذه المهمة وعليهم تنفيذ أوامره، ثم يسهر عن كل هذا حين يتكلم عن إعلاء كلمة الله تعالى ويتضح السياق أكثر في هذا الجدول:

المقابل	الحجة	البناء	القاعدة
ثواب الله (إغراء روحي)	سلطة الدين	إظهار دينه بهذه الجزيرة	النصر على العدو

⁴⁵⁷ - عبد السلام عشير: عندما نواصل نغير، ص 221.

⁴⁵⁸ - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 341.

⁴⁵⁹ - نفس المرجع.

وفي السياق ذاته هذه الحجة

المقابل	الحجة	البناء	القاعدة
ذكر في الدارين (إغراء مادي)	سلطة المال	مغانمه خالصة لكم	النصر على العدو

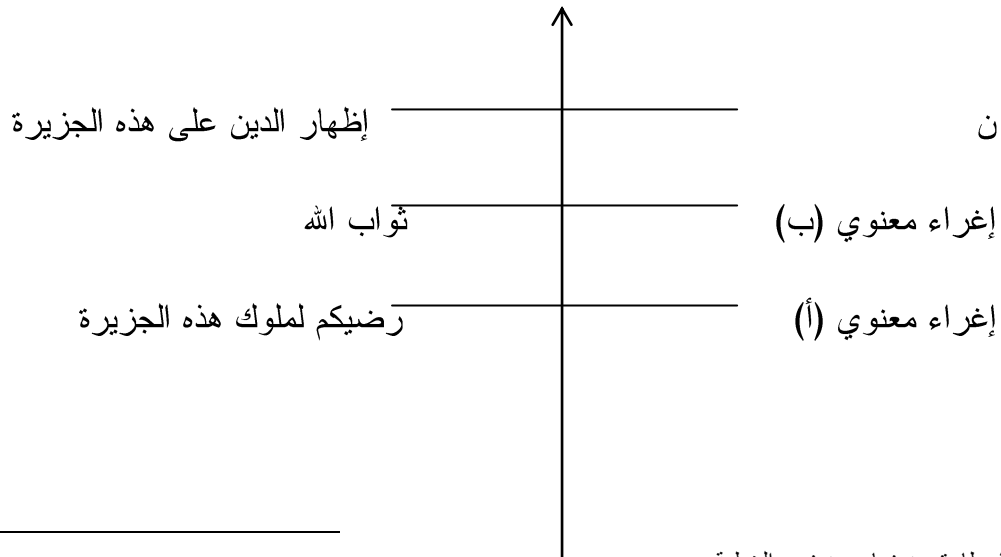
والنتيجة: دعوة إلى البلاء في المعركة ولم يفصل الخطيب حجاج السلطة، عن حجة التبرير والتعليل ويمكن القول أن هذا النوع من الحجاج يدخل ضمن السلم الحجاجي، ونقصد به تبرير ما يذهب إليه الخطيب من القول من حيث هو تلازم بين قول الحجة وتبريرها وكأن هذا التبرير يجب عن طرح أفعل / لماذا؟

أحارب / لماذا؟

أنتصر في المعركة / ماذا أستفيد

أستشهد في المعركة / ماذا يحدث.

ويمكن أن نستشهد بقوله "ورضيكم لملوك هذه الجزيرة، أصهارا وأختانا ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة"⁽⁴⁶⁰⁾



3- الحجج المؤسسة لبنية الواقع:

هذا الصنف من الحجج "تربطها صلة وثيقة بالواقع، ولكنها لا تتأس عليه ولا تبني على بنيته وإنما هي التي تؤسس هذا الوضع وتنبئيه أو على الأقل تكمله، وتظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه (...). ويتأسس الواقع بواسطة الحالات الخاصة والاستدلال بواسطة التمثيل⁽⁴⁶¹⁾ والواقع يتأسس بواسطة الحالات الخاصة منها:

أ- حجة التضحية L'argument du sacrifice

وهي حجة تتمثل في إثبات قيمة شيء، أو قضية معنية بواسطة التضحيات التي قدمت أو ستقدم من أجلها⁽⁴⁶²⁾ فهي طريقة في الاستدلال مثيرة، ومأتى الإثارة فيها أن مفهوم التضحية ذاته مفهوم غامض مبهم، يمكن أن يفهم أكثر من فهم، دون القدرة على الحسم إذ ما يعتبره البعض تضحية في سبيل أمر أو غاية قد لا يراه آخرون كذلك⁽⁴⁶³⁾ فقول طارق بن زياد: "... ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجادة الأبطال، والفرسان ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة..."⁽⁴⁶⁴⁾ يدخل ضمن هذا النوع ذلك أن المجاهدين يضحون بحياتهم لإعلاء كلمة الله، على أرض هذه الجزيرة وهذه التضحيات تختزل في مفهوم الإيمان بالحياة الأخرى الخالدة في الجنة التي وعد الله بها شهداء الفاتحون قدموا من بعيد، تاركين الأهل والديار متحدين كل الصعاب لا لشيء إلا لفتح هذه الأرض ونشر الدين الإسلامي.

فالخطاب موجه إلى جيش مسلم يعي جيدا أهمية هذه الحرب أو هذا الفتح في تغيير خريطة هذه المنطقة اجتماعيا، وثقافيا، ولذلك تعتبر هذه الحجة غاية في الأهمية، لأنها تعمل على تحريك العواطف وشحن الهمم.

⁴⁶¹ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر الجاهلي ص 244.

⁴⁶² - شكري المبخوت: الحجا في اللغة ضمن مصنف "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" ص 302.

⁴⁶³ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر الجاهلي ص 246.

⁴⁶⁴ - طارق بن زياد : من نص الخطبة.

ب- الاستدلال بواسطة التمثيل L'analogie

الاستدلال بواسطة التمثيل "هو تشكيل بنية واقعية تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقة عن طريق تشابه في العلاقات (...)" فهو احتجاج لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر فندخل بذلك التشبيه والاستعارة⁽⁴⁶⁵⁾ ونلمس هذا النوع من الاستدلال في خطبة "طارق بن زياد" في قوله: "واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيّع من الأيتام في مآدب اللئام"

جملة ثانوية ← الأيتام ضائعون في مآدب اللئام

جملة أساسية ← المجاهدون ضائعون في هذه الجزيرة

استنتاج ← المجاهدون أيتام

"فالقياص بينى إذن على مقدمتين، صغرى وكبرى يقودان إلى استنتاج وهو بشكله هذا يعد قياسا صريحا، فالتشبيه التمثيلي شكل طاقة حجاجية بالغة لأن التشبيه يمثل ضربا من القياس، فالتسليم بالمقدمتين، الصغرى والكبرى يقودان المتلقي إلى التسليم بالاستنتاج بل أن قوة التشبيه تتأتى من قدرته على التقريب بين عنصرين من نظامين مختلفين مع محاولة جاهدة لطمس ما بينهما من فروق⁽⁴⁶⁶⁾ فالتمثيل أسلوب يتوخاه المتكلم في الاحتجاج "لأنه دليل أقوى لصالح النتيجة المتوخاة وهذه الخاصية المميزة للقول التشبيهي هي التي تجعله فوق الأبطال لذلك أكد الدارسون أنه، يعسر على المرء أن يتصور إمكان ورود دليل مضاد بعد التشبيه ..."⁽⁴⁶⁷⁾ فالخطيب أراد أن يبين الوضع الخطير الذي يتواجدون فيه في هذه الجزيرة ومدى دهاء ولؤم العدو فأتى بالتشبيه يربط العلاقة بين الوضعين "فما يميز القول التمثيلي أنه يأبى أن يجيء بعده رابط من روابط التعاضد الحجاجي"⁽⁴⁶⁸⁾ وهذا ما يزيد من قدرته الحجاجية.

الحجج التي تستدعي القيم Arguments basés sur les valeurs

⁴⁶⁵ - محمد العمري: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 118.
⁴⁶⁶ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر الجاهلي ص 174.
⁴⁶⁷ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر الجاهلي ص 175.
⁴⁶⁸ - نفس المرجع ص 175.

يتخذ الحجاج أحيانا كثيرة أشكالا أقل موضوعية، يراها البعض ملزمة "تهدف إلى فرض الرأي وتسعى إلى إظهار الفرضيات على أنها حقيقة لا لبس فيها بحيث تجبر المتلقي على اختيار ما ولا تتورع عن استعمال الترهيب، والترغيب وحمل الجميع على الإذعان اعتمادا لتبرير الآراء وإثبات المواقف، يعتمد قيما ينتقيها بدقة بحيث تلائم أهدافه الحجاجية وغايات خطابه المنشودة⁽⁴⁶⁹⁾ والقيم ثلاثة أضاف⁽⁴⁷⁰⁾

- قيم كونية Valeurs universelles

- قيم الالتزام المجردة Valeurs abstraites d'engagement

- قيم محسوسة Valeurs concrètes de l'action

وهذا النوع من القيم التي تعتمد التّرهيب والتّغيب منتشرة في الخطبة كقوله: "... وإن افتقاركم ولم تتجزوا أمرا، ذهبت ربحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم"⁽⁴⁷¹⁾

ويمكن التوضيح بالجدول التالي:

المقابل	العلة / الحجة	البناء	القاعدة
الجرأة عليكم	ذهبت ربحكم	لم تتجزوا لكم أمرا	الخذلان
تعوضت القلوب من رعبها عليكم	لم تتجزوا لكم أمرا	إن امتدت بكم الأيام	تأخير النصر

والملاحظ أن العبارة الأولى في البناء، تناسبها العبارة الثانية في خانة العلة / الحجة (لم تتجزوا لكم أمرا) فكأن المهمة التي من أجلها تم قطع البحر، وقطع وسيلة الرجوع (حرق السفن) لم تنجز وبالتالي فليس لهم من ملجأ إلا البحر، أو مقارعة العدو بالقوة والحديد...

⁴⁶⁹ - شكري المبخوت: الحجاج في اللغة ضمن مضاف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، ص 305.

⁴⁷⁰ - نفس المرجع ص 307.

⁴⁷¹ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

وكذلك قوله: "... وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأفواته موفورة، وأنت لا وزركم إلا سيوفكم ..."(472)

مارس الخطيب سلطة الترهيب، فليس لهم بد من الحرب، وهي قاعدة تبين بجلاء قدرة الخطيب على التأثير الفكري والعاطفي على المتلقي (الجند) ولأنه ليس من الضروري أن يكون الجند كلهم في حالة من الشدة، والمناجزة للعدو، فقد ارتقى في أسلوب الخطاب ليكون التعجيل بالنصر، وما ينجز عنه من نعيم دنيوي، والإقبال على الموت والشهادة، وما يقابله من نعيم أخروي، وهي من أسس الترغيب في المقاتلة بقوة لا تلين وعزيمة لا تقتز كقوله: "... إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفة طويلا ..."(473) وكذلك قوله: "... ويكون مغنمها خالصا لكم من دونه، ومن دون المسلمين سواكم"(474).

لقد استدعى قيما هي محل اتفاق بين المجتمع المسلم الذي يلتزم بتطبيقها أو على الأقل يحرص كل الحرص على احترامها فالجهاد في سبيل الله لا يختلف عليها اثنين والجنة مأوى الشهيد لا جدال في ذلك، كما استدعى قيما كونية بينها جميع البشر كالعيش في كنف العدل والحق والفوز بنعيم الدنيا من مال وحرور حسان

الحجج التي تستدعي المشترك Recours aux lieux communs

تعتمد الخطابات الحجاجية على المشترك "أي الاستناد إلى ما يشكل موضوع اتفاق بين المتلقين أو يمثل جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم، ذلك أن للمشارك سلطته على النفوس فهي تدعن لما تعودت عليه (...). وقد أثر أرسطو في كتابه "الجدل" عرض دقيق لما سمي بالمواضع المشتركة وهي مواضع قد قدمها كتمش حجاجي كوني، وإن كانت هذه المواضع متفاوتة من حيث القيمة وخاصة من حيث تواترها في الخطابات، إذ تظل خاصية هذه المواضع، كما يدل عليه اسمها أنها تستعمل ببسر في كل وضعيات الخطاب ويظل موضع

⁴⁷² - نفس المرجع.

⁴⁷³ - طارق بن زياد من نص الخطبة

⁴⁷⁴ - نفس المرجع.

الأقل والأكثر بصفة خاصة معين كل حجاج مرتب⁽⁴⁷⁵⁾ والواقع أن الصيغة المثلية هي أكثر الأمور المشتركة تأثراً في المتلقي وأقدرها على النفاذ إلى عالمه، ومن ثمة تغييره⁽⁴⁷⁶⁾ وهو ما احتج به طارق بن زياد في خطبة بقوله:

"اعلموا أنكم أضيع من الأيتام في مآدب اللئام"

فقد اشتغل المخزون الاجتماعي المتواجد في الذاكرة الجماعية، لوصف حالة راهنة شبيهة في ظروفها، وبالتالي فإن السامع (الجند) إذا ما وقف على هذا المثل احتاج تجسيد صورة اليتيم أمامه ولا شك أن الخطيب بتوظيفه المثل في الخطبة أراد أن يسمو بالمعنى إلى مستوى القيم المشتركة فاليتيم يمثل الانكسار والضعف والعوز وحتى التشرذم وفي المقابل ذلك اللئيم بدهائه وخبثه وحيلته وطمعه وحتى غدره... فتأثير المثل لا يدانيه جنس أدبي آخر لأنه مخزن في الذهن وأكثر دورانا على الألسنة⁽⁴⁷⁷⁾ فالخطيب اختار المثل المناسب ليستفز به متلقيه لدفعه إلى تبني موقف ما، أو سلوك معين، فالمثل يثبت طاقة حجاجية فائقة، ذلك أن المتلقي يتقبل المثل باطمئنان بحكم فعل التواتر.

"إن طاقة المثل الحجاجية تقوم في جوهرها على القياس فقياس الحالة الحاضرة الراهنة على أخرى مشابهة يعرفها الجميع، ويدركون أبعادها فمتى سلموا فإنهم سيسلمون بالحاضرة ومن ثمة جاز القول بأن خطورة هذا النوع من الاستدلال تكمن في الإيهام بالتقارب بين الحالتين عن طريق علاقة الشبه..."⁽⁴⁷⁸⁾

الخطيب أراد القول إنكم بدون شك تعلمون أن اليتيم لا حول له ولا قوة، فاليتيم سبله قوته وإقدامه هذا في الأوضاع العادية فما بالكم إذا اجتمع حوله جماعة من اللئام فما هو مصيره؟ ذلك حالكم في هذه الجزيرة فهو مآدب اللئام وحالة الجند على هذه الأرض والطاغية لنريق يتربص بهم. سعى الخطيب إلى تحريك النفوس لتنفذ عنها الخوف وتقبل على الحرب بكل شجاعة.

⁴⁷⁵ - شكري المبخوت: الحجاج في اللغة ضمن مضاف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، ص 371.

⁴⁷⁶ - نفس المرجع ص 382.

⁴⁷⁷ - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم ص 299.

⁴⁷⁸ - نفس المرجع ص 301.

الخلاصة:

إن الملاحظة البسيطة كافية لأن تبين لنا، أن هذه الخطبة تحمل ملامح حجاجية، ظهرت من خلال التراكيب النحوية، والصور البلاغية بالإضافة إلى الاستدلالات المنطقية، وتنوع الحجج الواردة في نص الخطبة التي عملت على الحث، والتحريض، والإقناع.

لا أدعي أنني استطعت الإحاطة بكل المظاهر الحجاجية لهذه الخطبة فذلك مطمح يعيد المنال ولكن كل ما أهدف إليه هو استخراج أهم هذه المظاهر، وتأكيد الطابع الحجاجي لنص الخطبة.



آلية بناء الحجج



بعد الإصلاحات السياسية والاجتماعية والقضائية التي عرفها اليونان "هبّ المواطنون مطالبين باستيراد ما أخذ من ممتلكاتهم وأراضيهم، فاحتاجوا إلى من يدافع عنهم، وينطق عن لسانهم، وفي هذه الظروف ظهر السفسطائي الصقلي الشهير كوراكس-كما سبق ذكره- ووضع مشروع خطابة يراعي النقاط التي تؤثر في القاضي، وتهدف إلى تحقيق المصلحة، فحدّد الأقسام الخمسة الكبرى التي مثّلت طوال قرون عدة التقسيم النموذجي للخطبة، تحدث عن الاستهلال، والقص والاحتجاج، والاستطراد، والخاتمة⁽⁴⁷⁹⁾ وعندما أتى أرسطو، انتقد التقسيمات المعتمدة من خطباء عصره، واعتبرها مضحكة يقول: "الكلام يتضمن جزئيين، إذا لابتد من ذكر الموضوع الذي نبحث فيه، ثمّ بعد ذلك نقوم بالبرهنة، ولهذا من المستحيل بعد ذكر الموضوع أن نتجنب البرهنة، أو نقوم بالبرهنة قبل ذكر الموضوع أولاً، ذلك أنه حين نبرهن على شيء، ولا نذكر الشيء إلاّ من أجل البرهنة عليه، وأولى هذه العمليات هي العرض والثانية الدليل"⁽⁴⁸⁰⁾ اعتبر أرسطو تقسيمات الخطباء للخطبة مضحكة لأنّه يرى أنّ القص خاص بالخطب القضائية أمّا الخاتمة فلا تدخل في كلّ الأنواع، ومنه لا يرى ضرورة إلاّ لعرض القضية وإظهار الدليل.

لم يهتم العرب بالتنظير لأقسام الخطبة، ولكن هذا لا يعني إغفالهم في الممارسة الفعلية، وعلى العموم هناك إشارات نعثر عليها في كتابات الجاحظ وابن وهب بخصوص هذا الموضوع، ففي البيان والتبيين تذكير بضرورة تضمين المقدمة، ما يدلّ على الموضوع. يقول الجاحظ: "وقال إسحاق بن حسان بن قهوي: لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قطّ، سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت... في الاستماع... في الاحتجاج سجعاً وخطباً... وليكن في صدر كلامه دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته، كأنه يقول: فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح وخطبة التواهب حتى

⁴⁷⁹- هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 248.

⁴⁸⁰- أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمان يدوى ص 228-229.

يكون لكل فنّ من ذلك صدر يدلّ على عجزه، فإنّه لا خير في كلام لا يدلّ على معنائه، ولا يشير إلى مغزائه، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزلت...»⁽⁴⁸¹⁾ كما عني

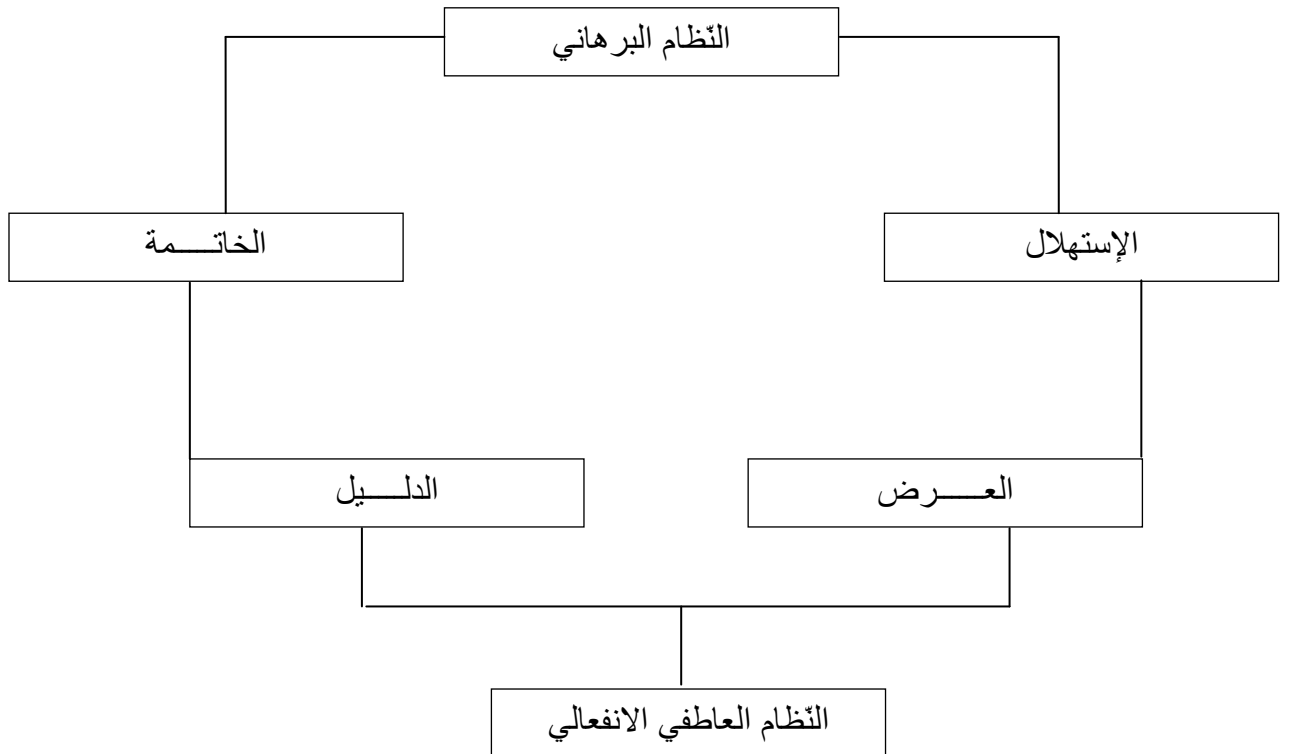
الفصل الرابع

آلية بناء الحجج

العرب كثيراً بالاستهلال في الخطب والذي عادة ما يكون بذكر الله تعالى وحمده وتمجيده لذلك يسمّون الخطب التي لا يذكر الله عزّ وجلّ في أولها البتراء، أمّا ترتيب الأجزاء فيبدو أنّه متروك كتقديرهم ولمناسبة المقام.

ويرى بيرلمان أن "الترتيب في قضايا البرهنة غير ذي أهمية وعكس ذلك حينما يكون الغرض الاحتجاج قصد مشاركة المستمعين، لأنّ ترتيب عرض الحجج يكيّف شروط القبول عند هؤلاء"⁽⁴⁸²⁾

أما رولان بارط فالخطاطة التالية تبين رأيه في الموضوع⁽⁴⁸³⁾



1- الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 115، 116.

2- محمد العمري، في بلاغة الخطب الإقناعي، ص 137.

3- المرجع نفسه، ص 139 نقلاً عن رولان بارط، البلاغة القديمة، ص 215.

الفصل الرابع

آلية بناء الحجج

في المقدمة، والخاتمة دعوة عاطفية، وفي العرض والدليل دعوة إلى والعقل كما يبين بعض خصائص كل مرحلة، فالاستهلال يكون بالاستمالة إلى الموضوع المقترح، والإعلان عن الخطة التي ستتبع، والخاتمة تتضمن تلخيصها لما قيل، وفيها أيضا مستوى لإثارة العاطفة، أمّا الغرض فيجب أن يكون واضحا ومختصرا، ومهيئا ما سيأتي في مرحلة الدليل التي تقديم الأدلة، والحجج بالطريقة التي يراها مناسبة⁽⁴⁸⁴⁾ ومن هنا، فإن الخطاب الحجاجي يتميز عن باقي الخطابات الأخرى، بكونه خطابا مبنيا وموجها وهادفا، مبنيا بناءا استدلاليا يتم اللجوء إلى الحجة والاستدلال والمنطق والعقل⁽⁴⁸⁵⁾ ويبين محمد العبد ركائز النص الحجاجي نجملها في قوله "يبني النص الحجاجي على مكونات ستة:

• الدعوى، نتيجة الحجاج، هي مقولة تستهدف استمالة الآخرين تذكر الدعوى صراحة وقد تضمن:

- المقدمات تقرير يضعه المجادل عن أشخاص، أو أحوال أو أحداث، وينبغي للمقدمات أن ترتبط بالدعوى ارتباطا منطقيًا حتى تصلح لتدعيمها.

- التبريرات، بيان للمبدأ العام الذي يبرهن على صلاحية الدعوى وفقا لعلاقتها بالمقدمات.

- الدّعاة، كلّ ما يقدمه المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلة وقيم... الخ حتّى تجعل المقدمات والتبريرات أقوى مصداقية عند المستقبل.

- مؤشر الحال، كلّ ما يقدم من تعبيرات تظهر مدى قابلية بعض الدّعاوي للتطبيق نحو، من الممكن، من المحتمل، على الأرجح... الخ.

⁴⁸⁴ - محمد العمري، بلاغة الخطاب الاقتناعي، ص 139.

⁴⁸⁵ - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص 128.

- التَّحْفُظَات، هي الأساس الذي ينهض عليه الحكم بعد مقبولية الدعوى⁽⁴⁸⁶⁾.

وفي ما يلي صورة عن الترتيب الذي اعتمده طارق بن زياد أثناء إلقاء خطبته استعمل القائد خطبته بمقدمة كبرى تمثلت في قوله "أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم"⁽⁴⁸⁷⁾ تعتبر حجة بالغة الأهمية، الغرض منها البرهان أو الإقناع، لأن المطلوب منه هو لإقحام السامع "فالحجة بعد ذاتها لا يراد منها ما أفاد معنى قاطعا"⁽⁴⁸⁸⁾ بل هي وكما عرّفها طه عبد الرحمان "كلّ منطوق به، موجه على الغير، لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليه"⁽⁴⁸⁹⁾ فالمقدمة الكبرى جعلت السامع في وضعية صعبة، بين موقفين غير متسقين، وهو بذلك يهدف إلى إحداث خلل في ذهن المتلقي أو على الأقل إضعاف قوته الاستدلالية حيث تجعله يقبل الدعوى التي قدمها إليه الخطيب لأن التأمل والتفكير يكون منصبا على موضوع جديد، لأن البحر معروف (سفن محروقة) والعدو معروف (سلاح وقتال) هذا الموضوع الجديد هو التفكير في طريقة التغلب على العدو.

- لقد أراد أن يتنقل ممّا هو مسلم به عند المستمع أي من المقدمة الكبرى إلى النتيجة يقول ولیم برانت "إذا لم يقبل المخاطب المقدمة الكبرى كان الحجاج سدى..."⁽⁴⁹⁰⁾ فالخطيب نجح في غلق كل المنافذ حتى يستميلهم ويقبلون على دعوته عن طوعية واقتناع.

عزّز الخطيب المقدمة الكبرى بمقدمة صغرى، في قوله "اعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيّع من الأيتام في مأدبة اللئام"⁽⁴⁹¹⁾ فقد عمد إلى استحضار الشاهد الأمثل أو علاقة المشابهة لما في ذلك من تنبيه لعقل على اكتشاف العلاقات الدقيقة الموجودة بين الأشياء، وفي هذا تقريب للمعنى المراد تبليغه وجعله في متناول إفهام السامعين "فالخطاب الطبيعي يلتمس التأثير والإقناع، وتبعاً لذلك فإنّه ينزل المقاصد المعاني المحددة للعمل المنزلة الأولى وعليه فإنّه يستعمل أدوات استدلالية تستجيب لأوصافه العملية، ولن تكون هذه الأدوات إلا من ضروب الأقيسة التمثيلية، فهي تمتلك بنية استدلالية لا تخلو من عنصر القيمة العملية التي

⁴⁸⁶ - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 191.

⁴⁸⁷ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

⁴⁸⁸ - الحسن بنعبو، المنحى الحجاجي للخطاب القرآني وآثاره في المنهج الاستدلالي الأصولي، ص 131.

⁴⁸⁹ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان، ص 237.

⁴⁹⁰ - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 219.

⁴⁹¹ - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

توجه سلوك الغير" (492) فهذا المثل ساوى بينهم وبين الأيتام الذين لا ناصر لهم ولا معيل، وجدير بالذكر أن بعض القدماء التفتوا إلى علاقة المثل بالحجاج ومنهم ابن وهب "يقول ابن وهب عن ضرب الحكماء والعلماء والأدباء للأمثال: "وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأمثال

مقرونة بذكر عواقبها والمقدمات مضمومة إلى نتائجها" (493) ذلك أن بعد المقدمة الصغرى جاء بأدلة لا يمكن ردها، أو التشكيك في صحتها ليضمن الاقتناع ومنه الامتثال لدعوى التي وجهها لجنوده، ومن الأدلة التي أوردتها "استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم" (494) فالعدو يمتلك وسائل وأسباب البقاء المتمثلة في السلاح والغذاء، أما أنتم فسلاحكم فعاليتته محدودة وغذاؤكم هو ما استطعتم أخذه من أيدي أعدائكم.

وليتأكد من موالاتهم عرض عدة تبريرات يبرهن بها على صلاحية دعواه كقوله "وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تتجزوا لكم أمرا، ذهبت ربحكم..." (495) وأيضا "...فقد ألفت بع إليكم مدينته المحصنة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت..." (496) والدعوة ذكرها صراحة وفي أكثر من موضع مثل قوله "ادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة" (497) وكذلك "بمناجزة هذا الطاغية..." (498).

يبدو أن القائد مصر على المضيّ قدما نحو النتيجة التي ينبغي الوصول إليها من خلال توظيفه لكل الوسائل التي تخدم الدعوى من مقدمات مؤثرة وأدلة دامغة وتبريرات مؤسسة على الواقع الذي يعيشه الجند فقد ذكرهم بأن أسباب العودة منعدمة لأنه أحرق السفن التي أفلتهم لهذه الجزيرة ثم أعطى بيانا وافيا عن وضعهم العسكري وقارئه بوضع جيش لنريق وفي نفس الوقت رغبتهم في النصر لأن إمكانية حدوثه واردة إذا عزموا على ذلك لأنهم مسلحون بشحنة الإيمان التي تدفعهم إلى الأمام مع ما ينتظرهم عند الفوز من مال وحسان ومصاهرة ملوك هذه الجزيرة.

492 - الحسن بنعبو، المنحى الحجاج للخطاب القرآني وأثره في منهج الاستدلال الأصولي، ص 132.

493 - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 210.

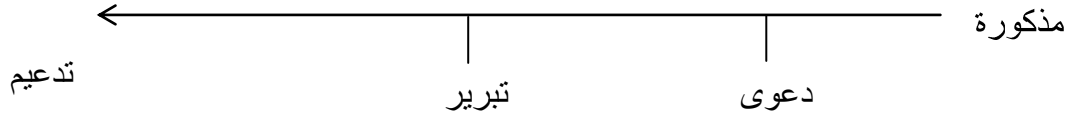
494 - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

495 - نفس المرجع.

496 - نفس المرجع.

497 - نفس المرجع.

498 - نفس المرجع.



وسعيًا منه لاستمالة جنده بني طارق ابن زياد خطبته تدريجيا لأن "فعالية الخطاب الحجاجي تأتي من طريقة بنائه وتفاعل عناصره ودينامية مكوناته" (499).

فقد ربط ما سبق بمقدمة صغرى ثانية، تتعالق مع المقدمة الصغرى الأولى تعالقا منطقيًا، تمثلت في قوله "... اعلّموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلًا استمتعتم بالألفة الألدّ طويلاً..." (500)

تمثل هذه المقدمة قضية محددة، تتلخص في محدودية الأوقات العصبية وكأنه بهذا يستحضر الآية الكريمة "إن مع العسر يسرا ثم إن مع العسر يسر" (5-6) من سورة الشرح. ثم أردفها بالحجج التالية "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك... ثقة منه بارتياحكم للطعان... واستماحكم بمجادة الأبطال... ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء دينه... ويكون مغنمها خالصا لكم..." (501) لقد عمل القائد على دغدغة عواطف الجند بتذكيره بالنعيم الذي ينتظر الشهداء "فاستهدف اعتقادات الإنسان يمثل إحدى الجوانب الأساسية في العملية التخاطبية... بالرغم من كون الاعتقادات لا تمثل عناصر مادية ملموسة وتخلو من كل استدلال ذي بعد علمي لذلك ارتبط أمر الاعتقادات ببعض القيم الإنسانية التي عليها مدار الحجاج والتي يراهن عليها المتكلم كي يذعن السامع مع لما يطرحه من آراء ومواقف" (502) إن الجانب الروحي يلعب دورا هاما في العملية الحجاجية كالثواب الذي يناله المجاهد في سبيل الله، والمكانة التي يحظى بها عند ولي الأمر (الوليد بن عبد الملك) وأيضا المكاسب المادية التي ستنتهي بين يديه. قدّم الخطيب حوافز كثيرة من خلال معرفته باهتمامات المخاطب ومعتقداته فلا "تتصور

499- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 129.

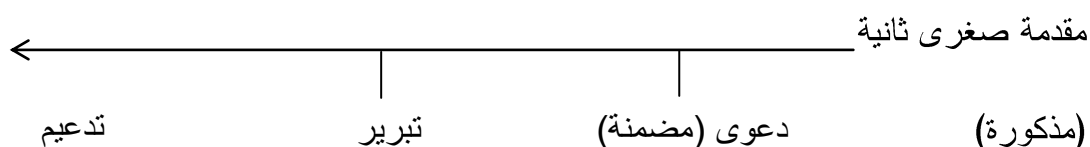
500- طارق بن زياد من نص الخطبة.

501- طارق بن زياد من نص الخطبة.

502- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 133.

قيمة الحجة بمعزل عن الشخص الموجهة إليه" (503) فمعرفة الطبيعة الداخلية للمخاطبين عامل جوهري في نجاح العملية الحجاجية.

تفادي طارق بن زياد في الجزء الثاني من الخطبة ذكر الدعوى صراحة ولكنه أشار إليها وفي هذا ضمان لسلامة الحجاج، كمثال قوله



"... ارتياحكم للطعان..." (504) وأيضا "... بمجالد الأبطال والفرسان" (505) وللتأكد من فاعلية واستجابة الجند لدعوته عرض مقدمة صغرى ثالثة تتمثل في قوله "... واعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه" (506) جاءت إجابة عن أسئلة عديدة، قد تتبادر إلى ذهن المتلقي وبعبارة أخرى لقد دعوت نفسي قبل أن أدعوكم، وإنّي أولكم إلى تلبية الدعوة لأن "حصول الإقناع لدى المستمع لا يكون إلا بعد مطابقة القول الحجاجي لفعل صاحبه، باعتبار المطابقة دليلا وحجة مادية تنسحب على المتكلم وتركي موقفه وتؤكد" (507) إنها الخاصية التي يسميه طه عبد الرحمان "مبدأ الإنتهاض بالعمل ويعرفها بقوله "هي الدليل الذي يجب اعتماده للعمل به، بعد أن يكون الاعتقاد قد حصل" (508).

يردّف مقدمته الثالثة بحجة دامغة في قوله "وأنّي عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية قومه لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى" (509) كانت هذه الحجة دعامة لعملية الإقناع والإفحام حيث سعى الخطيب من خلالها إلى تمرير موقفه.

كانت الدعوى في نهاية الخطاب صريحة بل كرّرها إشارة منه إلى مقدرة الجيش على تخطي هذه العقبة والتغلب على لذريق وبالتالي فتح الجزيرة ثم إعلاء كلمة الله تعالى وإظهار

503 - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان، ص 296.

504 - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

505 - نف المرجع.

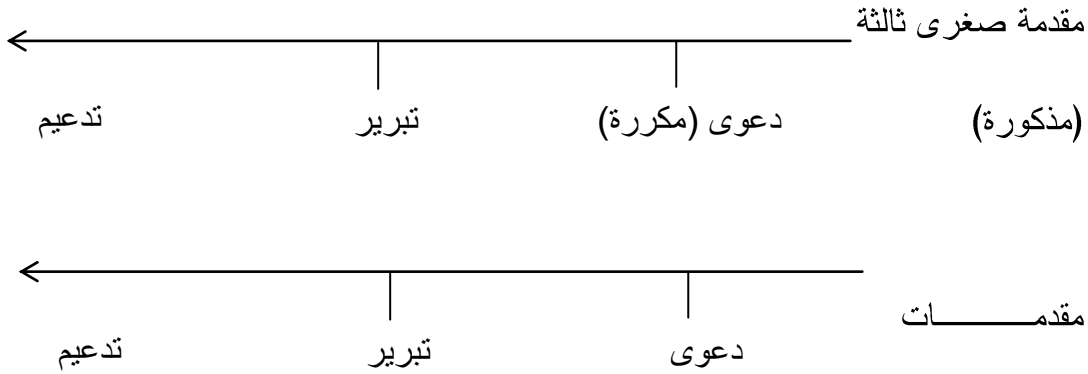
506 - نفس المرجع.

507 - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص 133.

508 - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان، ص 237.

509 - طارق بن زياد، من نص الخطبة.

دينه وقد تمثلت في قوله "... فاحملوا معي ..." (510) وأيضا "واحملوا بأنفسكم عليه" (511) "واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ..." (512).



يمكن أن نستخلص عموماً أن ترتيب أجزاء القول في نص الخطبة خضع لتنظيم معيّن فقد توسل الخطيب في بناء خطبته بمقدمة كبرى، عملت على تنبيه الجند وبالتالي حملهم على التفكير في طريقة تخرجهم من المعركة منتصرين، ذلك أن طارق وضع مقدمته على قاعدة مفادها "إذا لم تأت بما ينفي حجتي فهو الدليل على أنّها صحيحة" (513) وحتى تتجح العملية الحجاجية عرض ثلاث مقدمات صغرى. كانت الأولى تركز على بلاغة المثال وأثره باعتباره "وسيلة ناجحة للتعبير عن القيم والحقائق التي تختزل التجارب الإنسانية، وهو نوع من الاستدلال يقوم بنقطة نوعيّة من خلال الجمع بين الاستقراء والمثابرة عن طريق الحدس" (514) أمّا المقدمة الصغرى الثانية فمستوحاة من مدلول الآيتين الكريمتين "فإنّ مع العسر يسراً" (5) "إن مع العسر يسراً" (6) (515) والثالثة سجل الخطيب بها نقلة نوعيّة متميّزة ذلك أن الاقتناع لدى المخاطب لا يحصل إلاّ بعد تبني المخاطب لدعواه عملياً وهذا ما جسده القائد بقوله "واعلموا أنّي أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ..." (516) وأيضا "وأنّي عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية قومه لذريق ..." (517).

⁵¹⁰ - نفس المرجع.

⁵¹¹ - نفس المرجع.

⁵¹² - نفس المرجع.

⁵¹³ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نتغيّر، ص 166.

⁵¹⁴ - طه عبد الرحمن: أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 208.

⁵¹⁵ - آية 5، 6 من سورة الشرح.

⁵¹⁶ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁵¹⁷ - نفس المرجع.

كما وظّف الخطيب مجموعة من الأدلة، وقَدّم عدّة تبريرات تؤكّد صدق دعواه وإمكانية نجاحها، فالقائد بيّن للجند أنهم إن جاهدوا بكلّ قوة وصبروا على الشدائد، رفعوا راية الإسلام على أرض الجزيرة ونعموا بخيرات هذه الأرض، وإنّ تهاونوا وتخاذلوا فالموت مصيرهم وحتىّ يؤكّد لهم صدق أقواله تكفّل بأصعب مهمّة والمتمثلة في القضاء على لذريق، هذه الحجج ارتبطت بالمقدمات ارتباطاً منطقياً، عملت على تماسك العملية الحجاجيّة وهذا المخطط يبيّن الشكل العام لترتيب أجزاء القول في نص الخطبة.

صور الترتيب
النحوي للتركيب
في الخطبة

ستوصل الإنسان انطلاقاً من فطرته وحاجته الطبيعية إلى الاتصال من أجل التفاهم ونقل المعلومات، خدمة لهذه الغاية أوجد لنفسه وسائل متنوعة "كانت اللغة أرقاها، وأكثرها فعالية في الإبلاغ غير أن استعماله لها لم يكن جزافياً وغير مضبوط، بل ظلّ مرتبطاً بنظام تكوّن مجموعة من القواعد، والغاية من كلّ ذلك ضمان نجاح الاتصال اللغوي" (518).

أدرك العرب القدامى مفهوم الكلام من خلال معالجتهم للقضايا اللغوية، من صوتية وصرفية ونحوية "وعبروا عنها بمسميات مختلفة ومنها النظم، والتأليف والترتيب والبناء وكلّها تشير إلى عملية تنسيق الألفاظ في تراكيب لغوية صحيحة" (519).

ويعدّ الترتيب في مباني الجملة من أهم ما يجب التركيز عليه فعن طريقه "يصل إلى دلالة معينة قد لا يكون الوصل بغيره يسيراً فهو أبرز المجالات التي تظهر إتحاد المستوى التركيبي Syntax مع المستوى الدلالي Sémantique " (520).

ولقد اعتمد النحاة العرب في تصنيفهم للجملة على محورين، "الجملة الفعلية والجملة الاسمية وأساس اعتمادهم هذين المحورين يرتكز على أن العنصرين (المسند والمسند إليه) يشكلان الدّعمة الرئيسة للجملة حيث لا تتألف الجملة بدونها لفظاً أو تقديراً وقد يكتفي بهما وحدهما" (521) وبالإضافة إلى هذا المبحث تناول النحاة عدّة مواضيع لها علاقة وطيدة تداولية الخطاب كالقديم والتأخير وكذا تقدّم بعض معمولات الفعل على بعض ومن مباحث الاهتمام بالخطاب في النحو العربي "التعبير بالجملة الاسمية واختلافه عن التعبير بالجملة الفعلية حيث يكون الأول عندما يتلقى السّامع الخبر لأول مرة وليس لديه فكرة عنه أما الثاني فيكون حين ليملك السّامع على الأقل أدنى معرفة لموضوع الحديث، لكن المرسل يرسله بقصد المبالغة" (522) وهذا يتمشى مع ما ذهب إليه سيبويه في نظريته إلى المعنى وعلاقته بالبنية إلى جانب ربط بمدى صحته في الاستعمال ومطابقة الكلام للواقع حيث جعل العربية خمسة أقسام (523).

مستقيم حسن = أتيك أمس، سأتيك غدا.

⁵¹⁸ - محمد مزبان: مدخل إلى نظريات الإتصال، ص 11.

⁵¹⁹ - فاضل صالح السامرائي: الجملة العربية، ص 22.

⁵²⁰ - خليل أحمد عمارة: آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث، ص 180.

⁵²¹ - محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، ص 34.

⁵²² - خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص 228.

⁵²³ - سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ج 1 ص 25، 26.

محال = أتيتك غدا، وسأتيتك أمس

مستقيم كذب = حملت الجبل، شربت ماء البحر.

مستقيم قبيح = قد زيدا رأيت.

محال كذب = سوف أشرب ماء البحر أمس

دراسة مستوى التركيب النحوي في نص الخطبة

من خلال دراستنا لخطبة "طارق بن زياد" أظهر البحث كثرة الجمل الاسمية على حساب

مساحة الجمل الفعلية والجملة الاسمية في أصل وضعها "تفيد ثبوت شيء لشيء استقرارا وديمومة من غير تجدد إلا إذا لزمتم بها قرائن تفند ذلك" (524).

يوضح الجدول التالي التراكيب الاسمية التي وردت في المدونة (04).

الجمل الإسمية	محلها من الإعراب
- البحر من ورائكم - العدو أمامكم - أقواته موفورة - أنتم لا وزر لكم	ج - اسمية في محل نصب حال ج - اسمية في محل نصب حال ج - اسمية في محل نصب حال ج - اسمية في محل نصب حال
- أناعنه بنجوة - أرخص متاع فيها النفوس	ج - اسمية في محل نصب صفة ج - اسمية في محل جر صفة

إنّ الجمل التي وردت في نص الخطبة تعبّر حالة ثابتة لا يمكن لها أن تتغير فعند قوله "البحر أمامكم" (525) فكان البحر لن يتغير يقول الجرجاني "... وبيانه أن موضوع الاسم على

⁵²⁴- فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية، ص 29.

⁵²⁵- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدد شيئا بعد شيء...⁽⁵²⁶⁾ وفي قوله "أقواته وأسلحته موفورة"⁽⁵²⁷⁾ فالأمر كذلك لأنه بالفعل أقوات العدو متوفرة وكثيره وأسلحته متنوعة فقد أورد الزركشي أنه "إذا قصدوا مجرد الخبر أتوا بالجملة الفعلية وإن أكدوا فالاسمية..."⁽⁵²⁸⁾ ففي كل مرة يريد التأكيد يعمد إلى الجمل الاسمية التي الثبوت لا التحول. وغلبة الجمل الاسمية على الجمل الفعلية يعود إلى الأحداث نفسها وحالة جيش المسلمين، فعند قوله "إنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام..."⁽⁵²⁹⁾ يجسد واقعا ملموسا، فالجيش لا يستطيع العودة لأن السفن قد أحرقت ولا يستطيع الصبر على الجوع بالإضافة إلى قلة المؤونة بل انعدامها والتي لا يمكن أخذها من العدو إلا بالقتال نلاحظ أن المصادقية للتعبير بالجمل الاسمية.

يتضح من كل ما تقدم أن القائد ارتكز على الجمل الاسمية في صياغة نص خطبته ليؤكد واقعا ملموسا لا يمكن لأحد أن ينفيه.

إن تتبع الجمل الاسمية في نص المدونة يبرز اعتماده على الأداة التأكيدية "مما يحتج به البصريون برواية الأنباري (ت 577 هـ) أن وإن وأخواتها لما أشبهت الفعل من وجوه كثيرة، منها اشتمالها على معنى الفعل كان لها شأن الفعل... فإن على سبيل المثال معناها حققت أو أكدت...⁽⁵³⁰⁾ وهو براغماتيا عمل لغوي يعبر عن موقف اعتقادي هو أنا متحقق، فإذا نقلنا مسألة "إن" هذه من كونها تفيد عملا لغويا إلى كونها موقفا اعتقاديا أمكن لنا أن نعتبر دخول "إن" على كلامنا مفيدا معنى أنا متحقق كون كذا وهو كذا...⁽⁵³¹⁾.

وهذا فعلا ما يظهر في الأقوال التي جاءت في المدونة كقوله "إني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه..."⁽⁵³²⁾ وكذلك "إنكم إن صبرتم على الأشق"⁽⁵³³⁾ ونعلم أن الجمل الاسمية

⁵²⁶ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 70.

⁵²⁷ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁵²⁸ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 391.

⁵²⁹ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁵³⁰ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن ص 346 نقلا عن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين

والكوفيين، ص 178، 226.

⁵³¹ - نفس المرجع، ص 340.

⁵³² - طارق بن زياد: من نص المدونة.

⁵³³ - نفس المرجع.

تدل على غايات متعددة كالثبات والاستقرار، والإخبار والتأكيد. وما يمكن ملاحظته أن الجمل الاسمية التي وردت هي في حد ذاتها نتيجة أو خلاصة يعتقد الخطيب أنها غير قابلة للتغير يظهر أنه استعمل لجمل اسمية في القضايا التي ثابتة قارة والحكم فيها صادق اليوم وغدا.

2- تركيبة الجمل الفعلية في المدونة:

استعمل أيضا الجمل الفعلية ولأغراض كثيرة كالنقير والتبرير والشرح والنصح والإرشاد ولذلك اختلف الزمن فيها حسب الغرض.

أ- نسجل كثرة الأفعال الماضية:

مثل "امتدت، سمحت، صبرتم، بلغكم، انتخبكم، هلك، كفيتم... الخ"

ويستعمل (قد + الفعل الماضي) للدلالة على أن ما يخبر به صار أمرا أشبه ما يكون بالمتيقن منه "... وقد استقبلكم عدوكم..."⁽⁵³⁴⁾ وأيضا "فقد ألفت إليكم مدينته..."⁽⁵³⁵⁾ كذلك في قوله "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك..."⁽⁵³⁶⁾.

ب- الأفعال المضارعة:

جاء بالمضارع في أكثر من مرة حيث اقترن (بلا) الناهية ومن أمثلة ذلك قوله "فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي..."⁽⁵³⁷⁾ يعد استعمال النهي بهذه الصيغة دليلا صريحا على حرص القائد على أن يبلغ قصده التوجيهي إلى الجيش، وأن يفهموا منه حرصه الشديد على التقيد بهذه الوصايا وعدم مخالفتها، إذ لا تحتمل تأويلا غير معناها الحقيقي الحرفي، فالقائد ينهى ضده على التخاذل والرجوع إلى الوراء لأن في تقدمهم خيرا لهم وفرجا عظيما ومغانما كثيرة. والحقيقة أن النهي لا يختلف عن الأمر وهذا ما يشهد به أكثر من عالم، ومنهم المبرد بقوله

⁵³⁴ - نفس المرجع.

⁵³⁵ - نفس المرجع.

⁵³⁶ - نفس المرجع.

⁵³⁷ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

"واعلم أن الطالب من النهي بمنزلته من الأمر، يجري على لفظه كما جرى لفظ الأمر" (538) ولكن القائد فضل أن يكون ناهياً لا آمراً حتى يصل إلى مبتغاه.

ج- أفعال الأمر:

عدّ كثير من المحدثين الأمر من "الأفعال التوجيهية وتفاوتت تعريفاته إلى أكثر من عنصر مثل دلالة بعض أدواته أو اعتبار بعض القرائن الأخرى، بما فيها رتبة المرسل، وتناولا كيف يعدّ الخطاب أمراً" (539) فالأمر "هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء أو الإلزام، ويدل على المستقبل لأنه يطلب الفعل فيما لم يقع" (540) وللأمر دلالات كثيرة، كالوعد والوعيد والترغيب والترهيب والإقناع... الخ فقد "يستعمل المرسل الإستراتيجية التوجيهية لغير الأمر فللتوجيه وجوه كثيرة منها ما يسمى بالندب والتأديب وهذا ما يتفق مع استعمالات صيغ الأمر في اللغة العربية عندما يستعملها المرسل للإرشاد في خطاب التعليمات التي يعود النفع فيها على المرسل إليه، ولذلك فهو يلتزم بما تدلّ عليه، لنّ في الخروج عن ذلك ضرراً به..." (541) ولأنّ الأمر يعدّ من أكثر الأساليب التي يستعملها المرسل في الإستراتيجية الخطابية فإن هناك أدوات كثيرة لإنجاز الأمر، بشرط توفر السلطة وتوجّه المنفعة تجاه المرسل (...). فصيغة فعل الأمر الأصلية هي (افعل) بيد أنه لا فيه أن صيغ (افعل) ونحوها من الصيغ الدالة على المر ظاهراً في الطلب والاقتضاء وذلك أن الفعل المطلوب لا بد أن يكون فعله راجحاً على تركه، فإذا كان ممتنع الترك كان واجباً، وإن لم يكن ممتنع الترك فإما أن يكون ترجحه لمصلحة أخروية فهو المندوب، وإما لمصلحة دنيوية فهو الإرشاد، فالطالب الذي تدل عليه صيغة الأمر هو طلب الفعل، إمّا على وجه اللزوم أو على وجه الندب أو الإرشاد" (542).

538- المبرد: الكامل، تحقيق نعيم زرزور، ج2، ص 279.

539- عبد الهادي بن ظافر الشهيري: إستراتيجية الخطاب، ص 348.

540- فاضل صالح السمراني: الجملة العربية، ص 107.

541- عبد الهادي بن ظافر الشهيري: إستراتيجية الخطاب، ص 343.

542- عبد الهادي بن ظافر الشهيري: إستراتيجية الخطاب، ص 344.

وإذا ما رجعنا إلى نص المدونة نجد الصيغة الصريحة للأمر وردت في عدة مقاطع من الخطاب كقوله "فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة ...". "فاحملوا معي" وأيضا "فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه" وأيضا "اكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة" (543)

استعمل الأمر بالصيغة المعروفة بصورة متكررة، لأن الخطاب يتضمن تعليمات هامة وهي تعليمات قائد جيش المسلمين العالم بخبايا الحرب، الحريص على فتح هذه الجزيرة على الرغم من الصعوبات التي تواجههم، والمرسل ينتج خطابه بهذه الصورة بناء على ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه كما أنه يؤكد للمرسل إليه على أن قصده هو الأمر تحديدا وليس فعلا غيره، ثم إننا نجده يستعمل صيغة الأمر الصريحة ولكن هذا الأمر ينطوي على الإرشاد لأنه يريد أن ينتبه المرسل إليه بصعوبة الأوضاع وخطورة العدو والذي لا يرحمهم عند أول فرصة تتاح له. فقد جاء الأمر في قوله "اعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام" (544) وكذلك قوله "واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفة الألد طويلا ...". (545) وكذلك "اعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ...". (546) وردت الأفعال بصيغة الأمر الأصلية (افعل) وكما هو معلوم "فصيغة الأمر هو طلب الفعل إما على وجه اللزوم، أو على وجه الندب أو الإرشاد...". (547) فهذه الأقوال وردت للإرشاد والنصيحة، ولأنّ الوضع الذي يتواجد فيه الجيش تستدعي الحزم فإنه صاغ على شكل أمر صريح، حفاظا على سلامة المجاهدين وحثا لهم على الصبر وتحمل متاعب هذه المهمة.

3- أسلوب الحذف:

لنظام العلاقات في التراكيب تأثيرا مشهودا في إقامة المعنى على وجه دون وجه والحذف كثير في العربية وقد "جرى في كل نوع من أنواع الكلم فقد جرى في جزء الكلمة نحو: لم يك وجرى في حروف المعاني نحو تا الله تفتأ... وحذف الفعل نحو "أنت سعيًا" أي

543- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

544- طارق بن زياد من نص الخطبة.

545- نفس المرجع.

546- نفس المرجع.

547- عبد الهادي بن ظافر الشهيري: إستراتيجية الخطاب، ص 345.

تسعى وحذف الاسم في أحواله الإعرابية كحذف المبتدأ أو حذف الخبر وحذف المفعول وحذف الحال والمستثنى والمضاف إليه وغير ذلك...⁽⁵⁴⁸⁾.

وبالعودة إلى المدونة نجد أن الحذف جاء في عدّة مواطن وفي أكثر من موضع، فعلى سبيل المثال لا الحصر نسجّل أن الحذف شمل

أ: حذف المسند وذلك في قوله "البحر من ورائكم" "العدوّ أمامكم" ⁽⁵⁴⁹⁾ والتّقدير "البحر موجود وراءكم" و "العدو موجود أمامكم" وقد أعرض الخطيب عن ذكره لعلم السّامع به ولتفادي التّكرار الذي يبعث الملل لدى السّامع وكذلك لإتباع الاستعمال الوارد.

ب: حذف المسند إليه نجده في قوله "فقاتله إن شاء الله" ⁽⁵⁵⁰⁾ والتّقدير "فأنا قاتله إن شاء الله" حذف المبتدأ لأن السياق يدلّ عليه، ثمّ إن القائد تفادى ذلك حتّى لا يقلل من شأن جنده، يقول القزويني "وإما لتخيل أن تركه تعويلاً على شهادة العقل وإمّا لأن الخبر لا يصلح إلّا له حقيقة أو إدعاء..." ⁽⁵⁵¹⁾.

ج: حذف حرف النّداء وذلك في قوله "أيّها النّاس..." ⁽⁵⁵²⁾ والتّقدير "يا أيّها النّاس" ويعود هذا النّوع من الحذف إلى "الاستخفاف لكثرة دورانه في الكلام..." ⁽⁵⁵³⁾ بالإضافة إلى سهولة تقديرها، ولشعور المنادي بقربه من المنادى أي (القائد وجنده) بغرض إذابة المسافة بينهم، وقد تناول سيبويه هذه المسألة فقال: "المنادي مختص من بين أمته لأمره ونهيّه وخبرك" ⁽⁵⁵⁴⁾.

⁵⁴⁸ - فاضل صالح السامرائي: الجملة العربية، ص 75.

⁵⁴⁹ - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁵⁵⁰ - طارق بن زياد من نص الخطبة.

⁵⁵¹ - الخطيب القزويني: الايضاح في علوم البلاغة، ص 39.

⁵⁵² - طارق بن زياد: من نص الخطبة.

⁵⁵³ - فاضل صالح السامرائي: الجملة العربية، ص 92.

⁵⁵⁴ - سيبويه: الكتاب، ج 2، ص 232.

4- التقديم والتأخير:

جعل النّحاة للكلام رتبا بعضها أسبق من بعض فإن جئت بالكلام على الأصل لم يكن من باب التقديم والتأخير وإن وضعت الكلمة في غير مرتبتها دخلت في باب التقديم والتأخير، وإن وضعت الكلمة في غير مرتبتها دخلت في باب التقديم والتأخير يقول الجرجاني "... واعلم أن تقديم الشيء على وجهين، تقديم يقال أنه على نية التأخير وذلك في كل شيء أقررت مع التقديم على حكمه الذي كان وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ والمفعول إذا قدمته على الفاعل كقولك "منطلق زيد، وصرب عمرا زيدا" معلوم أن "منطلق" و"عمرا" لم يخرجوا بالتقديم عما كان عليه، من كون هذا الخبر مبتدأ ومرفوعا بذلك وكون ذلك مفعولا منصوبا من أجله كما يكون إذا أخرت، وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعله بابا غير بابيه وإعرابا غير إعرابه..." (555).

والمتصفح المدونة يجد تقديم المعمول على العامل وذلك بنية الاهتمام كما في قوله "...

وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال..." (556) قدّم الجند على الخليفة وفي هذا رفعا من شأنهم وفد ذكر سيبويه أن العرب "كأنهم يقدمون الذي شأنه أهمّ لهم، وهم ببيانه أعنى وإن كان جميعا يهملهم ويعنيانهم..." (557) كما نجد التقديم في القول التالي "ولن يعوزكم بطل تستندون أمركم إليه..." (558) في كلّ مرّة نجده يقدّم المجاهدين على غيرهم، فقد قدّمهم على خليفة المسلمين مرّة، وعلى شخصه مرّة ثانية وفي كلّ هذا مظهرا من مظاهر الاهتمام والحفاوة بهم وكيف ذكر الزركشي أن التقديم سببه "أن يكون الخاطر ملتفتا إليه والهمة معقودة به".

كما نجد تقديم جواب الشرط على الشرّك في قوله: "وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم بأنفسكم للموت..." (559) قدّم جواب الشرط لإظهار الجزاء والترغيب في الجهاد، فإن

555- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 171.

556- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

557- سيبويه: الكتاب، ج 1، ص 10.

558- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

559- نفس المرجع.

أخلصوا العمل لله فالنصر أكيد على العدو، ولأنّ الإنسان يميل بطبعه إلى الخير ويستعجل النصر، فقد بشرهم به قبل أوامره، وفي ذلك دفعا لهم على الجهاد.

5- كثرة الصفات:

انتشرت الصفات على مساحة واسعة من المدونة ففي قوله "أيّها النّاس..."⁽⁵⁶⁰⁾

"فقد ألقت إليكم مدينته المحضة..."⁽⁵⁶¹⁾

"... استمتعتم بالأرفة الألد طويلا..."⁽⁵⁶²⁾

"... وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان الرافلات في الدّر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك..."⁽⁵⁶³⁾

وأیضا "ولن يعوزكم بطل عائل..."⁽⁵⁶⁴⁾

يقول الزركشي "الصفة مخصصة إن وقعت صفة للنكرة وموضحة للمعرفة"⁽⁵⁶⁵⁾ نجد أن الأقوال الأربعة الأولى جاءت لغرض التعريف والتوضيح ولزيادة البيان، وهذه الصفات أغنت المدونة وزودتها بنوع من الإيضاح، أمّا القول الخامس فقد وردت الصفة (عاقلة) لموصوف نكرة وفي هذا تخصيصا له.

6- البديل:

القصد من البديل "الإيضاح بعد الإبهام، وهو يفيد البيان والتأكيد..."⁽⁵⁶⁶⁾ ونجده في عدّة أقوال منها "... واعلموا أنكم في هذه الجزيرة..."⁽⁵⁶⁷⁾ وأيضا "... فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة..."⁽⁵⁶⁸⁾

⁵⁶⁰ - نفس المرجع.

⁵⁶¹ - نفس المرجع.

⁵⁶² - نفس المرجع.

⁵⁶³ - نفس المرجع.

⁵⁶⁴ - نفس المرجع.

⁵⁶⁵ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 422.

⁵⁶⁶ - نفس المرجع/ ج2، ص 454.

⁵⁶⁷ - طارق بن زياد: من نص المدونة.

"... إني حامل بنفسي على طاغية قومه لذريق ... " (569)

"... وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك ... " (570).

جاء بالبدل ليؤكد أقواله وهو ما ذهب إليه سيبويه في قوله "... على أن من البدل ما

الغرض منه التأكيد ... " (571) فالخطيب في حاجة إلى أدوات يؤكد بها ما يذهب إليه لأن

الخطبة تهدف إلى الإقناع واستمالة المتلقين. وحتى يتفادى التكرار جاء بالبدل عوضاً عنه لأن

البدل "في تقدير تكرار العامل ... " (572)

⁵⁶⁸ - نفس المرجع.

⁵⁶⁹ - نفس المرجع.

⁵⁷⁰ - نفس المرجع.

⁵⁷¹ - سيبويه: الكتاب، ج2، ص 289.

⁵⁷² - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 455.

استثمار نظريّة
السّلام الحجاجيّة في
الخطبة

يسعى الخطاب الإقناعي إلى "إحداثيات تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمرسل إليه" (573) ولتحقيق هذه الغاية يلجأ المرسل إلى مجموعة من الحجج تتنامى تصاعديا بحيث تكون كلّ حجة أقوى من سابقتها، حتى يصل الخطاب إلى الهدف المسطر، "فالمرسل عندما يطالب غيره بمشاركته اعتقاده، فإن مطالبته لا تكتسي صيغة الإكراه، ولا تتدرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة تجرّ الغير جرّا إلى الإقناع برأي المرسل" (574)

تتجلى "العلاقة المجازية بين الدعوى والحجة لتصبح شبه منطقية إلى حدّ ما وذلك بالرغم من أنّها تتجسد بطبيعة الحال من خلال الأدوات اللغوية، فيتمثّل صلب فعل الحجاج في تدافع الحجج وترتيبها حسب قوتها، إذ لا يثبت غالبا إلاّ الحجة التي تفرض ذاتها على أنّها أقوى الحجج في السياق ولذلك يرتب المرسل الحجج التي يرى أنّها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواه" (575) وهذا الترتيب هو ما اصطلح عليه باسم السلم الحجاجي.

1- تعريف السلم الحجاجي:

يعرّفه عبد الرحمان على النحو التالي "هو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموقّية بالشرطين التاليين:

أ. كل قول يقع ف مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع التي دونه.

ب. كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معيّن، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه.

ن (الفوز بمغانم الجزيرة)

والمثال الآتي يبيّن ذلك:

- | | |
|-----------------------|---|
| ج - القضاء على لذريق | ج |
| ب - الحمل على العدو | ب |
| أ - الصبر على الشدائد | أ |

⁵⁷³ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان، ص 271.

⁵⁷⁴ - عبد الهادي ظافر الشهيري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص 446.

⁵⁷⁵ - نعمان بوقرة: الخطاب التداولي بين التراث والدراسات الغربية الحديثة ص 27.

حيث أ و ب و ج ترمز إلى الأدلة و(ن) إلى النتيجة التي يصل إليها الجند إن تمكنوا الشدائد كالخوف والجوع والتعب ثم مهاجمة العدو بما يتوفرون عليه من أسلحة وأخيرا القضاء على قائد جيش العدو (لنزريق)، فحينئذ القول (جـ) يلزم عنه القول (ب) الذي يلزم عنه بدوره القول (أ)، كما أن (جـ) هو أقوى إثباتا لمدلول (ن) من (ب) الذي بدوره أقوى لهذا المدلول (ن) من (أ) بمعنى آخر أن القول (جـ) يقع في أعلى السلم لأنّ بالقضاء على لنزريق تحسم المعركة لصالح المسلمين وبالتالي فتح الجزيرة ومنه الفوز بمغانمها الكثيرة والمتنوعة.

2- أهمية السلم الحجاجي:

إذا كانت الحجج تتفاوت من حيث قوة الإثبات فإنّ "السلم الحجاجي في الخطاب من حيث تركيزه على مبدأ التدرج في المنحى على مرجع محدد بل هي رهينة القوة والضعف، الذي ينفي عنها لمنطق الصق والكذب ومما تجدر الإشارة إليه أن المتكلمين يختلفون في بناء منظومة السّلام إذ أنّها متّسمة بالخصوصيّة والذاتية ..."⁽⁵⁷⁶⁾ فالحجج تصاغ وترتب حسب معتقد وثقافة المتلقين فما يصلح أن يكون دامغة في مجتمع معين قد لا يصلح في غيره.

3- قوانين السلم الحجاجي:

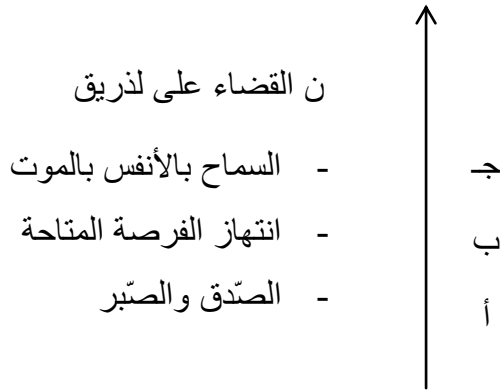
ارتبطت فكرة الحجاج لدى (ديكرو) بمفهوم السلم الحجاجي الذي تشكّل الروابط المنطقية درجاته ولهذا قوانين تضبطه نوجزها فيما يلي:

1.3 قانون الخفض:

ويعرّفه طه عبد الرحمان "أنّه إذا صدق القول في مراتب معيّنة من السلم، فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها ..."⁽⁵⁷⁷⁾ والمثال التالي يوضح ذلك

⁵⁷⁶ - نعمان بوقرة: الخطاب التداولي بين التراث والدراسات الغربية الحديثة، ص 52.

⁵⁷⁷ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان، ص 272.



فهذه الحجج كلّها تؤكد "القضاء على لذريق" ولقد رتبت وفق درجات قوتها على المدلول فلقد بدأ بأقلها دلالة إذ يعدّ الصبر والصدق الواجب توفرهما في المجاهد وهكذا تتعالى الحجج ليضيف كلّ منها مبررا أقوى للقضاء على هذا الطاغية لأنّ الصبر والصدق لا يكفيان لضمان القضاء على قائد جيش العدو ولكنّ انتهاز الفرصة المتاحة والتّحلي بالشجاعة والإقدام من شأنهما أن يضاعفا من فرصة القضاء عليه ثمّ تأتي الأقوى ألا وهي السّماح بالأنفس للموت. نلاحظ كيف أن الحجة (ج) رتبت في أعلى السّلم الحجاجي لأنها أقوى في الدّلالة على الوصول غلى النتيجة والمتمثلة في القضاء على لذريق. ويؤدي نفي احد الحجج إلى نفي مدلول الخطاب وهذا هو القانون الثّاني للسّلم الحجاجي والذي يسميه طه عبد الرحمان.

2.3 قانون تبديل السّلم:

يبين هذا القانون أنّه "إذا كان القول دليلا على مدلول معيّن فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله" (578) إذ يمكن أن ينفي المرسل القضاء على لذريق بالقول الثّالي "لم ينتهزوا الفرصة المتاحة لهم" ولكن قوة النّفي "تترتب ترتيبا عكسيّا، إذ أن نفي ما يقع في أدنى السّلم هو نفي أقوى لمدلول الخطاب" (579) فنفي صفة الصبر دليل أقوى من كلّ الأدلة الأخرى لأنّ النّصر لا يكون حليف جيش يجزع لأيّ ظرف يحلّ به، وبما أنّه لا يقوى على الصبر فإنه لن يتمكن من انتهاز الفرصة المتاحة، بيد أن نفي أي درجة أو دليل في السّلم لا يستلزم نفي ما يقع في المرتبة التي تدنوه، فنفي انتهاز الفرصة لا ينفي بالضرورة صدق وصبر المجاهدين.

⁵⁷⁸ - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان، ص 273.

⁵⁷⁹ - عبد الهادي بن ظافر الشهيري: استراتيجيات الخطاب، ص 502.

3.3 قانون القلب:

يتضح من خلال هذا القانون أنه "إذا كان أحد القوانين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على نقيض المدلول" (580) وهذا المثال يوضح ذلك.

ن (التمتع بغنائم الجزيرة	↑
- قتل لذريق	ج
- محاربة العدو	ب
- الصبر على الشدائد	أ

من خلال هذا المثال نجد أن قتل لذريق أقوى دلالة على إمكانية التمتع بمغانم الجزيرة من محاربة العدو، ولأن بقتله تفتح أبواب المدينة وتخضع لسلطان المسلمين وبالتالي يتمتع الفاتحون بمغانم المدينة التي وعدهم إياهم القائد طارق بن زياد، ولذلك فنفي محاربتهم لجيش العدو دليل أقوى على عدم التمتع بالمغانم لأن القضاء على لذريق لا يكون إلا بخوض المعركة ضد جيشه.

وإذا كان السلم الحجاجي يبدو مقتصرًا على العلاقات اللغوية أو شبه المنطقية، إدراج كثير من أدوات الحجاج وآلياته ضمنه ليصبح إطارًا عامًا لتفاضل الحجج، بل وتغليب بعضها على البعض الآخر، انطلاقًا من المخزون اللغوي ونظامه والترتيبات المكتنزة في ذهن الإنسان بتفعيل الكفاءة التداولية" (581) وعليه فإن الآليات التي تسمح بترتيب الحجج متنوعة وكثيرة نذكر بعضها.

⁵⁸⁰ - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص 274.

⁵⁸¹ - أبو بكر العزاوي: نحو مقاربة حجاجية للاستعارة، مجلة المناظرة، ص 16.

4- وسائل السّلم الحجاجي:

- يتحقق ترتيب الحجج باستعمال أدوات لغويّة وآليات شبه منطقيّة تتمثل في:
- الأدوات اللّغوية كالروابط الحجاجيّة، والسّمات الدلاليّة، ودرجات التوكيد.
- الصّيغ الصّرفيّة (أفعل التفضيل، صيغ المبالغة)
- حجة الدليل (582)

ونحاول أن نبين كيف وردت هذه الآليات في نص المدونة.

1.4 الروابط الحجاجيّة:

من المعلوم أن الرّابط الحجاجي "يقوم بعملية الرّبط بين قضيتين وترتيب درجاتها بوصف هذه القضايا حججا في الخطاب" (583).

2.4 السّمات الدلاليّة:

يعود ترتيب الحجج إلى "رؤية المرسل فإنّ الحجة الواحدة قد ترتقي إلى أعلى السّلم من وجهة نظر معينة، كما قد تدنو إلى أدنى السّلم حسب وجهة نظر أخرى..." (584) ونستطيع أن نمثل لذلك على النحو الآتي:

ن (نيل ثواب الله)	
- نشر الدّين وإعلاء كلمة الله على هذه الجزيرة	د
- فتح الجزيرة	ج
- قتل لذريق	ب
- الجهاد في سبيل الله	أ

⁵⁸² - عبد الهادي بن ظافر عشير: استراتيجيات الخطاب، ص 507.

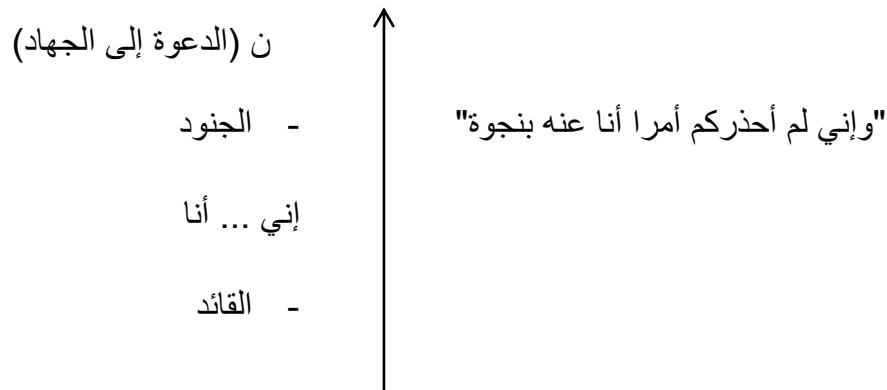
⁵⁸³ - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص 197.

⁵⁸⁴ - عبد الهادي بن ظافر الشهيري: استراتيجيات الخطاب، ص 521.

فلو نظرنا إلى الحجج حول نيل "ثواب الله" لوجدنا أن الخطيب قد وضع إعلاء كلمة الله (نشر الدين) أعلى السلم الحججي وهو ما يمكن تصنيفه على أنه بمثابة السمات الدلالية فلو كان الأمر يتعلق بغير المسلمين لاختلف ترتيب الحجج "وهو ما يجعل الخطاب بهذه الصورة أقوى حججاً" (585) فقد رتب الحجج بطريقة "تفيد العملية فتبرز استناد الربط مع النتيجة إلى ما ينزل المتفق عليه بين المتخاطبين" (586) وطبعاً نيل الشهادة يجمع على أنه أسمى الأهداف بالنسبة للمسلمين.

3.4 درجات التوكيد:

لقد سبق الحديث عن أدوات التوكيد ودورها في العملية الحججية ويمكن أن نمثلها على السلم الحججي بالطريقة التالية:



بالإضافة إلى هذه الروابط هناك "التراكيب التي تترتب فيها الحجج حسب درجتها الحججية كالتركيب الذي يتضمن الأداتين (ما ... إلّا) في ترتيب الحجج في سلم واحد، إذ إن (ما ... إلّا) عامل يوجه القول وجهة واحدة نحو الانخفاض ... (587) وهذا النوع من التركيب استثمره الخطيب لإقناع الجند وتوجيه الخطاب نحو الوجهة التي سطرّها ففي قوله

⁵⁸⁵ - نعمان بوقرة: الخطاب التداولي بين التراث والدراسات الغربية الحديثة ص 57.

⁵⁸⁶ - نعمان بوقرة: الخطاب التداولي بين التراث والدراسات الغربية الحديثة ص 57، 58.

⁵⁸⁷ - أبو بكر العزاوي: نحو مقاربة حجاجية للاستعارة، ص 18.

"البحر من ورائكم والعدو أمامكم... فليس لكم والله إلا الصّدق والصّبر" (588) إذا صنّف

الخطيب بواسطة استعمال هذا التركيب حججه إلى أكثر من مستوى، وبالتالي إلى أكثر من

قوة، أقواها هو ما جاء بعد إلا أي (الصّدق والصّبر) إذ جعل الصّدق والصّبر في أعلى

السّلم الحجاجي فقد وجهت (إلا) القول إلى ما جاء بعدها وهو كذلك لأنّ الجنود لا يملكون ما

يملكه العدو من أسلحة ومؤونة ولو قال "لديكم الصّدق والصّبر" لظنّ السّامع أنّهم يملكون

أشياء أخرى فالرّابط (إلا) عمل على إلغاء كلّ ما جاء قبلها وبالتالي يرتب (الصّدق والصّبر)

في أعلى السّلم الحجاجي وكذلك قوله "وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما

تستخلصونه من أيدي أعدائكم" (589) في هذا القول أيضا ترتيبا للحجج، فجيش المسلمين يفتقر

لمقومات الحياة والصّمود على هذه الجزيرة فلا سلاح (غير سيوفهم) فالرّابط (غير) وجّه

القول إلى ما جاء بعدها حتّى يتيقن السّامع أنّ هؤلاء الجنود لا يملكون وسائل متعدّدة بل

سلاحهم يتمثل في السيوف لا غير. إذن هناك ترتيب عمل الرّابط (غير) على إبرازه والأمر

نفسه بالنسبة للشّطر الثاني من القول (ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم..."

المعلوم أنّهم جاءوا إلى هذه الجزيرة على متن سفن قام القائد بحرقها فانعدمت أسباب

الحياة أولها الغذاء العامل الرئيس لاستمرار البقاء ولا يمكن الحصول عليه إلا من العداء

فالرّابط (إلا) وجّه القول إلى ما جاء بعدها ويمكن التّمثيل بهذا الرسم.

افتقار المسلمين لعتاد الحربي

افتقار المسلمين للغذاء

- السيوف

غير

- لا خيول

- لا ملجأ

- ما يستخلصونه من الأعداء

إلا

- لا يوجد غذاء

588- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

589- طارق بن زياد: من نص الخطبة.

4.4 الصيغ الصرفية:

إنّ عمل المحاجة يحتاج إلى جانبين "أحدهما هو تقديم الحجة والآخر هو استخلاص النتيجة" (590) والصيغ تلعب دوراً هاماً في استخلاص نتيجة بعينها والتحليل التداولي للصيغ الصرفية يبرز الفروق الموجودة بين الأقوال ومن أمثلة ذلك نسوق ما ورد على لسان طارق بن زياد.

"واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالألفة الألدّ طويلاً" يبدو أن هناك اتفاقاً على الأوقات التي يعيشها الجند صعبة جداً والذي أكد هذا القول الصيغة الصرفية (أشق) فلا يمكن القول بأن الشقاء آخر وبالتالي يقع في أعلى السلم الحجاجي وكذلك الأمر بالنسبة للصيغة الصرفية (ألدّ) فالنعيم الذي سيسود الجند لا يضاهيه نعيم (قصور، حور حسان، أعلاء كلمة الله على أرض الجزيرة) لأنّه يجمع بين الدنيا والآخرة فالخير الذي سيعمهم أبديّ لأنّه رضي الله عنهم. فالصيغة الصرفية وجهت القول إلى أعلى مراتب السلم الحجاجي.



أفضى هذا البحث إلى جملة من النتائج، وإن كنت أضع لكل فصل من الفصول شبه خلاصة، أضمّنها أهم الأفكار الرئيسة الواردة.

تعود دراسة النصّ الحجاجي إلى أزمنة خلت، ابتداء من مؤلفات أرسطو ولاسيما في الخطابة، ثمّ ما توارثه العرب عن أصول الخطابة انتهاء إلى الإرث الفكري الضخم الذي أحاط بكل ما يمكن أن يطرأ على هذا النصّ من خلال تطبيقات كبار المفكرين و الفلاسفة .

الحجاج عنوان كبير لممارسات فكرية نشيطة، يتسرب إلى كافة مناحي الحياة، وعند الجميع من ابسط الناس مستوى إلى أكثرهم لدداً وقوة في الخصومة، فالحجاج من أهم أنواع الخطاب تتدرج تحته أجناس عدّة باعتبار وجود عناصر مهمّة والعمل الحجاجي الناجح، الذي استوفى كلّ الشّروط المؤدّية إلى الإقناع من خلال المرتكزات المنطقية والأساليب اللغوية خاصّة ونحن نعيش زمن صعباً، سيّطر فيه على العلم إلما بدور وسائل الإعلام السّميّة والمرئيّة، بحيث يمكن أن يشكّل الحجاج مذهباً للنّاس، يقوي فيهم روح البحث والتّدقيق فيما يعرض عليهم وبخاصة الأطفال وينمي وظيفة العقل ويمنحه مناعة، ويجعله لا يقبل ما يرى وما يسمع من أخلاق غريبة وعادات فاسدة، وأنماط تفكير منحرفة في وسائل الإعلام الغربيّة والعربيّة، لأن التلقّي حينها سيكون قادراً على مواجهة كلّ ذلك بالحجة الصائبة الدّينية والأخلاقية والعقلية، بل على المسلمين أن يستفيدوا كما استفاد الغربيون في توظيف الحجاج في فعل أهم شيء، الدّعوة إلى القيم الروحيّة للإسلام الحقيقي.

يعد طارق ابن زياد من أشهر زعماء المقاومة الإسلامية في العصر العربي الوسيط وقد استطاع بواسطة عقيدة الإسلام وسماحة الدين ويسر الشريعة الرّبانية أن يتعلّم القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، و بفضلها فتح الأندلس ونشر الإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية وتعتبر خطبته التي ألّفها على مسمع من اثني عشر ألف جندي أقدم نص نثري في الأدب المغربي ، و من ثم يكون طارق أول أديب مغربي أرسى دعائم الأدب في المغرب العربي ووطّد أسسه الفنيّة و الجماليّة على مرتكزات أسلوبية آية في الروعة و البيان و التّصوير الفني فقد حفلت خطبته بحجج منطقية مؤسّسة على بنية الواقع ساهمت بشكل كبير



وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة
أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألفت به إليكم مدينته المحصنة، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن
إن سمعتم بأنفسكم للموت. وإنني لم أحذر كما أمر أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع
فيها النفوس (من غير أن) أبداً بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً، استمتعتم بالأروقة
الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيها وفّر من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت
هذه الجزيرة من العور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدرّ والمرجان، والحلل المنسوجة
بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير
المؤمنين من الأبطال عرباً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أقصا صارا وأختنا، ثقة منه بارتياحكم
للطعان، واستماحكم بمجادة الأبطال والفرسان، ليكون حظكم معكم ثواب الله على إعلاء كلمته
وإظهار دينه، بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خاصة لكم مندونه ومن دون المسلمين سواكم
، والله وليّ أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أني أول محبب إلي ما دعوتكم إليه، وإنني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على
طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معي، فإن هلكته بعده فقد كفيتكم أمره ولن
يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكته قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه
واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون. (591)



تثبيت المصطلحات	
(A)	
Acte / action	فعل
Acte d'argumentation	فعل حجاجي
Acte illocutionnaire	الفعل اللاقولي
Acte locutionnaire	الفعل القولي
Acte perlocutionnaire	الفعل التأثيري
Acte présupposé	فعل المقتضى
Adition	الإضافة
Analogue	مماثلة
Argument	الحجة
Argumentation	الحجاج
Argumentation persuasive	الحجاج الاقناعي
Argumentation convaincante	الحجاج الاقتناعي
Argumentation par l'ignorance	الحجاج بالتجهيل
Argumentation d'autorité	الحجاج بالسلطة
L'auditoire universel	الجمهور الكوني
Argumentation de la présence	تقوية حضور الشيء (في الذهن)
(C)	
Clarification	التوضيح
Conditions de succès	شروط النجاح
Conditions d'emploi	شروط الاستعمال
Cohésion	الاتساق (الربط النصي)
Contexte	السياق
Contrat	العقد
Conviction	الاقتناع
Corpus	المدونة

(D)	
Débat	المناظرة
Définition	التعريف (الحد)
Démonstration	البرهان
Délibératif	مشاوري
Dialogue	حوار
Discussion	مناقشة
Disputeur	معاند
Division	التقسيم
Discours	الخطاب
(E)	
Elaboration	الأحكام
Glorification	التعظيم
Enthymème	الضمير
Heuristique	استكشاف
Exemple	المثال
Exemplification	الشرح بالتمثيل
Expansion	التمديد، التوسع
Echelle argumentative	السلم الحجائي
(G)	
Giduciare	مشاجري
(I)	
Indiction	الاستقراء
Intertextualité	التناص
(L)	
Lieux	المواضع
Lieux d'accident	مواضع العرض
Lieux de définition	مواضع الحد
Lieux de genre	مواضع الجنس

Lieux de propre	المواضع الخاصة
Lieux de qualité	مواضع الكيف
Lieux de quantité	مواضع الكم
(M)	
Maxime de modalité	بديهية التوجيه
Maxime de qualité	بديهية الصدق
Maxime de quantité	بديهية الكمية
Maxime de relation	بديهية العلاقة
(N)	
Négation	النفى
Négativisme	السلبية
La nouvelle rhétorique	البلاغة الجديدة
(O)	
Opinion	ظن (رأي)
(P)	
Paralogisme	مغالطة
Parallélisme	التوازي
Performance	انجاز (الكلام)
Persuasion	الإقناع
Partition	التوزيع
Preuves communes	الحجج المشتركة
Preuves particulières	الحجج الخاصة
Principe de pertinence	قانون الإفادة
Principe de sincérité	قانون الصدق
(R)	
Raisonnement	الاستدلال
Référence	الإحالة
Réfutations sophistique	التبكيئات السفسطائية
Réfutatif	تبكيئي، تفنيدي
(S)	

Savoir	معرفة
Science	علم
Syllogisme	القياس المنطقي
Sarites	القياس المتدرج
Structure	بنية
Synonyme	مترادف
Syntagmatique	التركيبية
Système	نسق (نظام)
Sémantique	الدلالة
Sophistes	السفسطائيون



أولاً-المصدر:

1- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم دار علوم القرآن، دمشق، ط1، 1405هـ

ثانياً-المراجع العربية القديمة ومنها المعاجم:

ابن الأثير (ضياء الدين)

2- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت 1989.

ابن جني (أبو الفتح عثمان)

3- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي وناصر عبد الحليم، دار المعرفة، بيروت 1986.

ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج)

4- تلبيس إبليس، تحقيق خالد بن محمد بن عثمان، قدّم له علي عبد العال طهطاوي، مكتبة الصفا، ط1، 1432هـ-2001م

ابن خلدون (عبد الرحمن)

5- المقدمة، مكتبة صادر، ط1، 2000

الاستربادي (رضي الدين)

6- شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، تحقيق رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت 2000.

ابن كثير (أبو الفداء الحافظ)

البداية والنهاية، تحقيق جمهور من المحققين، مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1405هـ
1985م

ابن مضاء (القرطبي)

8- الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، مصر، 1982.

الباجي (أبو الوليد)

9- المنهاج في ترتيب الحاج، تحقيق عبد المجيد التركي، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1987.

الجاحظ (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)

10- البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمان)

11- دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، دت 10-

الخطيب (القرويني)

12- الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، دت

الزجاج (أبو إسحاق)

13- إعراب القرآن، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1994

الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)

14- المفصل في علوم البلاغة، تحقيق سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت

15- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، دار الفكر والتوزيع عمان، 2000.

السكاكي (أبو يعقوب)

المصادر والمراجع

16- مفتاح العلوم، ضبط وتصحيح احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت

سيبويه (أبو بشر عمر بن قنبر)

17- الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت 1991

السيوطي (جلال الدين)

18- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبط وتصحيح احمد شمس الدين، دار الكتب

العلمية، بيروت، 1988

المبرد (أبو العباس)

19- الكامل، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت

المقري (شهاب الدين)

20- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق

ثالثاً- المراجع العربية الحديثة والمترجمة:

أرسطو

21- الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة مطبوعات الكتب ودار القلم، بيروت

1979

بناني (محمد الصغير)

22- النظرية اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيات والتبيين، ديوان

المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر 1983

بوجادي (خليفة)

23- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة

للنشر والتوزيع، ط1، 2009

بوقره(نعمان)

24- النظرية البيانية عند ابن حزم الأندلسي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2005

25- مباحث في اللسانيات، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2007

26- الخطاب التداولي بين التراث والدراسات الغربية الحديثة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب

27- جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع 1430هـ -2009م

الجابري(محمد)

28- تكوين العقل العربي، مكتبة صادر، بيروت ، د ت

الجراري (عباس)

29- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها مكتبة المعارف ، الرباط ، 1982

حجازي(محمود فهمي)

30- عام اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة د ت.

حركات(إبراهيم)

31- المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الرباط، ط1، 2000

الحمزاوي(محمد حبيب)

32- فن الحوار والمناظرة في الأدبين العربي والفارسي في العصر الحديث، دراسة مقارنة، مركز الإسكندرية للكتاب، ط 1، 2001م

خطابي(محمد)

33- لسانيات النص ،مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي،بيروت ، 1999

خفاجي(عبد المنعم)

34- البحوث الأدبية مصادرها ومناهجها، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، لبنان.

الدريدي(سامية)

35- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، عالم الكتب الحديث اريد وجدار الكتاب العالمي، ط1، 1418هـ -1998م

دومنيك(مانقونو)

36- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاط ط22005

دييوغراند(روبرت)

37- النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1418هـ -1998م

السبعراوي(طه عبد الله)

38- أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان، 2005

السعران(محمود)

39- علم اللغة،دار النهضة العربية، بيروت،د ت

السمرائي (فاضل صالح)

40- الجملة العربية، دار الفكر للنشر،الأردن،2009

سعيد ييف (ارنور) وسلوم (توفيق)

41- الفلسفة العربية الإسلامية، دار فارابي، لبنان، ط2 ، 2000

الشهري(عبد الهادي بن ظافر)

42-إستراتيجية الخطاب،دار الكتب العلمية،بيروت، ط1، 2004.

الصّديق (حسين)

43- المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان،

مكتبة لبنان، ط1،2000

الصلابي (علي محمد)

44- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، دار الفجر للتراث، القاهرة،2005

صلاح (حسين)

45- مدخل إلى علم الدلالة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 2008

طه (عبد الرحمن)

46- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي ، ط2، 2000

47- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ،المركز الثقافي العربي ،ط2، 2006

48- تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط1،1994

عدناني (عبد القادر)

49- الفلسفة، المعهد التربوي الوطني، الجزائر

العزاوي (ابوبكر)

50- اللغة والحجاج، الرَّحَاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009

51- الخطاب والحجاج، مؤسسة الرَّحَاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 2010.

عشير (عبد السلام)

52- عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق 2006

عطية (محمد هاشم)

53- الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، 1999

عمارة (خليل احمد)

54- آراء غي الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث، دار النشر، عمان، ط1، 1989

العمرى (محمد)

55- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها إفريقيا الشرق، بيروت، 2000

56- في بلاغة الخطاب الاقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق، بيروت

الفقي (صبحي إبراهيم)

57- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السّور المكية، دار

قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2004

الكتاني (محمد)

المصادر و المراجع

58-جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي،دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء،ط1، 1992

كنون (عبد الله)

59-صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، دار الفجر للتراث،القاهرة،2005

كورنفورت (موريس)

60- مدخل إلى المادية الجدلية،ترجمة محمد مصطفى، دار الغرابي، بيروت،1984

لاشين (عبد الفتاح)

61-المعاني في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة،1999

لايكوف (جورج)

62-الاستعارة التي نحيا بها، ترجمة محمد عبد الجليل العريض،دار النهضة العربية،د

ت

محمد حماسة (عبد اللطيف)

63- بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر،القاهرة، 2003

محمد رضا (عبد الرحمن)

64- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية، دار الفكر العربي، 2000

مزيان (محمد)

65-مدخل إلى نظريات الاتصال، دار لآلة سكين،الجزائر،ط1،2008

مفتاح (محمد)

66-تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، المركز الثقافي،الدار البيضاء، ط3،1992

ملیكة (غبار) ومحمد (رويض) واحمد (أمزیل) وعلي (أعجوز)

67-الحجاج في درس الفلسفة ،إفريقيا الشرق، المغرب،2006

رابعاً - السلاسل سلسلة آداب ،فريق البحث في البلاغة والحجاج، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب ،منوبة، تونس

سلسلة لسانيات،المجلد13 ،صوله (عبد الله)،الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ،منشورات كلية الآداب بمنوبة ،تونس،2001،(الجزء 1،

الدوريات

مجلة فصول،البلاغة عند اليونان، عبد الجبار الشرافي، المجلد14،العدد4، شتاء 1996

مجلة عالم الفكر ،الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب،الكويت،ع1 سبتمبر2001.

مجلة علامات، العمري (محمد)، هل يوجد حجاج غير بلاغي، المجلد6، العدد 4،شتاء 1996

مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، العدد 10، 1996

مجلة المناظرة، نحو مقاربة حجاجية للاستعارة، العدد 4، ماي 1991

خامسا - المراجع الأجنبية

Austin (John lamgshaw)

1-Quand dire c'est faire , traduction française de : Gille lane –
postface de : Français Récanati – édition du seuil ,paris ,1970

Ducrot (Oswald)

2- Les échelles argumentatives , Minuit , paris , 1980

3- Le dire et le dit , Minuit , paris , 1984

4- Dire et ne pas dit , principes de sémantiques ,
linguistique,hermann,1972

5- Dubois(Jean) et autres, dictionnaire de linguistique et des
sciences du langage, Larousse,1994

6-Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, paris, éd du
seui,1994

Meyer(Michel)

7-logique, langage et argumentation, hachette, paris,1982

Moeschler(Jaques)

8-Elément de rhétorique et d'argumentation, dunod, paris,1993

Perlman(Charles) et O blrechts(Tytecal)

9-Traite de l'argumentation, la nouvelle rhétorique,ed,de
l'université de Bruxelles

10-Petit Robert ,dictionnaire de la langue français,1ér rédaction,
paris,1990

11-Longman,dictionary of contemporary english,longman,1989



الفهرس

إهداء

شكر وتقدير

أ- د

المقدمة

الفصل الأول تاريخ الحجاج

01	1-الحجاج عند اليونان
02	توطئة
03	-التفكير الحجاجي عند كوراكس
04	-التفكير الحجاج عند أفلاطون
05	- التفكير الحجاجي عند أرسطو
06	- جبهات الحجاج عند أرسطو
09	-أهم أدوات الحجاج عند أرسطو
12	خلاصة
14	2- الحجاج عند العرب
15	توطئة
16	الحجاج في الجاهلية
17	الحجاج القرآن
19	الحجاج في الثقافة الإسلامية
21	-المناظرة في التاريخ الإسلامي
23	-المناظرة وتعريفاتها
23	-موضوعات المناظرة
28	3-الحجاج عند الغربيين المحدثين
29	-توطئة
30	- الحجاج عند بيرلمان وتيتكاه
34	-الحجاج عند مايير
38	-الحجاج عند أوسكمبر وديكرو

40	-الخلاصة
41	4-الحجاج والبيان والبلاغة والخطابة بين التّراث والبلاغة الحديثة
42	-توطئة
43	-مفهوم البيان عند الجاحظ
48	- الدّراسات اللسانية العربية الحديثة
52	الخلاصة
	الفصل الثاني الحجاج مفهومه، آلياته، وخصائصه اللسانية والعقلية
54	1-مفهوما لحجاج
54	-توطئة
55	-تعريف الحجاج
58	-سمات الحجج اللغوية
59	-المبادئ الحجاجية
60	2- الوسائل اللسانية
61	-توطئة
62	-الإحالة
63	-المزدوج
65	-التكرار
67	-التوكيد
69	-القصر والاستثناء
71	-النفي
73	-التقديم والتأخير
74	- الوصل والفصل
75	-الحذف
77	الرّبط الحكمي
79	3- الوسائل المنطقية
80	توطئة
81	-القياس
82	-وظيفة القياس

83	-أنواع الأقيسة
84	-مرتكزات الحجج
85	-التقنيات الحجاجية
87	-الحجج المؤسسة على بنية الواقع
88	-الاتصال المؤسس لبنية الواقع
90	-الطرائق الانفصالية في الحجج
91	الخلاصة

الفصل الثالث التحليل النصي الحجاجي لخطبة طارق بن زياد

93	1-التعريف بصاحب الخطبة
95	-تحليل الخطبة لسانيا
96	الإحالة
98	الازدواج
101	التكرار
105	-التأكيد
110	-الحذف
111	-التقديم والتأخير
113	-الأساليب الإنشائية
117	-الاستعارة ودورها الحجاجي
122	-المحسنات البديعية ودورها الحجاجي
124	-3تقنيات المحاجة على ضوء أنواع الحجج
125	-توطئة
126	-الحجج شبه المنطقية
130	الحجج المؤسسة على بنية الواقع
137	الحجج المؤسسة لبنية الواقع 137
137	-الحجج التي تستدعي القيم
139	-الحجج التي تستدعي المشترك
140	-الخلاصة

الفصل الرابع: آلية بناء الحجاج

141	1- ترتيب أجزاء القول
150	2- صور الترتيب النحوي في الخطبة
160	3- استثمار نظرية السلم الحجاجي في الخطبة
169	الخاتمة
171	الملحق
172	أهم المصطلحات
176	قائمة المصادر والمراجع
186	فهرس الموضوعات
